

سلسلة مؤلفات السيد الذي يحيى الطبوعة

(٤٣)

نَفَحَاتُ الرَّحْمَنِ فِي مِنَازِلِ الْعُرْفَانِ

دروس عرفانية ألفها سماحة
السيد أبو القاسم الذي يحيى
دأه ظله الوارف

الجزء الثاني
(المنزل ٢١-المنزل ٣٥)
مر ١٠٠٠ منزل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَفَاتِ الرَّحْمَنِ

فِي

مَنَازِلِ الْعِرْفَانِ

دروس عرفانية ألقاها ساحة

السيد أبو القاسم الديباجي

دام ظلّه الوارف

الجزء الثاني

(المنزل ٢١ - المنزل ٣٥)

من ١٠٠٠ منزل

عن سيد المرسلين

صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ **محمد بن عبدالله**

إِنَّ أَرْبَعَكُمْ فِيَّ أَبَامِ كَاهِلِكُمْ نَفَاتِ

أَلَا فَتَعْرِضُوا لَهَا

عن قطب العارفين

أمير المؤمنين عليه السلام

العلم نهر

والحكمة بحر

والعلماء حول النهر بطوفون

والحكمة وسط البحر بغوصون

والعارفون فبحر سفن النجاة بلسيرون

صورة الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الرباني والحكيم الإلهي ساحة آية الله العلامة الشيخ حسن زاده الأملي لساحة السيد أبي القاسم الديباجي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعلنا من خلقه الإنس، وهذا أنا إلى جنابه بنو العلو والعرفاء، ودعانا إلى ما بينه القرآن
لنفرقن؛ والصلوة والسلام على أفصح من ينطق بالصاد، المخاطب بقوله سبحانه: «يا أيها
النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا»، وعلى آله
صيب وجهه وغيبه.
أما بعد فيأتيها الإنسان إنا أمرت الأهل أن يتكلموا بما تكلم القوم حتى يخلقوا باخلاص الله والالتصاف
بأوصافه، حيث كنت قابلا للاعتلاء إلى جنابه وعكس في عدم مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم:
«تعالوا». وقد قال عزير قائل: «ولا تكونوا كالذين نزلوا الله فأنهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون»
يا أيها الذين آمنوا سجدوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكمكم»، أو بيان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم
لذكر الله وما نزل به الحق»، إن الذي قالوا بشأنه ثم استقاموا تنزل عليهم الصلاة.
أما سمعت أفاضل أسوة العارفين قدوة القتالين إمام الكل أمير المؤمنين علي الوصي رضي الله عنه
: «مخزون من سادى يومه؟»، على أنك لم تك شيئا منذ لورا وبعد ذلك نطفة قدرة لا
شيئا وللآن أنت ذواخنة من العوي الباطنة والظاهرة، قابل للإعتناء، إن معارج القدس والطيوان إلى حظائر
الأرض فتنته واستعد لأمدك الأبدى.
ثم علم - صلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك - أنما لا بد للنفوس الشقيقة
إلى الكمال من فاتح مفرد يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لكي تله قلبك الذي السمع وهو شيطان
يغتم الفرصة بالاستفاضة والاستصانة من الأستاذ لتنبيل الحائز لمنقضي العلم والعمل أغنى العبد
للتقى للفقير ساحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلا السيد أبي القاسم الديباجي - أيداه الله سبحانه
بالقاءاته السبوية - لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمد الذي هو
قوة عيون العارفين وبرزق الأبرار على ما بينه الكشف الأتم المحمدي بقوله الثقيل: «وسقاهم
ربهم شرابا طهورا»، وبينه إمام الملك والملكوت، كثاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق
ببيناة القوم كإفراج الطيرى: «أي يطعمهم عن كل شيء، وسور الله إذ لا طاهر تدن شيئا من الأكرام
إلا الله»
ثم أجزأه زيد جدا ودام حجة - أن برزق عني ما حصد لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعا
وهذا صورة شجرة طوبى الطبيعية الروائية التي بها أباهم وابتحج من حيث انتسابي إلى جملة العلماء
رولة أحاديث آل طه وتس:
فاني أرى للصيغة الكاملة التجارية الملقبة بزبور آل محمد وأهل البيت، وجميع روايات

المعصومي عليهم السلام - عن شيعي استاذي أبي الفضل تعلم العصر العلامة ذي القنون السفرد في جمع العلو
 الزاهد الذي عرفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتاوى عندها وزهبا، آية الله الكبرى الحاج السيد
 أبي الحسن المولى محمد بن المولى غلام حسين بن المولى أبي الحسن الطهراني، الشهير بالعلامة الشيرازي
 أفاض الله علينا من بركاته نفاسه النفيسة القدسية، عن الشيخ العالم الفقيه المحدث الرجايلي الشيخ
 محمّد الطهر صاحب الريعة، عن المحدث الماهر، مستمع حفظة المتأخرين الحاج الميرزا حسين النوري
 عن العالم المتفقه المتبحر جامع العلو للعقلية والنقلية الشيخ عبدالحسين الطهراني، عن استاذ الفقهاء التاثيري
 الشيخ محمد صالح الجواهر، عن السيد الفقيه المتبحر السيد جواد العالم صاحب مفتاح الكرامة، عن شيخ الامة
 المشهور الوحيد الاغا محمد باقر الصهباء، عن والده المرحوم الأجل، عن المحدث البارع المتبحر محمد باقر اللطيفي صاحب
 جمال الأنوار، عن السيد الأديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد عليخان المقدسي
 الشيرازي، عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن محمد الدين البهزاني، عن الشيخ الفاضل الشيخ حاكم الدين الحلبي
 عن الشيخ الأجل خاتمة المجتهدين ومجرب العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العالم علي بالإسناد الذي نقله
 في اول كتابه الأربعين - رضوان الله تعالى عليهم جميعين.



هذا هو السيد محمد باقر اللطيفي صاحب جمال الأنوار

وأضاروا بصاحب البحار الجليل عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية
 محمد بن الفضل الكاشغري صاحب الجامع الروافى عن استاذه مستلذا الحكماء، والعلامة الميرزا محمد بن ابراهيم
 الشيرازي المشهور بصاحب التمهيد للإسفا، عن الشيخ المحقق بهاء الدين العالم، عن والده العالم البارح
 عبد الصمد الحارثي العالم عن السيد حسين جعفر الحسيني المكنى، عن الشيخ الجليل علي بن عبد العالى الميمني
 الشيخ الامام شمس الدين الجزائري المعروف بابن المؤذن، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده الميرزا
 محمد بن مكي المعروف بالشهيد - قدس الله سره - الزكية - والإجازات تنهيها إلى الشهيد العبد
 محمد بن مكي - رضوان الله تعالى عليه.

وأيضا رواية صاحب السالفة الشيرازي عن السيد المحقق علم المتأخرين جيا فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف
 بالداماد صاحب القيسية، عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبد الطاهر علي المكنى، عن والده الشيخ المحقق بروج اللطيف
 علي بن عبد العالى المكنى، عن الشيخ علي بن هلال الجرجاني، عن الشيخ الفقيه الزاهد آية العباس محمد بن محمد
 الحجج الأسدي، عن الشيخ الفاضل قنبر السبزواري، عن مشايخه إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام.
 ولذلك قد تفرغته داموا كونه للوفاء في برود عيشه ونفوسه من همتكم على سبيل خاصة في نفوس الزكية السادة ما أفادها
 على شايخي العرفان والاباء العظام العلامة الحاج السيد محمد حسن الطباطبائي صاحب التفسير العظيم للزواجر، واخوه العلامة
 السيد محمد حسن الطباطبائي، والميرزا الحاج الشيخ محمد باقر الآليني رحمه الله عليهم، وكان هؤلاء الشايخ من كبار المستفيدين
 صاحب كتاب العائنة وكتاب التاثيرات وغيرها للدهر الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو العالم بالإسناد احمد كركي
 وهو من أئمة الكبار الأئمة المولى حسين علي الصمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد المشهور الذي ارتكبه
 الرسول الجليل في غيبته في بعض سنين - قدس سره - من آراءهم وفتاواهم الفاضلة - ثم السلمين جليلي
 الذين في رايهم الحجة من الأئمة من مراطيل الاجابة - وقد تفرغوا بيناهم الدائرة الاحقر - الحسن عبد الله بن الحسن

الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الرباني والحكيم الإلهي سماحة آية الله العلامة

الشيخ حسن زاده الأملي لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي

في الثاني والعشرين من شهر جمادى الثانية عام ١٤١٩ هجرية في قم المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ألهمنا حقائق الإيمان، وهدانا إلى جنبه بنور العلم والعرفان، ودعانا إلى مآدبته القرآن الفرقان، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، المخاطب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾، وعلى آله عيب وحيه وغيبه.

أما بعد، فيا أيها الإنسان إنما أمرك الأهم أن تنال غايتك القصوى التي هي التخلق بأخلاق الله والاتصاف بأوصافه، وحيث كنت قابلا للاعتلاء إلى جنبه دعاك في عدة مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم: ﴿تَعَالَوْا﴾، وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾.

أما سمعت ما أفاضه أسوة العارفين وقدوة المتألهين إمام الكل في الكل أمير المؤمنين علي الوصي المرتضى عليه السلام: «مَغْبُونٌ مَنْ سَاوَى يَوْمَاهُ»؟ على أنك لم تكن شيئا مذكورا وبعد ذلك كنت نطفة قدرة لا تعلم شيئا والآن أنت ذو أجنحة من القوى الباطنة والظاهرة قابل للارتقاء إلى معارج القدس والطيران إلى حظائر الأُنس فتنبّه واستعد لأمدك الأبدى.

ثم اعلم - أصلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك - أنها لا بد للنفوس الشيّقة إلى الكمال من فاتح مُفهِم يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يغتنم الفرصة بالاستفاضة والاستضاءة من الأستاذ النبيل الحائز بمنقبتَي العلم والعمل أعني به العدل النقي النقي سماحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلام السيد أبي القاسم الديباجي - أيده الله سبحانه بإلقاءاته السبّوحية - لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمدي الذي هو قرة عيون العارفين ويرزق به الأبرار على ما بيّنه الكشف الأتم المحمّدي بقوله

الثقيل: ﴿.... وَسَقِيَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وبينه إمام الملك والملكوت كشّاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق بيانه القويم كما في مجمع الطبرسي: «أي يطهّرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنّس بشيء من الأكوان إلا الله».

ثم أجزته - زيد مجده ودام وجده - أن يروي عني ما صحّت لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعائية، وهذه صورة شجرة طوبى الطيبة الروائية التي بها أباهي وأبتهج من حيث انتسابي إلى حملة العلم ورواة أحاديث آل طه ويس:

فإني أروي الصحيفة الكاملة السجّادية الملقبة بزبور آل محمّد وإنجيل أهل البيت، وجميع روايات المعصومين - عليهم السلام - عن شيخي وأستاذي أبي الفضائل، معلّم العصر، العلامة ذي الفنون، المفرد في جميع العلوم، الزاهد الذي عزفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتساوى عنده حجرها وزهبتها، آية الله الكبرى الحاج الميرزا أبي الحسن بن المولى محمد المولى غلام حسين بن المولى أبي الحسن الطهراني الشهير بالعلامة الشعراي - أفاض الله سبحانه علينا من بركات أنفاسه النفيسة القدسيّة - عن الشيخ العالم الفقيه المحدث الرجالي الشيخ محمد حسن الطهراني صاحب الذريعة، عن المحدث الماهر، متبّع حفظة المتأخرين الحاج الميرزا حسن النوري، عن العالم المتفكّه المتبحر جامع العلوم العقلية والنقلية الشيخ عبدالحسين الطهراني، عن أستاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، عن السيد الفقيه المتبحّر السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، عن شيخ الأصوليين المشهور بالوحيد الآغا محمد باقر البهبهاني، عن والده محمد الأكمل، عن المحدث البارع المتبحّر محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار، عن السيد الأديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد علي خان المدني الهندي الشيرازي، عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني، عن الشيخ الفاضل الشيخ حسام الدين الحلبي، عن الشيخ الأجل خاتمة المجتهدين وبحر العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العاملي بالإسناد الذي نصّه في أول كتابه الأربعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأيضاً برواية صاحب البحار المجلسي عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية مولانا محمد محسن الفيض الكاشاني صاحب الجامع الوافي عن أستاذه أستاذ الحكماء والفلاسفة المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بصدر المتألهين صاحب الأسفار، عن الشيخ المحقق بهاء الدين العاملي، عن والده العالم البارع حسين بن عبدالصمد الحارثي العاملي، عن السيد حسين بن جعفر الحسيني الكركي، عن الشيخ الجليل علي بن عبدالعالي الميسي، عن الشيخ الإمام شمس الدين الجزيني المعروف بابن المؤذن، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده السعيد

شمس الدين محمد بن مكّي المعروف بالشهيد - قدس الله أسرارهم الزكية -، والإجازات تنتهي نوعاً إلى الشهيد السعيد محمد بن مكّي - رضوان الله تعالى عليه.

وأيضاً برواية صدر المتأهّلين الشيرازي عن السيد المحقق أعلم المتأخرين جامع فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف بالداماد صاحب القبسات، عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبدالعلي بن علي الكركي، عن والده الشيخ المحقق مروّج المذهب علي بن عبدالعالي الكركي، عن الشيخ علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ الفقيه الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي الأسدي، عن الشيخ الفاضل مقداد السيوري، عن مشايخه إلى الأئمة المعصومين - عليهم السلام.

وكذلك قد أجزته - دامت بركاته الوافرة - أن يروي عني ويفيض علي من هو متعلّم علي سبيل نجاة من النفوس الزكيّة المستعدة ما أفاض عليّ مشايخي في العرفان العملي الآيات العظام العلامة الحاج السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب التفسير العظيم الميزان، وأخوه العلامة الحاج السيد محمد حسن الطباطبائي، والبحر الزاخر الحاج الشيخ محمد تقي الأملي - رفع الله درجاتهم -، وكان هؤلاء المشايخ من أكابر المستفيدين من صاحب المقامات العالية والكرامات الباهرة أعجوبة الدهر الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو من العلم الآية السيد أحمد الكربلائي، وهو من آية الله الكبرى الأخوند المولى حسينقلي الهمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد علي الشوشتری الذي أدرك المولى قلي الجولا على التفصيل الذي حرّره في بعض مصنفاتي - قدس الله أسرارهم ورزقنا بركات أنفاسهم القدسيّة.

ثم الملتمس من جناب المولى المكرم الديباجي المحترم أن لا ينساني من الدعاء في مواطن الإجابة، وقد حرّره بيمنه الدائرة الأحقر: «الحسن بن عبدالله بن الحسن الطبري الأملي المشتهر بحسن زاده أملي» في يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر ج ٢ من سنة ١٤١٩ هـ ق = ١٣٧٧ / ٧ / ٢١ هـ ش، على هاجرها آلاف التحية والثناء.

حسن حسن زاده أملي

صورة الشهادة والعرفانية التي كتبها العالم الرباني ساحة آية الله العلامة الشيخ مجد الدين المحلّاتي
قدّس سرّه) لساحة السيد أبي القاسم الديباجي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ
مَهْلِكِ اللَّهُ الَّذِي قَالَ عِزَّاسْمُهُ فِي كِتَابِهِ الْغَزِيرِ إِنَّمَا يُخَيَّرُ اللَّهُ مَنْ عَابَدَهُ الْعُلَمَاءُ وَالْعَالَمُ مِنْ صَرْفِ عَمَلِهِمْ
فِي تَحْصِيلِ عِلْمِ الدِّينِ وَصَارَ مِنْ حَمَلَةِ الْفَقْهِ إِلَى التَّوَمِينِ فَهَرُودَ رَجَبَةً عِنْدَهُ بِالْكَرِيمِ.

فَمَنْ الدِّينَ فَارْتَدَّتْ الدِّعْوَةُ وَهُوَ مُؤْتَقٍ لِهَدْيَةِ النَّاسِ إِلَى زِيَارَاتِ الْمَكَانِ وَالسُّبُورِ لِيَهْلِكَ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى هُوَ السُّبُورُ السُّنْدُ وَالْمَحْرُومُ الْعَيْنِ - الْمَجْمَعُ مِنَ الْمَجْمَعِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَرَعَهُ عَلَى الْعِبَارَةِ
الْإِسْلَامِ وَعِزَّ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّوَمِينِ السَّيِّدِ أَبُو الْقَاسِمِ الدِّبَاجِي، أَيْدِي اللَّهِ تَعَالَى وَوَقْفِهِمْ
فَمَنْ الَّذِينَ صَرَفُوا عَمَلَهُمْ فِي تَحْصِيلِ عِلْمِ الْفَقْهِ وَالْأَصُولِ وَالذَّرَائِعِ وَجِدَّ وَاجْتَهَدَ فِي تَلْوِكِ
مَرْتَبِ الْعِرْمَانِ فِي أَيَّامِ شِبَابِهِ وَهُوَ مُؤْتَقٍ لِدِكِّ مَحَاضِرِ أَسَاتِيدِهِ الْكِرَامِ خُصُوصًا مَحَاضِرِ
الْعَالِمِ الرَّبَّانِيِّ وَالسُّنْدِ الْعَظِيمِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمَحْرُومِ الْعَيْنِ، وَالسَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى هُوَ
الْعَلَامَةُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ حَسِينُ الطَّاهِرِ الطَّاهِرِيُّ قَدَّمَ لِلَّهِ نَفْسَهُ الزُّكِّيَّةَ سَيِّوَتِ عَدِيدَةٍ فِي حُوزَةِ التَّلَاوُحِ

وَكَانَ يَسْتَفِيدُ مِنْ مَضْمُونِ كِتَابِ الْإِسْتِمَارَةِ وَتَلْوِيهِهِ وَتَعْلِيْقِهِ عَلَيْهِ

فَعَلَى الْمُرْتَبِ الصَّالِحِينَ أَنْ يَجْتَنِبُوا أَوْجُوهَ التَّهْيِيبِ وَيَسْتَفِيدُوا مِنْ مَحْضُورِهِ وَأَجْرًا مِنْ حِبَابِهِ
مَنْ دَعَاكَ كَمَا لَا انْشَاءَ انْشَاءً، اللَّهُ إِنْ يَسْتَدِيمُ خِدَايَةَ الْعَالِيَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خُصُوصًا فِي حَبَابِهِ

الَّتِي أَسْتَمِعُهَا لِأَيَّامٍ، نَيْلُ اللَّهِ لِأَجْرِ حَبَابِهِ وَفَضْلُ عَظِيمِ حَبَابِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

سنة ١١٤٢

شهر رمضان ١١٤٢

الشهادة العرفانية التي كتبها العالم الربّاني ساحة آية الله العلامة الشيخ مجد الدين المحلّاتي
(قُدّس سرُّه) لساحة السيد أبي القاسم الديباجي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.
الحمد لله الذي قال عزَّ اسمه في كتابه العزيز ﴿...إِنَّمَا يُحِشِّي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ...﴾، والعالم من
صرف عمره في تحصيل علم الدين وصار من حملة الفقه إلى المؤمنين، فهو ذو درجة عند ربه الكريم.
فمن الذين فاز هذه الدرجة وهو موفَّق لهداية الناس إلى درجات الكمال والسير والسلوك إلى الله
تعالى هو السيد السند والخبر المعتمد الحجة من الحجة عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه على العباد حجة الإسلام
وعزُّ المسلمين والمؤمنين السيد أبو القاسم الديباجي أيده الله تعالى ووفَّقه لمرضاته، فهو من الذين
صرفوا عمرهم في تحصيل علوم الفقه والأصول والدراية، وجدَّ واجتهد في سلوك مراتب العرفان
في أيام شبابه وهو موفَّق لدرك محاضرات الأساتذة الكرام خصوصا محاضرات العالم الرباني والسند
العظيم للإسلام والمسلمين فخر العرفاء والسالكين إلى الله تعالى وهو السيد العلامة السيد محمد
حسين الطباطبائي قدس الله نفسه الزكية سنوات عديدة في حوزة المقدسة في قم، وكان يستفيد من
محضره كمال الاستفادة والله درُّه وعليه جزائه.
فعلى المؤمنين الصالحين أن يغتنموا وجوده الشريف ويستفيدوا من محضره، وأرجو من جنابه أن لا
ينساني من دعائه كما لا أنساه إن شاء الله وأن يستديم خدماته العالية للإسلام والمسلمين خصوصا
في الخيرات التي أسسها للأيتام، نسأل الله له أجر جزيل وفضل عظيم بحق محمد وآله الطاهرين.

مجد الدين محلّاتي

١٤ شهر رمضان ١٤١٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله بما حمد به نفسه والصلاة والسلام على رسوله الأمين وخاتم المرسلين الذي بعثه رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

نستعرض طي الصفحات التالية نبذة مختصرة عن حياة معلم الأخلاق والعرفان العالم الجليل والأستاذ المحقق والمفكر الإسلامي سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد أبي القاسم الديباجي (دام ظله) والتي تشمل نسبه الشريف ومولده ودراساته وأساتدته الأجلاء وعرض مؤلفاته التي صدرت له والمؤلفات التي هي بصدد الإصدار ونشاطاته الدينية والعلمية والفلسفية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يمدّه بعونه ويسدّد خطاه لأداء رسالته ويوفقه إلى مناهج السداد ويهديه سبل الرشاد وينفع به الناس إنه ولي التوفيق.

الترجمة

حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد أبو القاسم الديباجي، ينتهي نسبه الشريف إلى جده السادس والثلاثين السيد الأغر محمد بن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام المعروف بالديباج وإلى العلامة الكبير النسابة الخبير المروزي السيد إسماعيل بن الحسين الديباجي أبي البركات المشهدي رضوان الله تعالى عليه وهو من أعلام القرن السادس الهجري ومؤلف كتاب أنساب آل أبي طالب وغيره من الكتب المعروفة العتيقة.

نسبه

السيد الحاج أبو القاسم الديباجي (١) ابن الحاج السيد نصر الله (٢) ابن الحاج السيد أحمد (٣) ابن السيد محمد حسين (٤) ابن السيد أحمد (٥) ابن السيد مرتضى (٦) ابن السيد حسين (٧) ابن السيد زين الدين علي (٨) ابن السيد محمد جعفر (٩) ابن السيد محمد محسن (١٠) ابن السيد محمد سعيد (١١) ابن السيد عبد الكاظم (١٢) ابن السيد عبد الرضا (١٣) ابن السيد علي (١٤) ابن السيد بابا (١٥) ابن السيد أحمد (١٦) ابن السيد بابا (١٧) ابن السيد ركن الدين (١٨) ابن السيد جمال الدين (١٩) ابن السيد علي (٢٠) ابن السيد حمزة (٢١) ابن السيد إسماعيل (٢٢) ابن السيد محمود (٢٣) ابن السيد محمد (المعروف بجمشيد) (٢٤) ابن السيد إسماعيل أبي البركات الحسيني المشهدي (٢٥) ابن السيد حسين (٢٦) ابن السيد محمد (٢٧) ابن السيد حسين (٢٨) ابن السيد أحمد (٢٩) ابن السيد محمد (٣٠) ابن السيد عزيز (٣١) ابن السيد حسين (٣٢) ابن السيد محمد الأطروش (٣٣) ابن السيد علي (٣٤) ابن السيد حسين (٣٥) ابن السيد علي (٣٦) ابن السيد محمد الديباج (٣٧) ابن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام ابن محمد بن علي ابن حسين ابن علي بن أبي طالب عليهم صلوات الله الملك

الحق المبين وسلامه.

والسيد أبو القاسم الديباجي (دام ظلّه) عالم فاضل ومحقق مدقق له إجازات كثيرة من كبار الفقهاء المجيزين في النجف الأشرف وقم المقدسة وداعية إسلامي فعال ونشط لا يفتر عن العمل المتواصل والدؤوب في خدمة الإسلام والمسلمين وإعلاء المذهب الشيعي، هذا ويتصف سماحته بتواضع النفس ورحابة الصدر ودماثة الخلق وذو فضائل خلقية كريمة.

ولادته ودراساته وأساتذته

ولد سماحته في مدينة إصفهان عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٨ م) ثم انتقل برفقة والده العلامة حجة الإسلام الحاج السيد نصر الله الديباجي إلى مدينة أهواز في جنوب إيران ونشأ وترعرع هناك وتلقى دروسه في المراحل الابتدائية والمتوسطة حسب المناهج التعليمية الحديثة وأكمل دراسته في المرحلة الثانوية ثم اتجه إلى دراسة العلوم الدينية وبدأ بمقدمات العلوم الحوزوية عند أخيه الأكبر وأستاذه الأول الشهيد آية الله الحاج السيد أحمد الديباجي (قده) وكان أول عالم روحاني استشهد في إيران بعد قيام الثورة الإسلامية فيها مع ولديه الشهيدان السيد محمد الديباجي والسيد علي الديباجي وذلك في الجامع المحسني في العاصمة طهران.

وبعدما أكمل مقدمات العلوم الدينية تعمّم بعمامة أجداده الطاهرين عليهم السلام ودخل في سلك رجال الدين بمباركة من المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد علي البهبهاني (قده) الذي كان في حينه مرجعاً دينياً كبيراً داخل إيران وخارجها.

ولإكمال الدراسات المتقدمة في العلوم الحوزوية انتقل إلى مدينة قم المقدسة وتوطّأ لسنوات عديدة حيث حضر دروس السطح العالي عند كبار الأساتذة المعروفين كالأستاذ الشيخ رحمة الله الفشاركي والأستاذ سؤوده والأستاذ طاهر شمس والأستاذ صلواتي.

وبعد إكماله دروس مرحلة السطح العالي التحق بدروس الخارج في العلوم العقلية والنقلية ودروس الفلسفة والعرفان عند رجال العلم وأساتذة الفن منهم الفيلسوف الأكبر المذهب الأتقي الحاج الشيخ يحيى الأنصاري الشيرازي (دام ظلّه العالي) والأستاذ الكبير العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قده) - صاحب التفسير الكبير «الميزان في تفسير القرآن» - ولفرط حبه لأستاذه السيد العلامة فقد كان يسكن في جواره، كما أنه حضر دروس الفقه والأحكام عند المرحوم آية الله العظمى الشيخ مرتضى الحائري (قده) نجل المرحوم آية الله العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري (قده) - مؤسس الحوزة العلمية في قم المقدسة - كما حضر في علم الأصول دروس المرحوم المقدس آية الله

الحاج الشيخ ميرزا كاظم التبريزي (قده) وهو من أعظم علماء النجف ومن تلامذة الإمام المقدس السيد الخوئي (قده).

ثم سافر إلى النجف الأشرف وعاش في رحاب مولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه آلاف التحية والصلاة، وفي جنبات حوزة النجف - الحوزة الأم - المشعة بأنوار باب مدينة علم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله حضر دروس وأبحاث أساطين العلم وفضاحل الفقه كالأستاذ آية الله العظمى الإمام الخوئي (قده) في مباحث الفقه والأستاذ آية الله العظمى الإمام الخميني (قده) في مباحث الخلل من كتاب الصلاة فتدرّج في مراتب دراسة الفقه والعلوم.

مراتبه العلمية

حاز سماحته على شهادات علمية وإجازات روائية وإجازات تأهيل من كبار أساتذته الأجلاء من العلماء والمراجع.

ولمزيد من التفاصيل في شرح نسب سماحته الشريف وإجازاته العلمية يمكن الرجوع إلى كتاب «العلماء ومراجع التقليد (المرجعية الدينية ومراجع الإمامية)» الطبعة الثانية - طهران - للأستاذ الدكتور نور الدين الشاهرودي.

ومثلما استفاد من أساتذته الأعظم في مراحل الدرس والبحث والتقصي العلمي المختلفة كان بدوره يفيد الآخرين من خلال إلقاء الدروس والمحاضرات لجمع من الفضلاء وطلبة العلم وفي مستويات مختلفة.

وفي هذا المقام لا بد أن نشير إلى أن المراتب العلمية التي نالها سماحته لم تقتصر على الشهادات الحوزوية فحسب بل أنه حاز على شهادات من جامعات ومعاهد علمية عالمية حديثة، فقد منحته جامعة أكسفورد البريطانية درجة الدكتوراه سنة ١٩٩٦ م، إضافة إلى نيل العضوية العلمية في تلك الجامعة، ومنحه الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية في فرنسا دكتوراه الإبداع في العلوم الإسلامية في الثامن والعشرين من شهر محرم سنة ١٤٢١ هـ الموافق الثاني من شهر مايو سنة ٢٠٠٠ م.

هجرته إلى الكويت

في عام ١٤٠٦ هـ جاءت دعوة كريمة من جمع غفير من الشيعة المخلصين والمحبين لأهل البيت الأطهار عليهم السلام في الكويت يطلبون من سماحته القدوم إليهم فيكون لهم إماماً وقائداً ومرشداً وقائماً بالأمر الديني في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد لبّى سماحته طلبهم وهاجر إليهم، ومنذ

ذلك الحين وإلى يومنا هذا وهو يقوم بأداء واجبه الشرعي على أتم وجه.

نشاطاته المختلفة في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام

لقد جعل سماحته بجِدِّه واجتهاده من مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام دار علم وثقافة إسلامية عامة ومنطلقاً لنشاطاته الدينية والثقافية وبحوثه العلمية الفلسفية التي استفاد منها الإخوة والأخوات على حدٍّ سواء.

ومن جملة نشاطاته الدينية الهادفة إقامة صلاة الجماعة في المسجد الجامع وإفادته ودروسه ألقية التي يلقيها كل ليلة بعد صلاتي المغرب والعشاء، وقد خصَّص في كل ليلة درسا خاصا من تلك الدروس وهي كما يلي:

ليلة السبت: دروس في تفسير القرآن

ليلة الأحد: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الإثنين: دروس في الأخلاق

ليلة الثلاثاء: دروس في العقائد

ليلة الأربعاء: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الخميس: دروس في الأحاديث والروايات

ليلة الجمعة: منازل العرفان النظري والعرفان العملي

(وقد درّس سماحته إلى وقت طباعة الجزء الثاني ٤٩٦ منزلا من أصل ١٠٠٠ منزل)

يوم الجمعة: إلقاء خطبة في مباحث عامة نهار كل جمعة بين صلاتي الظهر والعصر.

هذا ويشارك الكثير من الإخوة المؤمنين والشباب والمتقنين من البلدان المجاورة في هذه الدروس وذلك بالسفر إلى الكويت والحضور شخصيا إلى المسجد الجامع.

ويمكن القول أن هذا الجامع - جامع الإمام زين العابدين عليه السلام - غدا مركزا تثقيفيا وروحيا فريدا من نوعه حيث أنه يغدّي تلامذته والمتسبين إليه بالدروس والبحوث الدينية المختلفة وإن كانوا خارج الكويت وكذلك الذين يسافرون إلى الخارج لإتمام دراساتهم العليا في جميع أنحاء العالم حيث يبقى الجامع على اتصال معهم عبر لجنة ثقافية يتولى سماحته رئاستها والإشراف المباشر عليها.

وتجدر الإشارة هنا أن سماحته امتاز بجلب الأكابر والأفاضل من رجال العلم من الأقطار المختلفة إلى رحاب مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام في جميع المناسبات الدينية طوال العام حتى يمكن الاستفادة من علومهم وبحوثهم فصار الجامع مهبطا للعلماء ومنهلا للعلوم ومركزا للبحوث

الإسلامية المختلفة.

ومن جملة هؤلاء العلماء: سماحة المرحوم آية الله الشيخ مجد الدين المحلاتي (قده) - زعيم الحوزة العلمية في شيراز - وسماحة آية الله السيد إسماعيل المرعشي وسماحة المرحوم آية الله السيد محمد الفيروزآبادي (قده) وسماحة آية الله الشيخ عبد الجليل الجليلي وسماحة آية الله الشيخ محمد رضا الجعفري وسماحة آية الله العلامة الدكتور السيد مصطفى محقق داماد وسماحة آية الله الأستاذ الشيخ أبو القاسم الروحاني وسماحة آية الله الشيخ جواد السهلاني وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ عباس الجمالي وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد باقر المدرس وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشهيد السيد محمد تقي الخوئي (قده) وسماحة حجة الإسلام السيد عبدالمجيد الخوئي وسماحة الشيخ محمد محمدي الاشتهاردي وغيرهم من العلماء الأجلاء.

سائر نشاطاته خارج مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام

إلى جانب نشاطاته العلمية والدينية الدائمة التي قام ويقوم بها سماحته في نطاق مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام فإن له إسهامات وأيدي بيضاء في دعم المشاريع الخيرية والدينية والتربوية الإسلامية وكل ما يخدم الدين الإسلامي الحنيف من قريب أو بعيد، كما أن سماحته بخلقه الكريمة عون للمحتاجين والمعوزين.

وكذلك فإن لسماحته أيضا اهتمامات بمؤسسات دينية خارج الكويت، فقد أنشئ بسعيه المبارك مركز دار الثقلين في الهند ومدارس خاصة للأيتام وحوزة علمية باسم الإمام المهدي (عج) في مدينة بمباي إضافة إلى مراكز علمية أخرى، وإن خدماته الجليلة في تلك المناطق معروفة لدى الجميع.

مؤلفاته

يعتبر سماحته مؤلفا مكثرا إذ ألف كتبا ورسائل عديدة تتناول مختلف العلوم والبحوث الدينية وبأسلوب شيق ومنطق رصين، وقد طبعت مؤلفاته لأكثر من مرة، ومن الكتب والرسائل التي تم إصدارها ما يلي:

١- العرفان نهج خاص - طبع في الكويت عام ١٩٩٢م

٢- رسالة عقائدية (رد على كتاب «الشيعة والتصحيح» للدكتور الموسوي) - ويتضمن جملة من الأطروحات لمناقشة وتفنيذ دعاوى صاحب كتاب «الشيعة والتصحيح» وإبطال حججه استنادا إلى الآيات القرآنية وروايات أهل البيت عليهم السلام - طبع في إيران عام ١٩٩٣م

- ٣- خطر الأفيون - كتاب مختصر مفيد بيّن فيه مؤلفه خطر الأفيون والإدمان وآثاره السلبية في حياة الإنسان وطرق الوقاية منها وعلاجها - طبع في الكويت عام ١٩٩٣ م
- ٤- الحج أحكاما وفلسفة ودعاء - كتاب توضّح فيه الأحكام الفقهية لمناسك الحج والفلسفة الخاصة بكل منسك والتي تهدف إلى تقوية الصلة الروحية بين الحاج وأعماله ثم تخصيص جانب من الكتاب للأدعية الخاصة بكل الأعمال التي يؤديها الحاج ابتداء من خروجه من دياره متوجهاً إلى الديار المقدسة ومروراً بمناسك الحج وانتهاءً بعودته إلى دياره وكذلك الزيارات الخاصة برسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ والزيارات الخاصة بالأماكن المقدسة في المدينة المنورة ومكة المكرمة - طبعت الطبعة الأولى في إيران عام ١٩٩٣ م والطبعة الثانية في الكويت عام ١٩٩٧ م
- ٥- مبحث في أصل التوحيد - دراسة معاصرة - الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين - ويشرح فيه المؤلف أقسام التوحيد وآثارها الحسنة وأنواع الشرك وآثارها السيئة باعتماد رؤية الأفق القرآني العظيم واستقراء الروايات الصحيحة المنقولة عن أهل البيت ﷺ، وكذلك عرض الأدلة الدقيقة والواسعة لمبدأ التوحيد والاستدلال بالشواهد والحقائق الكونية، ويُدرّس هذا الكتاب الآن في الحوزات والمراكز العلمية بوصفه مصدراً من المصادر المعتمدة في دراسة أصول الدين - طبع في لبنان عام ١٩٩٥ م
- ٦- مبحث في أصل النبوة - دراسة معاصرة - الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين - مبحث في تعريف النبوة وعلّة بعثة الأنبياء ﷺ والوحي السماوي وأنواعه والبحث في عصمة الأنبياء ﷺ ومعجزاتهم وأولي العزم من الرسل وبيان شخصية ومراتب مقامات خاتم الأنبياء الرسول الأكرم محمد ﷺ والتأسي به في الحياة الفردية والاجتماعية.
- ٧- مبحث في أصل العدل - دراسة معاصرة - الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين - ويتطرق فيه المؤلف إلى مفهوم العدل في الشرائع السماوية ويبحث حول الوعد والوعيد والجبر والتفويض والقضاء والقدر بين الفرق الإسلامية المختلفة وتنزيه الذات الإلهية عن الظلم - طبع في لبنان عام ١٩٩٦ م.
- ٨- مبحث في أصل الإمامة - دراسة معاصرة - الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين - مبحث في مفاهيم الإمامة ودور الإمامة في حياة الأمة والدلائل العقلية والنقلية من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الموجبة للإمامة وأن المذهب الاثنا عشري هو المذهب الحي الوحيد الذي يمكن أن يكون له إماماً حياً وهو الحجة بن الحسن المهدي (عج) - طبع في الكويت عام ١٩٩٧ م

٩- مبحث في أصل المعاد يوم القيامة - دراسة معاصرة - الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين - وتطرق المؤلف فيه إلى الدلائل في المعاد والمعاد في القرآن الكريم والروايات الشريفة وتساؤلات وردود حول المعاد والآثار المعنوية والتربوية المترتبة على الاعتقاد بالمعاد - طبع في الكويت عام ١٩٩٨ م

١٠- أجود المناظرات - إشراف وتحقيق المترجم له - تمت ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والأردو ويشمل على نماذج من مناظرات النبي الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين ﷺ وتلامذتهم مع مختلف الطوائف والمذاهب وفي شتى المواضيع والأمور الإسلامية وكذلك نماذج من مناظرات كبار علماء الدين ومفكري الإسلام في الماضي والحاضر مع مختلف الأشخاص والتي تبين طريقة وأسلوب مواجهتهم للمنكرين والملاحدين وتأثر الناس بمنطقهم السليم، هذا ويضم الكتاب بين دفتيه ١٠١ مناظرة - طبع في لبنان عام ١٩٩٥ م

١١- الإمام المهدي الحقيقة المنتظرة - طبع في إيران عام ١٩٩٥ م - يستعرض فيه المؤلف بعض الجوانب الهامة في حياة الإمام المهدي (عج) وأهدافه وبرامجه دولته العادلة، ويقدم فيه المواضيع المهمة بشكل يحيط - رغم اختصاره - بأهم الأبعاد الخاصة بهذا البحث الدقيق والمهم، وفصول الكتاب تختص بالمباحث التالية:

- ما يتعلق بولادته ﷺ وستر أبيه له في ألسنين الأولى من عمره الشريف.
- الغيبة الصغرى وصلته ﷺ بشيعته.
- الغيبة الكبرى وانتظار شيعته لظهوره ﷺ.
- تساؤلات مع الإمام المهدي ﷺ.
- الإمام المهدي ﷺ غذاء الروح.
- حكومته ﷺ وعصره المزدهر بالخير والعتاء.

١٢- منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر ﷺ - تحقيق وإشراف المترجم له - ويقع هذا الكتاب القِيم في ثلاثة أجزاء من أربعة عشر مجلد وهو عبارة عن سلسلة ذهبية لامعة في سيرة كل معصوم مع مختارات لطيفة من حياته على مختلف الأصعدة، ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بأنه:

- يعرض عرضاً شاملاً وسريعاً ومبسوطاً لتاريخ حياة المعصوم ﷺ منذ ولادته ومروراً بمراحل صباه وشبابه وفترة إمامته ومعاصريه من الحكام إلى يوم أن اختاره الله عز وجل لجواره.
- يسرد الحقائق التاريخية الجليلة والقِيمة التي طمستها أقلام المناوئين وألسنة الحاقدين وتجاهلها أكثر المؤلفين والمؤرخين.

- يكشف عمق الأحداث والمصائب التي تجرَّعها الله وفي الله ولتحقيق العدالة ونشر المعارف الإسلامية.

والأجزاء الثلاثة هي كالتالي:

(١)- تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر - خمسة أهل الكساء

(٢)- تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر - من الإمام السجاد عليه السلام إلى الإمام الرضا عليه السلام

(٣)- تحقيق وإشراف أربعة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر - من الإمام الجواد عليه السلام إلى الإمام المهدي المنتظر (عج)

١٣- زينب الكبرى عليها السلام بطلة الحرية - طبع في الكويت عام ١٩٩٦ م - وقد قوبل كتابه هذا باستحسان وإقبال كبيرين وجرى طبعه لعدة مرات، بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو»، وقد صنَّف المؤلف مواضيع الكتاب في أربعة فصول رئيسية هي كالتالي:

- زينب عليها السلام من المهد إلى أحداث كربلاء ولمحات من فضائلها.

- زينب عليها السلام وأحداث كربلاء.

- زينب عليها السلام بعد عاشوراء إلى وفاتها.

- مرقد زينب الكبرى عليها السلام وبعض كراماتها.

١٤- العباس بن علي عليهما السلام بطل النهضة الحسينية - طبع في الكويت عام ١٩٩٧ م - بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو»، وأستعرض فيها المؤلف شخصية أخرى من أبطال فاجعة الطف الأليمة وهو العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام حيث تناول فيه أبعاد شخصية قمر العشيبة وساقى عطاشى كربلاء، وقد صنَّف المؤلف هذا الكتاب فصولاً أربعة هي كالتالي:

- العباس عليه السلام في عهد والده أمير المؤمنين عليه السلام - حوالي أربعة عشر عاما.

- العباس عليه السلام في عهد إمامة الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليهما السلام - حوالي عشرون عاما.

- العباس عليه السلام في واقعة الطف وبطولاته واستشهاده.

- مرقد العباس عليه السلام وما طرأ عليه من التجديدات وبعض كراماته.

١٥- أجوبتنا على مسائلكم الدينية - وفيه يرد على ثلاثمائة سؤال يتعلق بالعقائد والفلسفة والفقه ومواضيع دينية متفرقة، وتم تصنيف الكتاب في عشرة مجلدات كل مجلد يضم ثلاثين سؤالاً وجواباً - طبع المجلد الأول في الكويت عام ١٩٩٧ م

- ١٦- القصص الهادفة عن سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام - تحت إشراف الأستاذ المحقق المترجم له - كتاب مكمل لمنتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام ولكنه أقوى تحقيقاً وعلمياً - بالإضافة إلى طبعة خاصة بلغة «الأردو» - طبع عام ١٩٩٦ م
- ١٧- المنتخب من قصص المثنوي - تحقيق وإشراف المترجم له - وهو ترجمة وشرح بعض أشعار العارف والشاعر الكبير جلال الدين الرومي المعروف بـ«مولانا» أو «المولوي» ويحتوي على المنتخب من الآيات والروايات الإسلامية المبينة للحقائق الملموسة والمعنوية التي يحتاج إليها الجسم والروح - طبع عام ١٩٩٦ م
- ١٨- حوار حول الإمام المهدي (عج) - طبع في لبنان عام ١٩٩٧ م
- ١٩- الفتنة العظمى - الحلقة الأولى من سلسلة دراسات تاريخية - دراسة معاصرة للسياسة الأموية في صدر الدعوة الإسلامية - طبع في لبنان عام ١٩٩٨ م
- ٢٠- حقوق الإنسان في الإسلام - دراسة وتحقيق في بحث حقوق الإنسان الإسلامية وأنواعها والمبارزة مع الظلم والسياسات الاستعمارية - طبع عام ١٩٩٩ م.
- ٢١- حقوق المرأة في الإسلام - دراسة معاصرة - كتاب جامع عن شخصية المرأة وحقوقها والحقوق المتقابلة بين المرأة والرجل عامة - طبع عام ١٩٩٩ م.
- ٢٢- مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها - مشروع بحث قدمه المترجم له في ندوة اجتماع دولي لوضع استراتيجية مشتركة للتقريب بين المذاهب الإسلامية - دمشق ١٠-١٢ أبريل ١٩٩٩ م.
- ٢٣- نفحات الرحمن في منازل العرفان - الجزء الأول - (المنزل ١ - المنزل ٢٠) من أصل ١٠٠٠ منزل - طبع في ٢٠ جمادى الآخرة عام ١٤٢٠ هجرية الموافق ٣٠ سبتمبر ١٩٩٩ م
- ٢٤- فضائل ومناقب علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام في مسانيد أهل السنة - الجزء الأول والجزء الثاني - طبع عام ١٩٩٩ م.
- ٢٥- سياء الأولياء وكراماتهم - الجزء الثاني - طبع عام ١٩٩٩ م.
- ٢٦- السيدة خديجة عليها السلام... مقاومة، إيثار، أسطورة، طبع عام ٢٠٠٠ م.

مؤلفات تحت الإشراف والتحقيق والطبع

- ١- دراسة في الفقه الإسلامي - خلاصة الفقه الإسلامي الحي والمبتلى به الناس مع توضيح مبادئ الفقه وأسس الفقه.
- ٢- دراسة في علم التفسير - بحث في علم تفسير القرآن المجيد وهي دروس طرحها سماحته في

- مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد تم تخزينها في الكمبيوتر.
- ٣- دراسة في الفلسفة الإسلامية - دراسة في مبادئ الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بالمكاتب الفلسفية الأخرى.
- ٤- السنّة النبوية المطهرة - دراسة وتحليل - دراسة وتحليل السنّة النبوية المطهرة مع بيان آراء الفرق الإسلامية وعلاقتها بالحياة الاجتماعية للمسلمين.
- ٥- الإمام الحسين عليه السلام رسالة الإنسانية - دراسة معاصرة - كتاب يستعرض شخصية سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام وفلسفة ثورته الخالدة، وقد تمت ترجمة شطر كبير من هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية.
- ٦- دراسة في الأخلاق - دروس ومحاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام مع توضيح أهم البحوث الأخلاقية مقارنة بالقضايا العلمية والعصرية.
- ٧- من الجمعة إلى الجمعة - سلسلة محاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام من خلال خطب الجمعة حسب ما يتطلبه الواقع الاجتماعي مع العلم أن جميع هذه الخطب مسجلة في أشرطة.

المقدّمة

الحمد لله الواحد بلا عدد والدائم بلا أمد والقائم بلا عمد المقنن بالآلاء الممتنع بالكبرياء النائي عن العيون لشدة جماله والمختفي عن الأنظار لفرط نوره فلم تره العيون بمشاهدة العيان ورأته القلوب بحقائق الإيمان ثم أشرف الصلوات وأنمى البركات على المبعوث من تهامة المظلل بالغمامة صاحب الشفاعة يوم القيامة أول الأنبياء نورا وآخرهم ظهورا الأحمدم من الأوصاف والمحمد لسائر الأشراف المغموس في بحر الفضائل والملبّس لحلل المفاخر وعلى آل بيته العترة الزكية السادة الولاية والأئمة الهداة والقادة الحماة لا سيما ناموس الدهر وإمام العصر ببقية الله في الأرضين والقائم بالحق المبين صاحب الزمان وإمام الإنس والجان الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

اعلموا عباد الله أن الله تعالى جلّت عظمته خلق الخلائق وهو غني عن خلقهم لا لغاية إلا ما أشار إليها في مكنون كتابه حيث قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) فالعبادة غاية الخلقة والتكوين وفي حد ذاتها وسيلة للقرب إلى الكمال المطلق والذات الأحادية المتعالية، ومن هنا كان قوله عز من قائل في حديث قدسي: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لَكِي أَعْرَفَ»^(٢)، ومع الجمع بين الآية والحديث نخرج بهذه الحصيلة النورانية الملكوتية وهي أن العبادة الحقيقية ليست حركات الأبدان وسكناتها فحسب إنما هي معرفة الله حق معرفته وعبادته حق عبادته كما قال سيد الموحدين وقطب العارفين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»^(٣)، فمعرفة الله تبارك وتعالى هي الوسيلة المؤدية إلى التوحيد الخالص له دون غيره، ولا يخفى أن معرفة الله تبارك وتعالى محدودة في نعوته وصفاته الجلالية منها والجمالية وأما التفكير في ذاته وإدراك كنهه فلا سبيل لأحد إليه كما قال سيد البشر صلى الله عليه وآله: «مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ»^(٤)، وكذلك قول الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أُحْتَجَبَ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا أُحْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ»^(٥)، بل

منهني عنه كما قال الإمام علي عليه السلام: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ»^(٦)!! وأما دون ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يحجب الخلائق عن وجوب معرفته بل كلفهم ذلك كل حسب قابليته وطاقاته واستعداداته، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في ذلك: «إِنَّ أَفْهَامَ النَّاسِ وَعُقُولَهُمْ مُتَفَاوِتَةٌ فِي قَبُولِ مَرَاتِبِ الْعِرْفَانِ وَتَحْصِيلِ الْأَطْمِئْنَانِ كَمَا وَكَيْفًا شِدَّةً وَضَعْفًا سُرْعَةً وَبِطْئًا حَالًا وَعِلْمًا وَكَشْفًا وَعِيَانًا وَإِنْ كَانَ أَصْلُ الْمَعْرِفَةِ فِطْرِيًّا إِمَّا ضَرُورِيًّا أَوْ يُهْتَدَى إِلَيْهِ بِأَدْنَى تَنْبِيهِهِ فَلِكُلِّ طَرِيقَةٍ هِدَاةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهُدَايَةِ وَالطَّرُقِ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ أَنْفَاسِ الْخَلَائِقِ وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ»^(٧)!!

ولابد الإشارة هنا إلى أن هناك فرق بين العلم والعرفان فالعلم هو الاطلاع على ذات الشيء وأما العرفان فهو العلم بآثار الشيء ومصاديقه أو هو إدراك الشيء بفكر وتدبر وهو أخص من العلم وضده الإنكار وما أحسن ما قاله الأستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي عليه السلام في معنى العرفان أنه: «تطبيق الصورة الحاصلة في المُدْرَكَةِ على ما هو مَحْزُونٌ فِي الذَّهْنِ وَلِذَا قِيلَ أَنَّهُ إِذْرَاكٌ بَعْدَ عِلْمٍ سَابِقٍ»^(٨).

يقول العرفاء أن الإنسان يشعر على الدوام بالنقص والاحتياج، وبفطرته الأصيلة يميل إلى من يسد نقصه واحتياجه، ولجبران هاتين النقيصتين يتحرك نحو الكمال، هذه الحركة المعنوية الباطنية والذاتية الخفية التي تنشأ في روح الإنسان وقلبه وترتقي بهما تجاه الذات القدسية وكل الكمال تُعرَف بالسير والسلوك إلى الله.

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاجِدٌ

وَكُلُّهُ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشِيرُ^(٩)

فالسُّلُوكُ هُوَ طَيِّبُ الطَّرِيقِ لِلْوَصُولِ إِلَى لِقَاءِ جَمَالِ ذِي الْجَمَالِ الْمَطْلُوقِ وَالسَّيْرُ هُوَ مَشَاهِدَةُ آثَارِ وَخِصَائِصِ الْمَنَازِلِ الَّتِي يَطْوِيهَا السَّالِكُ مَنزَلًا بَعْدَ مَنزَلٍ وَالْمُتَرْتَبَةُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَكَلِمًا يَطْوِي مَنزَلًا يَرْقَى إِلَى الْكَمَالِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى أَوْجِ الْكَمَالِ وَهُوَ مَقَامُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ.

وعلى هذا فمبدأ السير والسلوك إلى الله هو النقص والاحتياج الفطري كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ آخَرُ جَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(١٠)، ومنتهاه جناب الحق المنزه عن كل نقص: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(١١).

ولا شك أن الجذبة الإلهية والنفحات الرحمانية هي التي تدفع الإنسان إلى التعرف على عوالم الغيب وكشف حقائق عالم الوجود، فحينما خلق الله العباد وهو ذو المن القديم هيأ لهم الأسباب والعلل ليفيض عليهم من شئام أَلطافه الغيبية ونسائم نفحاته القدسية التي تهبُّ عليهم بين حين وآخر كما

قال سيد المرسلين ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلْفَ تَعَرَّضُوا لَهَا»^(١١٢)، فعلى العبد أن يقف في مهَبِّ تلك النسائم والأطياب الإلهية ويشد رحله للسير فيها والسفر إلى الله حتى تسلك به إلى لقاء مبدأ الفيض الأزلي والوجود السرمدى.

ولما كانت المعرفة والعرفان وسيلة السالك إلى الله في السير والسلوك إلى حظيرة القدس ورياض الأنس فلا بد من تجرد القلب والروح من مظاهر الطبيعة المادية وكدوراتها وتطهير النفس من علائق الدنيا الدنية وشوائبها والتخلص من الإنيّة والأناية والآثار الوجودية شيئاً فشيئاً والدوام في جهاد النفس ومراقبتها ومحاسبتها ثم التزين بزينة الأخلاق والتحلي بحسنات الصفات والعروج نحو التكامل المعنوي والسمو الروحي بالاستمداد من العون الإلهي والمدد الرحماني حتى تُرفع الحجب الظلمانية الناشئة في النفس وتُفتح من هذا العالم المادي منافذ تطل على ما وراء الطبيعة والعوالم العلوية والعقول المجردة عن المادة وتتصل الروح بأنوار الملاء الأعلى وتُنال بذلك المدارج العليا في الكمالات إلى أن يصل إلي مقام الفناء في الله فيخرق بصر قلبه حجب النور ويكون مظهراً من مظاهر تجليات الحق تبارك وتعالى وينتهي به المقام إلى رَوْحِ الله ورضوانه والخلود في جنة لقاءه.

والسالك في سفره إلى الله تعالى يحتاج إلى مرشد ودليل لكي يأخذ بيده ويرشده إلى الطريق المستقيم حينما تفترق أمامه الطرق فينقذه من المتاهات والظلمات والوقوع في خطر الآفات والمهلكات ويكون سبيل الله في هدايته والوصول إلى مقصده: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾^(١١٣)، وخير الأدلاء على نور الله الأعظم النبي الخاتم الهادي البشير والسراج المنير محمد بن عبد الله ﷺ الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾^(١١٤)، ومن بعده قطب العارفين ودليل القاصدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذريته الأئمة المعصومين عليهم السلام وهم العروة الوثقى وحبل الله المتين، ثم أولياء الله الصالحين والعلماء العاملين والعرفاء الكمّالين الذين وصلوا إلى حقائق عالم الوجود وأسرار الملك والملكوت وتغلغلوا في المكاشفات والمشاهدات باتباع أحكام الله من أوامره ونواهيه وجاهدوا بالرياضات الشرعية والتكاليف الإلهية حتى صاروا مظهراً من مظاهر تجليات رب العالمين، فعلى السالك أن يتخذ أحدهم مرشداً يرشده ويأخذ بيده ويوصله من حالة القوة والاستعداد المحض إلى الفعلية المعنوية.

وأما سلسلة مرشدنا الأعظم الذين وصلوا إلى المقامات الإلهية المثلى والمراتب المعنوية العليا في عصرنا هذا فهي كما يلي:

١ - الحكيم الإلهي والعارف الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله صاحب كتاب

«الميزان في تفسير القرآن» (١٣٢١ هـ - ١٤٠٢ هـ).

٢- الأستاذ الأعظم عبقرى الأخلاق والعرفان السيد على القاضي التبريزي رحمته الله (١٢٨٥ هـ - ١٣٦٦ هـ).

٣- العارف الكامل والحكيم الإلهي السيد أحمد الكربلائي رحمته الله (؟ - ١٣٣٢ هـ).

٤- العالم الرباني والعارف الصمداني جمال السالكين الملا حسينقلي الهمداني رحمته الله (١٢٣٩ هـ - ١٣١١ هـ).

٥- العالم الفقيه والعارف الجليل السيد علي الششتري - التستري - رحمته الله.

٦- الملا قلي الجولا - الجولائي - رحمته الله.

إلى أن تنتهي حلقات سلسلة أهل العرفان إلى قطب العارفين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولقد كان المسلك العرفاني لكل مرشد من هؤلاء المرشدين العظيم مطابقاً للمسلك العرفاني لأستاذه والمبني أساساً على الحديث النبوي الشريف المتواتر: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» (١٥) فمعرفة النفس مقدمة لمعرفة الرب وكلمة عرف الإنسان نفسه تخلى عنها حتى تتلاشى تماماً وتمحى ولا يبقى منها رسم أو أثر «وَعِنْدَ الْفَنَاءِ عَنِ النَّفْسِ بِمَرَاتِبِهَا يَحْصُلُ الْبَقَاءُ بِالرَّبِّ»، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله كيف الطريق إلى معرفة الحق فقال صلى الله عليه وآله معرفة النفس فكيف الطريق إلى موافقة الحق فقال صلى الله عليه وآله مخالفة النفس!! ولا يمكن الحصول على هذا المقام إلا بالالتزام بالمرابعة الدائمة والمناسبة لكل مرحلة من مراحل السير والسلوك إلى الله.

ويجدر بالذكر هنا أن المنهج العرفاني الذي اتبعه سلسلة مرشديننا الأعلام قائم على آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وآله وروايات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ولا يشذ عنه ولو بمقدار حبة من خردل، فالخروج عن مسار الشريعة المحمدية الغراء والولاية العلوية البيضاء ليس إلا الوقوف على مفترق الطريق ثم الوقوع في المهالك وقد يؤول إلى الكفر والعياذ بالله.

وأما المسافة التي يقطعها السالك في سفره إلى الله فتتقسم إلى مراحل ومقامات علمية وعملية متتالية ويسمى كل مقام من هذه المقامات منزلاً، وما لم يطو السالك أي منزل من المنازل لا يمكنه الانتقال إلى المنزل التالي.

وقد اختلفت أقوال العارفين في عدد المنازل وترتيبها مستندين في أقوالهم على الآيات القرآنية والروايات، فقال البعض أنه منزل واحد لا غير وهو «الفصل والوصل» أو «القطع والوصل» أو «معرفة النفس»، وقال بعضهم أنه منزلان هما الظاهر والباطن أو الشريعة والطريقة أو الشهود والغيب أو الحجب الظلمانية والحجب النورانية، وقال البعض الآخر أنه ثلاث منازل بعدد العوالم وهي عالم الطبيعة وعالم المثال وعالم العقل أو عالم الملك وعالم الملكوت وعالم الجبروت، وقال البعض أن الحجب

والمنازل أربعة وهي ترك الدنيا وترك العقبي وترك المولى وترك الترك، والبعض قال أنه خمسة منازل وهي الحضرات الخمس أو العوالم الخمس الطبيعة والمثال والروح والسر والذات، وعدّد آخرون سبعة منازل استناداً إلى ما ذكر من الآيات في «السموات السبع والأرضين السبع» فالسموات السبع دالة على الحجب النورانية التي تتناسب مع مراتب النفس والأرضين السبع دالة على الحجب الظلمانية التي تتناسب مع حواس الإنسان الظاهرية أو عوالم الحس والمثال والعقل والسر والسر المستسر والسر المقنّع بالسر والذات، وبعضهم قسمها إلى عشر منازل حسب مراتب الإيمان «الإيمان عشر درجات وسلمان في العاشرة» (منهم الملا هادي السبزواري رحمته الله)، والبعض استند إلى عدد الحجب التي كشفت عن رسول الله في المعراج فقال أنها سبعون منزلاً، واستناداً إلى أسماء الله المائة قسّم البعض طريق السير والسلوك إلى مائة منزل (وقد قسّم الشيخ عبد الله الأنصاري رحمته الله المنازل إلى عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب فكان مائة منزل)، واستند البعض الآخر إلى روايات أخرى في عدد أسماء الله فذكر ثلاثمائة وواحدا وستين منزلاً، وذكر آخرون ألف منزل (كالمرحوم الشيخ الشاهآبادي رحمته الله)، وذهب آخرون في تقسيم منازل السالكين إلى سبعين ألف منزل.

وأما منهجنا العرفاني فقد بُني على أساس ألف منزل من منازل السالكين إلى الله - كما استفدنا ذلك من فيوضات وبركات مرشدنا الأجلاء، ولدعوة الخلق إلى معرفة الله تبارك وتعالى بدأنا بحول الله وقوته بطرح هذه المنازل كدروس عرفانية منذ عام ١٤٠٥ هـ في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام ولا زالت مستمرة إلى وقت طباعة الجزء الأول من الكتاب والذي يحتوي على عشرين منزلاً (من المنزل ١ إلى المنزل ٢٠).

هذا وقد ارتأينا التصرف في متون هذه الدروس ومحتوياتها مع الحفاظ على قلبها وجوهرها حسب ما يقتضيه الحال.

اللهم إنا نسألك يا دليل المتحيرين ويا غاية همم العارفين ويا نور قلوب المشتاقين أن تصلي على محمد وآله الطيبين الطاهرين وأن تسلك بنا سبل الوصول إليك وتمهد لنا طرق الوفود عليك وتملأ ضمائرنا من حبك وتُشرب قلوبنا بشارب أنسك وتقرّ أعيننا بفرحة لقاءك وتجعلنا من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جناتك آمين إله الحق رب العالمين.

الهوامش

- (١) سورة الذاريات: آية ٥٦
- (٢) كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤
- (٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢
- (٤) مشارق أنوار اليقين: ص ١١٢، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٣
- (٥) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٠١ نقلا عن تحف العقول
- (٦) الوافي: ج ٤ ص ٣٨٣
- (٧) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ١٣٧، علم اليقين: ج ١ ص ١٤
- (٨) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ٢٤٨
- (٩) للشيخ البهائي &
- (١٠) سورة النحل: آية ٧٨
- (١١) سورة النجم: آية ٤٢
- (١٢) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٢١
- (١٣) سورة العنكبوت: آية ٦٩
- (١٤) سورة آل عمران: آية ٣١
- (١٥) غرر الحكم: ص ٢٦٨

منازل العرفان

(المنزل ٢١ - المنزل ٣٥)

المنزل (٢١)

مَعْرِفَةُ الشَّانِ عِنْدَ الْحُبِّ

قال الراغب في مفرداته: الشَّانُ هو الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمر^(١).

وقيل: أنَّ الشَّانَ عبارة عن مراتب الإنسان ومقاماته الحاصلة في الكامل والمكمونة في الناقص والأحوال الطارئة له بحسب مقاماته^(٢)!!

ويقول العرفاء أنَّ الشَّانَ مرتبة من مراتب الوجود، ولا يمكن للوجود أن يتحرك ويتجه إلى الكمال إلا بعد معرفة الشَّان، وما لم يعرف الإنسان شأنه ومرتبته وجوده فهو يُقدِّم على أعمال دون شأنه كالذي يملك قطعة من ذهب يريد بيعها وهو لا يعرف قيمتها فيبيعها بثمن قليل دون ثمنها الحقيقي.

ويُعَدُّ عدم معرفة الإنسان شأنه من المهلكات، فهو يبيع إنسانيته وشخصيته وحرية وشرفه وكرامته بثمن بخس في سبيل الحصول على لذة دائرة منقطعة وهو يحسب أنها غاية السعادة وكما لها.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعائه: «سَيِّدِي أخرج حُبَّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِي واجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُصْطَفَى وَآلِهِ»^(٣)، فأخراج حب الدنيا من القلب مفتاح لاجتناب المحارم واقتراف الذنوب والمعاصي كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(٤)،

وكلما ازداد الإنسان حبا للدنيا ازداد بعدا عن الله تبارك وتعالى، بل لا يجتمع حب الله وحب الدنيا في قلب، ومن مواعظ المسيح صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخْدِمَ رَبَّيْنِ وَلَا مُحَالَءٌ أَنْ يُؤْثِرَ أَحَدَهُمَا

عَلَى الْآخَرِ وَإِنْ جَهَدَ، كَذَلِكَ لَا يَجْتَمِعُ لَكُمْ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ الدُّنْيَا»^(٥)، وقيل أن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: «إِذَا اطَّلَعْتُ عَلَى قَلْبٍ عَبْدٍ فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ حُبَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَلَآنُهُ

مِنْ حُبِّي»!!

كذلك لا يجتمع حب الدنيا وحب رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، فقد جاء في قول مولانا أبي عبد الله الصادق ﷺ: «وَاللَّهِ مَا أَحَبَّ (اللَّهُ) مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَوَالَى غَيْرَنَا»^(٦) وقول مولانا أمير المؤمنين ﷺ: «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلْيُعِدِّ لِلْفَقْرِ جَلْبَابًا»^(٧)، أي ليزهد في الدنيا ويتعد عن الخوض في ملذاتها وهواها ويخالف النفس ولاتها وعزائها حتى يُحشِر يوم القيامة في زمرة المصطفى ﷺ وآله ﷺ، والحشر مع المصطفى وآله عند العرفاء حشر خاص ينافي حب الدنيا والتعلق بها. واللذات في هذه الدنيا ثلاث:

الأولى: اللذة الحسية بقضاء شهوتي البطن والفرج وما يتعلق بالحواس الظاهرية من النظر والسمع والشم والتذوق واللمس.

الثانية: اللذة التخيلية (الخيالية)، الحاصلة من الظن والشك والأنانية وحب المال والجاه والرياسة والشهرة وما شاكلها.

الثالثة: اللذة العقلية، الحاصلة عن طريق معرفة الأشياء والوقوف على حقائقها. وأقوى اللذات عند عامة الناس الذين يعتقدون أنها أسباب الوصول إلى غاية السعادة وكمال البهجة هي اللذات الحسية كلذة الأكل والشرب والوقوع وهي لذة يشاركه فيها الحيوان.

وعلى هذا فالميزة التي يمتاز به الإنسان عن الحيوان ويرفعه عن حضيض الخساسة والبهيمية هو العقل الذي يحبسُه ويحدُّه في قضاء الشهوات المادية والإنسانية فيمنعه من الخوض فيها ويدفعه إلى التقليل منها، وعن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «أَبْعَدُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا كَمَّ يَهْمُهُ إِلَّا بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ»^(٨)، وما يعنيه الإمام ﷺ بالاهتمام بهاتين الشهوتين هو الإفراط فيهما وإلا فالشرع والعقل يحكمان بقضائهما في حدودهما وذلك إبقاءً للنوع وحفاظاً على سلامة للبدن.

وتُعرَف شدة الحرص على الأكل والجماع وغيرهما من الشهوات بالشَّره، وتقابلُه العفَّة وهي - كما يقول الراغب في مفرداته - حصول حالة للنفس تمنع بها عن غلبة الشهوة، وتطلق غالباً على عفة البطن والفرج ومنعها عن المحرمات والشبهات والصبر عليها وهي فضيلة بين رذيلتي الخمود والفجور.

قال الإمام الصادق ﷺ: «إِنَّ طَائِفَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَابُوا وَوُلِدَ آدَمُ فِي اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ - أَعْنِي الْحَلَالَ لَيْسَ الْحَرَامَ - فَأَنْفَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَوُلِدَ آدَمُ مِنْ تَعْيِيرِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ، فَأَلْقَى اللَّهُ فِي هِمَّةِ أَوْلِيكَ الْمَلَائِكَةِ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ كَيْ لَا يَعْيِبُوا الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا أَحْسَسُوا ذَلِكَ مِنْ هَمِّهِمْ عَجَّوْا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا رَبَّنَا عَفْوُكَ عَفْوُكَ رُدَّنَا إِلَى مَا خَلَقْنَا لَهُ وَأَجْبَرْتَنَا عَلَيْهِ، فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ نَصِيرَ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ، فَنَزَعَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ هَمِّهِمْ،

فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَصَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُونَ هُمْ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا عَنِ اللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْحَلَالِ»^(٩).

وأما اللذات التخيلية فهي من حيث المرتبة أعلى من اللذات الحسية لوجوه كثيرة، فعلى سبيل المثال حينما يشعر طالب الماء بالإهانة والتصغير عندما يعرض عليه الماء فإنه يرفضه ويتحمل ألم العطش مراعاة لحشمته وعلو نفسه والتي هي أثر عنده من الارتواء بالماء، أو حينما يتنافس البعض على مقاعد الرئاسة والمنصب فإن عرض عليهم المطعوم أو المشروب فإنهم يرفضونه في مقابل التلذذ بالغلبة الوهمية، إلى غير ذلك من الوقائع التي تشير إلى استعلاء اللذات الخيالية والباطنية على اللذات الحسية والظاهرة.

واللذات التخيلية وإن كانت أعلى مرتبة من اللذات الحسية والشهوات المادية إلا أنها الخطر الذي يهدد سير السالك إلى الله ويجعله في مواقف إن لم يتنبه لها ويجذر منها يؤول أمره إلى الوقوع في خطر عظيم لا يسلم منه، ويمكن القول أن جميع اللذات التخيلية دون شأن السالك والعارف.

ولكن كيف يمكن علاج حب الدنيا والميل إليها بالملذات والشهوات!؟

علاج ذلك بالإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى وذكر أسمائه وصفاته الجلالية والجمالية، وكذلك الإكثار من ذكر الموت كما قال سيد المرسلين ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ هَادِمٌ (هَادِمٌ) اللَّذَّاتِ حَائِلٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ»^(١٠)، وكما قال أمير المؤمنين ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ عِنْدَمَا تَنَازَعْتُمْ إِلَيْهِ أَنْفُسُكُمْ بِالشَّهَوَاتِ وَكَفَى بِالْمَوْتِ وَاِعْظَمًا»^(١١) وما قاله الصادق ﷺ: «ذِكْرُ الْمَوْتِ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ وَيَقْلَعُ مَنَابِتَ الْغَفْلَةِ وَيُقَوِّي الْقَلْبَ بِمَوَاعِدِ اللَّهِ وَيَرِقُّ الطَّبَعُ وَيَكْسِرُ أَعْلَامَ الْهَوَى وَيُطْفِئُ نَارَ الْحِرْصِ وَيُحَقِّرُ الدُّنْيَا»^(١٢)!!

واعلم أيها السالك إلى الله أن الكف عن ملذات الدنيا وعلاقتها ومجاهدة النفس بدفعها عن شهواتها توجب صفاء القلب وطهارته، ومع صفاء القلب وطهارته يتوجه الإنسان إلى ربه ويأنس بذكره، ولا يكون ذلك إلا بالمعرفة وكثرة ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته الجلالية والجمالية والاستغراق فيها والمواظبة عليها والتخلق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ وكلماته، وذلك بتقليل الحاجات وتقليل اللذات والشهوات وترك المخالفات وتكثير الخيرات وحسنات الصفات بالعبادات والرياضات حتى تنمو فيه الاستعدادات الإلهية وترتفع الحجب بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، فيقر بجهله وفقره وعجزه ونقصه في مقابل العلم والغنى والقدرة والكمال المطلق وتذوب إرادته في إرادة الله وعلمه في علم الله

وقدرته في قدرة الله ويسلم زمام أمره بيد الله ويكون الله هو المدبر في بدنه وقلبه وعقله وروحه فيرى بنور الله ويسمع بسمع الله ويريد بإرادة الله ولا يشاء إلا ما شاء الله ويصل إلى مقام يتصرف في عوالم الملك والملكوت بإرادة الله وقدرته وتظهر به المعجزات وخوارق العادات والكرامات.

أَتَزَعَمُ أَنَّكَ جَزْمٌ صَغِيرٌ
وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
وَأَنْتَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ الَّذِي
بِأَحْرُفِهِ يَظْهَرُ الْمُضْمَرُ
يقول العرفاء أن لمعرفة الشأن أربع مراحل:

١- دموع الشوق: فالإنسان بطبيعته يشق إلى المبدأ الأعلى والموطن الأصلي وهو جوار رب العالمين، فيبكي، وبكاؤه - وإن كان يخلو من المعرفة - بكاء شوق إلى الحبيب، ومع دموع الشوق يتوجه إلى الله عز وجل، وبالمعرفة - وهي أقرب الطرق إلى الله - يُصْقَل هذا التوجه ويُرشد السالك إلى الصراط المستقيم، ويمكن القول أن دموع الشوق تنشأ من توجه القلب نحو معرفة صفات الله اللطيفة وأسائه الجمالية وتجلياته الرحمانية.

ديدها از شوق او در گريه است
نالها از روى او در مويه است
اشك وآه من گواه من بس است
شاهد اين شعله آه من بس است^(١٣)

٢- دموع الخوف: والخوف من ضروريات حياة السالك إلى الله، ودموع الخوف تنشأ من توجه القلب نحو معرفة صفات الله القهرية وأسائه الجلالية.

آب چشم و آتش دل با هم است
اين دو همره منفصل از هم كم است^(١٤)

عن يونس بن يعقوب قال سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ كُلُّ بَدَنِ لَا يُصَابُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، قلت: ملعون!! قال عليه السلام: مَلْعُونٌ، فلما رأى عِظَمَ ذَلِكَ عَلِيٌّ قَالَ لِي: يَا يُونُسُ إِنَّ مِنَ الْبَلِيَّةِ الْحَدَشَةَ وَاللُّطْمَةَ وَالْعَثْرَةَ وَالنَّكْبَةَ وَالْقَفْزَةَ وَأَنْقِطَاعَ الشَّسْعِ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، يَا يُونُسُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ لَا يَمَحُصُ فِيهَا مِنْ ذُنُوبِهِ وَلَوْ بَغَمٌ يُصِيبُهُ لَا يَدْرِي مَا وَجْهُهُ، وَاللَّهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَضَعُ الدَّرَاهِمَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَزِنُهَا فَيَجِدُهَا نَاقِصَةً فَيَعْتَمُّ بِذَلِكَ ثُمَّ يَزِنُهَا فَيَجِدُهَا سَوَاءً ذَلِكَ

حَطًّا لِبَعْضِ ذُنُوبِهِ^(١٥)!!

فإذا كان هذا القدر من الغم والحزن يحطُّ الذنوب والخطايا فكيف بمن يُبتلى بداهية عظمى ومصيبة كبرى!! فلا تعجب إن قلنا أن للخوف والحزن مقاما رفيعا عند العارفين.

٣- المقام المحمود: بعد معرفة الأسماء الجلالية والجمالية لرب العالمين وتحقق اللذات الروحية يبدأ دور المقام المحمود الذي لا يُنال إلا بإحياء الليالي وصلاة الليل كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(١٦)، وقد ورد عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ (بالنوافل) حَتَّىٰ أَحِبُّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا إِنْ دَعَانِي أَحْبَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيْتُهُ»^(١٧)!! فكيف بصلاة الليل وهي أعظم النوافل وأرفعها شأنًا كما بيَّن ذلك الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «مَا مِنْ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا الْعَبْدُ إِلَّا وَلَهَا ثَوَابٌ مُّبِينٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا صَلَاةَ اللَّيْلِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّنْ ثَوَابَهَا لِعِظَمِ خَطَرِهَا عِنْدَهُ فَقَالَ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾»^(١٨)!!

والمقام المحمود - كما اتفقت على تفسيره الروايات من طرق الفريقين - هو مقام خاص وعد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً عليه السلام ليشرِّفه به يوم القيامة دون الخلائق أجمعين، وهو مقام الشفاعة الكبرى له عليه السلام، فيحمده عليه الأولون والآخرون، وذلك بعدما يثني رسول الله عليه السلام على ربه تعالى بثناء إلهي خاص لم يثنه عليه من قبل أحد، وبعد الفراغ من الثناء يقال له: سَلِّ تَعُطِّهِ وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فيشفع في الشافعين أن يشفعوا، فيشفع الشافعون لمن هو أهل للشفاعة، ولما كان رسول الله عليه السلام أسوة وقدوة للمؤمنين في أقواله وأفعاله كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١٩) فعلى المؤمنين السالكين إلى الله أن يسلكوا مسلكه وينهجوا نهجه ويتشبهوا به قدر المستطاع حتى تستقبل قلوبهم وأرواحهم تشعشات أنواره القدسية ويسألون الله تعالى أن يبلغهم المقام المحمود الموعود له كما نقرأ في زيارة عاشوراء: «وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ».

ولا غرابة في هذا القول حيث أنه يماثل قول الأئمة عليهم السلام في التخلق بأخلاق الله لا من باب الألوهية والربوبية الخاصة به سبحانه لا شريك له في ذلك ولكن من باب أفعاله الكمالية التي تزيد من القرب إليه والزلفى لديه وكونه مصداقا لقول نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام: «مَنْ يُذَكِّرْكُمْ اللَّهُ رُؤْيَتَهُ»^(٢٠)!!

وكما قال صدر المتألهين (قده) في أسفاره: «فرسول الله ﷺ هو الأصل في الوجود، والمؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر تابعون له في المقام المحمود، والمؤمن من صحته له نسبة التابعية كمرأة وقعت في محاذة امرأة حاذت الشمس فيتجدد معه في النور»^(٢١).

٤ - مقام التصرف في عالم الوجود: بعد الوصول إلى المقام المحمود ينال السالك مقام التصرف في عالم الوجود لأن إرادته أصبحت في إرادة الله ولا يشاء إلا ما يشاء الله، وهذه هبة إلهية ومنحة ربانية لمن أخلص لله تعالى وخلص نفسه من تعلقات الدنيا الدنية وسما بروحه إلى أعلى المراقي المعنوية، فيتصرف في ظاهر العالم وباطنه بل يتصرف في الخيال والتخيل، فيكون مسيطرا على وجوده بحيث يصبح بدنه تابعا لروحه لا العكس، ومن هنا يبدأ مقام طي الأرض، وفي شواهد التاريخ أمثلة حية لمن نال هذه المرتبة العلية من أولياء الله الصالحين كالعارف الرباني والعبقري الإلهي السيد علي القاضي عليه السلام - على ما نقله الخواص من تلامذته^(٢٢).

وكذلك مقام خلع الروح من البدن، وقد صرح الحكيم الإلهي المحقق ميرداماد عليه السلام أن الرجل لا يقال له حكيما ما لم تكن لديه ملكة التجرد وخلع الروح من البدن «وحرّام على الأجساد المظلمة أن تليج ملكوت السماوات»^(٢٣).

وأكثر من هذا وذاك أن السالك إلى الله في المراتب العرفانية السامية إذا أراد شيئا أن يكون يكون!! ولا عجب في ذلك، فقد ورد في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال: «يا ابن آدم أنا غني لا أفقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنيا لا تفتقر يا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حيا لا تموت يا ابن آدم أنا أقول للشئ كُنْ فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشئ كُنْ فيكون»^(٢٤)!!

ومن المصاديق القرآنية المشهورة لهذا المعنى الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ * قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾^(٢٥)!!

وقد قال البعض في تفسير ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي قبل انضمام جفني العينين بعد فتحها للنظر، ولكن السيد العلامة الطباطبائي عليه السلام جاء بمعنى أدق والطف في تفسيره حيث قال: إن الطرف على ما قيل هو اللحظ والنظر، وارتداد الطرف وصول المنظر إليه إلى النفس وعلم الإنسان به، والمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به!!

وقال أحد الكُمَّل من مشايخ العرفان: «وأما فضل العالم من الصَّنْفِ الإنسانيِّ عَلَى العالمِ مِنَ الجنِّ بأسرارِ التصريفِ وخواصِّ الأشياءِ فَمَعْلُومٌ بِالْقَدْرِ الزَّمَانِيِّ، فَإِنْ رُجِعَ الطَّرْفُ إِلَى الناظِرِ بِهِ أُسْرِعُ مِنْ قِيَامِ القَائِمِ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَكَانَ عَيْنُ قَوْلِ أَصْفِ بْنِ بَرْخِيَا عَيْنَ الفِعْلِ فِي الزَّمَنِ الوَاحِدِ».

ثم قال في تفسير انتقال عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لحظة واحدة: لَمَا كَانَ تَحَقُّقُ الموجوداتِ فِي عَالَمِ الوجودِ مُتَعَلِّقاً بِتَجَلِّيَاتِ الحَقِّ تَعَالَى وَفِيوضَاتِهِ فَقَدِ انْقَطَعَ الفَيْضُ الخاصُّ بوجودِ العَرْشِ فِي اليَمَنِ وَتَحَقَّقَتِ الإفاضَةُ عِنْدَ سَيِّدِنَا سُلَيْمَانَ ﷺ فِي فِلِسْطِينَ، أَوْ بِمَعْنَى آخَرَ أَنَّ الَّذِي حَدَثَ هُوَ خَلْقٌ جَدِيدٌ لِلْعَرْشِ، أَيْ إِعْدَامٌ لَهُ فِي مَكَانِهِ الْأَصْلِيِّ وَإِيجَادٌ لَهُ فِي مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ، وَعَلَى هَذَا لَا يُمَكِّنُ القَوْلُ أَنَّ انْتِقَالَ العَرْشِ كَانَ بِنَحْوِ «طَيِّ الْأَرْضِ» بَلْ بِنَحْوِ «الإِيجَادِ بَعْدَ الإِعْدَامِ»، فتأمل!!

وهذا مقام من ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾، فكيف بمن ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ كَلَّهُ!!

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢٦)!! وقد وردت أحاديث من أئمة أهل البيت ﷺ أن الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الذي كان أعلم الأمة بكتاب الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري أنه قال سألت رسول الله ﷺ عن قول الله جل ثناؤه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال ﷺ: ذلك وَصِيُّ أَخِي سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَوْلُ اللَّهِ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟! قال ﷺ: ذَاكَ أَخِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٢٧)!!

هذا هو شأن الإنسان ومقامه الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ من أجله، فمن عرف شأنه ومقامه وبذل ما أعطاه الله تعالى من المال والصحة والعلم والعزة في سبيل الله ورضاه أبدله الله تعالى من الأموال أضعافاً مضاعفة ومن القوة الروحية ما تتحقق بها المعجزات والكرامات ومن العلم اللدني ما يرفع به مقامه وشأنه ومن العزة الحقيقية الخالدة السرمدية التي لا ذلة بعدها أبداً في داري الدنيا والآخرة. ويقول العرفاء أن آفة معرفة الشأن معاشرة الأضداد، فكل شيء كان ضد شأنيَّة العارف والسالك إلى الله فهو آفة تهدم البناء الذي بناه الإنسان وكان أساسه الإيمان والإخلاص.

وبعد معرفة الشأن كيف لا ندخل في مكتب أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ وأولاده المعصومين ﷺ والتابعين لهم الذين عرفوا شأنهم ووصلوا إلى تلك المقامات ونالوا من الله الدرجات!!

قال الراوي: لما أُلْحِدَ أمير المؤمنين ﷺ وقف صعصعة بن صوحان العبدي ﷺ على القبر ووضع

إحدى يديه على فؤاده... (فقد يكاد يتفطر فؤاده من شدة وقع المصيبة عليه، لأنه عرف شأنه وشأن مولاه أمير المؤمنين عليه السلام وعرف أن في هذا اليوم يُدفن قطب المعرفة والعرفان) (٢٨).... والأخرى قد أخذ بها التراب ويضرب به رأسه ثم قال: «بأبي أنت وأمِّي يا أمير المؤمنين، هنيئاً لك يا أبا الحسن، فلقد طاب مولدك وقوي صبرك وعظم جهادك وظفرت برأيك وربحت تجارتك وقدمت على خالك فتلقاك الله بشارته وحفتك ملائكته واستقررت في جوار المصطفى فأكرمك الله بجواره ولحقت بدرجة أخيك المصطفى وشربت بكأسه الأوفى فأسأل الله أن يمن علينا باقتفائنا أثرك والعمل بسيرتك والموالات لأوليائك والمعاداة لأعدائك وأن تحشرنا في زمرة أوليائك فقد نلت ما لم ينله أحد وأدركت ما لم يدركه أحد وجاهدت في سبيل ربك بين يدي أخيك المصطفى حق جهاده...»، وأخذ يعدد مناقبه وفضائله عليه السلام واحدة تلو الأخرى، ثم بكى بكاء شديداً وأبكى كل من كان معه، ثم عدلوا إلى الحسن والحسين ومحمد وجعفر والعباس ويحيى وعون وعبدالله عليهم السلام فعزّوهم في أبيهم صلوات الله وسلامه عليه (٢٩).

لقد دخل صعصعة بن صوحان رضي الله عنه وأمثاله من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في مكتب مولى الموحدين وقطب العارفين عليه السلام فاستمدوا من فيوضات أنواره وتلقوا من إشارات معارفه وعرفوا شأنه عند الله تعالى ومنزلته وشأنهم ومنزلتهم عنده حتى لم يجدوا في أنفسهم حرجاً في أن يتكلموا مع روحه الطاهرة الزكية بعد استشهاده.

الهوامش

- (١) تفسير الميزان: مجلد ١٠ ص ٨٧
- (٢) تفسير بيان السعادة (للجنابذي): مجلد ٢ ص ٣٠٨ ط ٢
- (٣) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام الذي علّمه أبا حمزة الثمالي والمشهور باسمه.
- (٤) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٢٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ١٣٠
- (٥) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٠٧، تحف العقول: ٥٠٣
- (٦) تفسير كنز الدقائق: مجلد ٣ ص ٦٧، الكافي: ج ٨ ص ١٢٩
- (٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٢٧٥
- (٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣١٩، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٢٠
- (٩) تفسير العياشي: مجلد ٢ ص ٢١٠ ط طهران، ومنه بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٤١
- (١٠) أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٣١ ص ٢٦٤ ومنه بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٢، هذم: غيب أو قطع
- (١١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٦ ص ٦٩، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٣١ ص ٢٦٤
- (١٢) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٣
- (١٣) أبيات لصدر المتألمين الشيرازي (قده)، وترجمتها:
- العيون من شدة الشوق إليه باكية
والننايات* من جمالها نائحة
تكفيني دموعي وزفراقي دليلا عليّ
وشاهدي على هذه الشعلة زفراقي
- * (الننايات: جمع ناي وهي آلة موسيقية)
- (١٤) بيت لصدر المتألمين الشيرازي (قده)، وترجمته:
- دمعة العين ونار القلب متلازمتان
ويندر أن تنفصلا عن بعضهما
- (١٥) بحار الأنوار: ج ٧٦ ص ٣٥٤
- (١٦) سورة الإسراء: آية ٧٩
- (١٧) مستدرک الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣
- (١٨) مستدرک الوسائل: ج ٦ ص ٣٣٣، والآية ١٧ من سورة السجدة: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

- (١٩) سورة الأحزاب: آية ٢١
- (٢٠) قال الحواريون لعيسى ﷺ: يا روح الله من نجالس؟ قال ﷺ: «مَنْ يُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ رُؤْيَيْتُهُ وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَتُهُ وَيُرْعِبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ» - أصول الكافي: ج ١ ص ٣٩، مستدرک الوسائل: ج ١ ص ٤٠٠
- (٢١) الأسفار: مجلد ٧ ص ٢٢
- (٢٢) سنذكر طرفاً من هذا المقام للسيد علي القاضي (قده) في المنزل التالي.
- (٢٣) تاريخ ابن خلكان: ج ٣ ص ٢٥٨
- (٢٤) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦
- (٢٥) سورة النمل: آية ٣٨ - آية ٤٠
- (٢٦) سورة الرعد: آية ٤٣
- (٢٧) بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٤٢٩، وقد سئل أبو عبد الله ﷺ عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب، فقال ﷺ: ما كانَ عِلْمُ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ عِنْدَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَأْخُذُ بِعُوضَةٍ بِجَنَاحِهَا مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ - تفسير علي بن إبراهيم القمي: مجلد ١ ص ٣٦٧، وعن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر ﷺ في قوله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال ﷺ: إِيَّانَا عَنِّي وَعَلِيِّ أَوْلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ - أصول الكافي ج ١ ص ٢٢٩
- (٢٨) ما بين المعقوفتين تعليق المؤلف
- (٢٩) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٢٩٥

المنزل (٦٦)

مَعْرِفَةُ دَارِ الْمَقَرِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ

لا نجد شيئاً من خلق الله تعالى جاء من العدم إلى الوجود من محسوسات ومعقولات وكلّيات وجزئيات إلا وله حركة جبليّة نحو البقاء والدوام، والحركة ليست إلا الخروج من القوة إلى الفعلية، أو بمعنى آخر السير حسب القابلية والاستعداد والشرف والفضيلة طلباً للرفي والكمال وتوجهاً إلى الجمال الأعظم والنور الأبهر والخير المحض الذي تتشوق إليه كل الممكنات وتنتهي إليه كل الحقائق وهو الحق تبارك وتعالى الغني بالذات والمنزه عن كل عيب ونقص جلّ ذكره وعز شأنه.

والحركة بلا هدف أمر محال، ومعرفة الهدف والمقصد من ضروريات الحركة والتوجه إليه، فلا يزال الشيء في حركة دائمة وتحوّل مستمر حتى يصل إلى الهدف والمقصد فيسكن ويستقر، وإذا لم يكن في الهدف قرار وثبات فليس هو الهدف النهائي والمقصد الغائي بل هدف متوسط ومسير بين المبدأ والغاية والذي هو بذاته - كما هو الحال لسائر الأغراض الجزئية والغايات العرّضية - في سير نحو الغاية الحقّة والكمال المطلق كما نطق بذلك القرآن المجيد: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(١).

والإنسان - وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله تبارك وتعالى - في حركة دائمة واضطراب مستمر وتوجه إلى الغاية ومعاد إلى المبدأ حتى يصل إلى دار المقر، ومتى ما وصل إلى دار المقر هدأ واستقر.

والسالك إلى الله تعالى في سير طولي دائم ومعراج مستمر نحو الكمال المطلق بقطع المراحل وطي المنازل حتى يصل بقوة السلوك ونور العرفان إلى المطلب الأعلى والهدف الأقصى وهو مجاورة المعبود المتعال ومشاهدة جمال ذي الحسن والجمال.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن الحركات كلها تؤول إلى الانتهاء يوم القيامة

وعرّف الآخرة أنها دار القرار كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿... وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾^(٢)، والقرار مصدر أريد به المقر مبالغة، وجاء بكلمة ﴿هي﴾ للتأكيد على أن الآخرة هي دار القرار دون سواها، وما كان قبل الآخرة فليس بدار قرارٍ ومقرّب بل دار عبورٍ وممرٍّ، ولذا سبق في مقدمة الآية بقوله: ﴿... إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ...﴾^(٣).

وقد وصف سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمه الله قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: «أَنَّهُ السَّنَادُ الَّذِي يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ سُلُوكُ سَبِيلِ الرَّشَادِ وَالتَّدِينُ بِدِينِ الْحَقِّ لَا غِنَى عَنْهُ بِحَالٍ وَهُوَ الِاعْتِقَادُ بِأَنَّ لِلْإِنْسَانِ حَيَاةً خَالِدَةً مُؤَبَّدَةً هِيَ الْحَيَاةُ الآخِرَةُ وَإِنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ فِي الآخِرَةِ وَمُقَدِّمَةٌ مَقْصُودَةٌ لِأَجْلِهَا»^(٤).

وكذلك قوله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿... وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٥)، فالله تبارك وتعالى ينبيء عباده أن الاستقرار في الأرض في حدٍّ محدود، ومتاعه إلى أجل معدود، والبقاء فيه غير مقصود، ولا نسبة بين المتناهي واللامتناهي، ليزول بذلك اللبس والعماية عن الذين سلكوا في الحياة الدنيا إلى الغايات المجازية والمبالغ الوهمية وقصرت مساعيهم في تشييدها وعمارتها فاتخذوها داراً للمقر بلا بصيرة قلب ولا دراية عقل إلى أن يأتيهم الموت بغتة فيفسد عليهم دنياهم وآخرتهم.

قال سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: «مالي والدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل رايك مَرَّ للقَيْلُولَةِ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَيْفٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٦)!!
وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرَكِبَ بَيْنَا هُمْ حُلُولٌ إِذْ صَاحَ بِهِمْ سَائِقُهُمْ فَارْتَحَلُوا»^(٧)!! وقال عليه السلام محدّراً: «وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارٌ قُلْعَةٌ وَليست بدارٍ نُجْعَةٌ، دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ خَيْرَهَا بِشَرِّهَا وَحُلُوها بِمُرِّهَا لَمْ يَرْضَهَا لِأَوْلِيَائِهَا وَلَمْ يَضْنِ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ»^(٨)!!

وعن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال يوماً لأصحابه: «أوصيكم بدار الآخرة ولا أوصيكم بدار الدنيا فإنكم عليها حريصون وبها متمسكون، أما أبلاغكم ما قال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين!! قَالَ لَهُمُ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا»، وقال عليه السلام: «أَيْكُمْ يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَاراً تَلِكُمْ الدَّارُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَاراً»^(٩)!!

وهناك شواهد كثيرة من القرآن الكريم تدل على مجازية الحياة الدنيا وتوسطها بين المبدأ والمعاد، كقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(١٠)، وقوله تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ

وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١١١﴾، فعلى الإنسان أن يعرف العوالم السابقة لنشأته في عالم الدنيا والمادة والطبيعة والعوالم اللاحقة لها.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ أَمْرَاءَ عَرَفَ مِنْ أَيْنَ وَفِي أَيْنَ وَإِلَى أَيْنَ». ويفسر صدر المتألهين (قده) الحديث العَلَوِي بقوله: فالأين الأولى إشارة إلى حال النفس قبل الكون والثانية إلى ما مع الكون والثالثة إلى ما بعد الكون ^(١٢)، ويقول الحكيم السبزواري (قده) في تعليقه: الأين الأول إشارة إلى المبدأ في قوله تعالى: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ» ^(١٣) وهو قوس النزول والهبوط والأين الثاني إشارة إلى المنتهى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ ^(١٤) وهو قوس العروج والصعود والأين الثالث إشارة إلى يوم الوسط ويوم السير في قوله تعالى: ﴿... فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾ ^(١٥) وهو يوم التدبُّر في آيات الله جلَّ سلطانه وبهر برهانه ^(١٦)، فالدنيا دار غرور كتب الله تعالى لها الفناء والدثور ولم يؤمر الإنسان بعمارتها والركون إليها بل أمر بجوازها وتركها وعدم استعظامها لأنها دار هدم وخراب والتأهب لدار النشور فهي العامرة التي لا تحرب والباقية التي لا تنفد.

روزي كه پيشگاه حقيقت شود بديد

شرمنده رهروى كه عمل بر مجاز كرد ^(١٧)

قال بعض العارفين: «لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزانة باقية كانت الآخرة خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزفٌ فإن الآخرة ذهبٌ باقى» ^{(١٨)!!}

من هنا يرى العارفون أن آفة معرفة دار المقر هي دار الممر، ويا حسرة على العباد الذين زين لهم الشيطان الدنيا ليجرهم إلى حبه والميل إلى زينتها وليشتغلوا بمتاعها ومشتهياتها عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ^(١٩)، فسولت لهم أنفسهم واتبعوا أوهامهم ورضوا بالحياة الدنيا وركنوا إليها طائنين أنهم يخلدون فيها واتخذوها دار مقر وكانوا عن دار الآخرة غافلين، فكان أن قال لهم ربهم: ﴿... إِنَّا قُلْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا ارْجِعُوا فِي دِيَارِكُمْ وَاتَّخِذُوا فِيهَا بَنِينَ وَأَرْضًا مَرْغُوبًا وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعَاقِلِ الَّذِي إِذْ يَمُنُّ بِآيَاتِنَا وَمُنُّوا بِآيَاتِنَا فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ دِيَارِهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَعْمَىٰ ۖ فَجَحَدُوا بِهَا وَكَانُوا شُرَكَاءَ فِيهَا إِذْ حُمِّلُوا فِيهَا ثِقَلًا حَمِيمًا وَجَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا سَمْعًا وَجَعَلْنَاهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا فَمِنْ حِينٍ نَّأْتِيهِمْ آيَاتُنَا حُمْلًا بَشِيرًا فَمِنْ حِينٍ نَأْتِيهِمْ آيَاتُنَا حُمْلًا مُّذِمًّا فَمِنْ حِينٍ نَخْتَلِفُ أَسْمَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي تَخْرُجُونَ فِيهِ فَتَبَيَّنَّ عَنْهُمْ آيَاتُنَا وَمَنْ يَحْمِلُهُ الْيَوْمَ نَزَّارًا﴾ ^{(٢٠)!!}

وأما السالك إلى الله فإنه يشعر بالغرابة في الدنيا والبعد عن دار القرار ومحال القدس وموطن القرب من الحق تعالى فيصرف همهته في طلبها والرحيل إليها، ولذا ترى الخواص من الناس يرغبون في الخلوة للمناجاة مع الله عزَّ وجلَّ والبون عن الخلق بباطنهم وسريرتهم، ويتفكرون دوماً في صنع الله ومحاسن تصويره وبدائع خلقه وفسيح ملكوته، ولا يكونون كالذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا

بها، بل يتقربون بالمعارف الإلهية إلى الله تعالى بالشوق والأنس والسرور حتى تكره نفوسهم البقاء في هذه النشأة المجازية، وتتمنى الخروج منها إلى دار الآخرة وهي دار البقاء ومحل المشاهدة واللقاء وجوار الله تبارك وتعالى في منازل الرحمة ومواقع البركة، فما كان تعبهم في الدنيا للدنيا بل لنيل سعادة الآخرة ونعيم عقبى الدار كما أشار إلى ذلك مولانا علي بن الحسين عليه السلام في قوله: «ما تَعَبَ أولياء الله في الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا بَلْ تَعَبُوا فِي الدُّنْيَا لِالْآخِرَةِ»^(٢١)، فكانوا خير المصاديق لقول مولى الموحدین أمير المؤمنین عليه السلام: «صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى»^(٢٢)!!

تانسوزی در فراق روی یار

کی بود جای تو در دار القرار^(٢٣)

واعلم أيها السالك إلى الله أن الحياة في الدنيا تكون حقة إذا كانت مقدمة موصلة لنيل خير الآخرة، وقد قال مولانا علي المرتضى عليه السلام: «إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارٌ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارٌ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ»^(٢٤)، وقال مولانا أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الْآخِرَةِ الدُّنْيَا»^(٢٥)، فالدنيا مزرعة الآخرة، من زرع فيها خيرا جنى في الآخرة خيرا ومن زرع فيها شرا جنى شرا.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمَوْتُ جِسْرٌ هُوَ لَإِ إِلَى جَنَانِهِمْ وَهُوَ لَإِ إِلَى جَحِيمِهِمْ»^(٢٦)، فالدنيا دار تكليف وعمل والآخرة دار جزاء بلا عمل ونعوذ بالله من دنيا تمنع خير الآخرة وسعادتها.

وقد وصف أهل الله الدنيا أنها دار تجارة تباع فيها النفوس وتُشترى، والكل فيها تاجر بنفسه لا تخلو تجارته من كسب أو خسارة كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «الدُّنْيَا دَارٌ مَمَرٌ إِلَى دَارٍ مَقَرٍّ وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأُوبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَعَا نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا»^(٢٧)!!

وعلى هذا الأساس ينقسم الناس في تجارة أنفسهم في الحياة الدنيا إلى طائفتين:

الطائفة الأولى

وهم أهل الدنيا والغفلة الذين أخطأوا دار المقر وفرحوا بالدنيا وركنوا إليها، فباعوا أنفسهم في مقابل الهوى والشهوات الزائلة واللذات الدائرة، وهي متاع يتمتعون به أياما قلائل: ﴿... يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾^(٢٨) وهم عن الآخرة غافلون

﴿... ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ...﴾^(٢٩) وهي الباقية الأبدية: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣٠)، مع العلم أن الإنسان بطبعه يجتهد أن لا يبيع المادة في أسواق الدنيا إلا بما يعود عليه بالربح والفائدة ويخاف أن يتركها خشية كسادها، ولكن انظر إلى هؤلاء كيف باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان وقد قال الله تعالى في شأن الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾^(٣١)، وكانوا عباداً أذلاء للقوى الشهوية والغضببية والسبعية ومنقادين لأغراضها وأمانيتها ففسدت معاملتهم وكسدت تجارتهم التي ذمها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وَلَبِئْسَ الْمَتَجَرِّبُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا»^(٣٢)، فكانت العاقبة فساد أنفسهم وتبأرها: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٣)!!

فيا حسرة على العباد الذين أبدلوا دار المقر بدار الممر فكان جزاؤهم الضلال والخسران المبين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٣٤)، بل أشد من ذلك ابتلاؤهم بالخذلان والعذاب الأليم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ﴾^(٣٥)!!

الطائفة الثانية

وهم أهل الآخرة الذين ابتاعوا أنفسهم وأعتقوها من رق الدنيا وخلصوها من أسر الهوى وأخرجوها عن مقارها الحيوانية وأنجوها من مآلوفاتها الشهوانية ابتغاء مرضات الله، ثم دخلوا في معاملة رابية مع الله وباعوا أنفسهم من الله لا لهوى نفسي ولا لغرض مادي بل قربة خالصة إلى الله تعالى، فقبلها منهم ربهم بأحسن القبول واشتراها منهم خير شراء وأمضى لهم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾^(٣٦).

ولكل بيع بائع ومشتري وسلعة وثمان، فالبايع هو المؤمن العارف بالله، والسلعة هي الأنفس والأموال، فماذا يكون الثمن في مثل بيع يكون المشتري فيه هو الله عز وجل؟! الثمن ما وعدهم الله تعالى بوعد القاطع في قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾، ولكن أية جنة يبتغيها العارف بالله؟! هل هي جنة الحور والقصور!! أم جنة الأكل والنهر!! أم جنة الحرير واللؤلؤ والفضة!!

العارف وغير العارف في ما ينعم الله تعالى عليهما من الجنة المحسوسة على السواء، ولكن العارف يفوز بما يزيد على غير العارف بالجنة المعنوية، فله الجنتان، قال تعالى: ﴿... وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾^(٣٧) وهي جنة القرب، جنة الأنس، جنة الزلفى، جنة اللقاء، جنة الوصال، بل أعظم من ذلك، أن جنته خالق الجنة الذي قال فيه تعالى سيد الساجدين عليه السلام: «يَا نَعِيمِي

وَجَنَّتِي وَيَا دُنْيَايَ وَأَخْرَتِي»^(٣٨)، وتلك هي التجارة الرباحة المنجية، كيف لا وقد هناهم ربهم بذلك البيع وبشّرهم به ووصفه بالفوز العظيم: ﴿... فَأَسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣٩)!!

فاعلم أيها السالك إلى الله - وهذا أمر غاية في الدقة - أن في المعاملات الدنيوية يكون كل من البائع والمشتري والسلعة والتمن مستقلا عن الآخر، وأما في المعاملات الأخروية فتكون السلعة هي نفس البائع وهو العارف بالله والتمن هو المشتري وهو الله سبحانه، أليس الله تعالى يقول في حديثه القدسي: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزَى بِهِ»^(٤٠)!!

وقد تتساءل وتقول: إن الله تبارك وتعالى هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء فكيف يكون هو المشتري لما يملك والمشتري إنما يشتري لما لا يملك؟!

نعم، ذلك ليس ببعيد عن هو لطيف بعباده أن يأتيهم بصورة المشتري للأنفس والأموال وهو مالكها ومالك كل شيء حتى يثبت لهم الجزاء ويضمن لهم الثواب ويؤمن عليهم بالعطية، فأني تنزل أعظم من التنزل الإلهي الموصوف بالرافة والرحمة!!

ثم يقول أمير المؤمنين علي^(عليه السلام): «كَيْسَ لَأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا»^(٤١) فكل بيع لم تكن فيه الجنة للنفس ثمننا كان يباعا خاسرا والبائع فيه مغبون والتمن خسيس، ومثل هذه المعاملة الرخيصة لا تكون إلا نتيجة الغفلة والجهل والغور في الذنوب والمعاصي المهلكة التي تعمي القلوب وتحجبها عن معرفة النفس وحقيقتها وتقدير ثمنها والغاية في خلقها، وبالتالي بيعها بالشهوة والهوى ودرهم معدودة.

وفي آيات منسوبة إلى الإمام الصادق^(عليه السلام) أنه قال:

أُتِمِّنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةَ رَبِّهَا
فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها تُشْتَرَى الْجَنَاتُ إِنْ أَنَا بَعْتُهَا
بشئٍ سواها إِنْ ذَلِكُمْ غَبْنُ
إِذَا ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصْبَتُهَا
فَقَدْ ذَهَبَتْ نَفْسِي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

ورسول الله^(صلى الله عليه وآله) وأهل بيته^(عليهم السلام) على أتم المعرفة لهذه المفاهيم والمقادير والموازن، ولذا قالوا^(عليهم السلام): «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(٤٢)، وقالوا^(عليهم السلام): «مَعْرِفَةُ النَّفْسِ أَنْفَعُ الْمَعَارِفِ»^(٤٣)، فمن عرف نفسه عرف شأنها وثمرتها وعرف كيف يبيعها ولمن يبيعها.

وعلى هذا فجنة العارف هي جنة القرب واللقاء وجوار الله تعالى في دار المقر وتجلي أنوار جماله سبحانه في رياض القدس بصورة دائمة متوالية، وناره نار البعد والهجران، وليس أشد على العارف المحب لله من ألم فراق محبوبه والبعاد عن جواره، فتقربه إلى الله كرامة وبعده عنه إهانة، فتراه لا يطيق لذلك صبرا ويردد ما قاله مولاه أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه الملكوتي: «فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ رَبِّي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ وَهَبْنِي يَا إِلَهِي صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِكَ» ^(٤٤)!!

يا عباد الله، متى كان حب العبد لمولاه عزَّ وجلَّ دون حب من كان مخلوقا مثله وهو يرى تقلُّب الأزمان وأثرها على الوجوه الحسان والجسوم والأبدان ويتدبر آيات القرآن حيث يقول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ نَعَّمَهُ نُكَسِّهُ فِي الْخَلْقِ أَفْلًا يَعْقِلُونَ﴾ ^(٤٥)!! فالمحب الحقيقي من فنى في حب مولاه بشهود جماله الأزلي وحسنه الأبدي وكماله السرمدي فلم يَرُضْ بحبه بدلا، بل لا يتصور فراقه وهجره أبدا.

وقد يكون العبد ممتثلا لأوامر الله تعالى بالطاعة فيكون من أهل القرب والسعادة أو مخالفا لها بالمعصية فيكون من أهل البعد والشقاء، وقد صنَّف الله تبارك وتعالى عباده في منازل الآخرة إلى أصناف ثلاثة المقرَّبين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فأما أصحاب الشمال فهم أصحاب الشؤم الضالون المنكرون والمكذبون الجاحدون الذين تؤول عاقبتهم إلى الشقاء في عذاب الجحيم، وأما أصحاب اليمين فهم المتوسطون بين الصنفين الآخرين وهم أهل السلامة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة وأصحاب اليمن والسعادة ولكن في مراتب دانية أو متوسطة، وأما المقرَّبون فهم أصحاب النفوس المطمئنة الذين سبقوا أفراد نوعهم في السلوك إلى الله تعالى والرجوع إليه بكمال الحب إليه ففازوا بقربه كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ^(٤٦)، فالزاهد من شأنه تجنب المحرمات خوفا من عذاب النار وحريقها والعباد من شأنه الالتزام بالواجبات طمعا في كرامة الجنة ونعيمها وأما العارف بالله الذي يرى الله تعالى أهلا للعبادة ومالكا لكل إرادة يعبد عبودية راسخة يريد به وجهه ويعمل عملا صالحا حبا وكرامة يرضي به ربه فيطهر قلبه من كل تعلُّق بغير الله سبحانه وتعالى ويقصر تعلُّق قلبه بالله وبما ينسب إليه من نبي أو ولي أو عمل صالح أو أمر حسن ممدوح عند الله تعالى، فمن أحب شيئا أحب آثاره، ومن ثم يصبح وليا من أولياء الله الذين خصَّهم في دار القرار بالسعادة القصوى وجنة نعيم.

ويقول العلامة الطباطبائي (قده) أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية وأن جنة النعيم هي جنة الولاية، فالمقرَّبون هم أهل ولاية الله.

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده): «وإن غَلَبَ عليه رَجَاءُ يَوْمِ الآخِرَةِ والميلُ إلى ما وَعَدَهُ اللهُ ورسولُهُ من الجنَّةِ ونعيمِها وسرورها وحوورها وقصورها والخوفُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ ونارِ جهنَّمَ وآلامِها والعَمَلُ بمُقْتَضَى الوَعْدِ والوَعِيدِ فَمآلُهُ الوصولُ إلى نَعِيمِ الجنَّةِ والخلاصُ من عَذَابِ النارِ، وإنْ غَلَبَتْ عليه القوَّةُ العقلِيَّةُ واستكملتْ بإذراكِ العقلِيَّاتِ المَحْضَةِ والعِلْمِ باليقينيَّاتِ الحَقِيقِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ البراهينِ والأسبابِ العقلِيَّةِ الدائمةِ فمآلُهُ إلى عالمِ الصُّورِ الإلهِيَّةِ والمثُلِ النوريَّةِ والانخراطُ في سِلْكِ المقَرَّبِينَ والقيامُ في صَفِّ الملائكَةِ العَلِيَّينِ بِشَرَطِ أَنْ تَكُونَ عَقَائِدُهُ مَشْفُوعَةً بِالزهدِ الحَقِيقِيِّ خَالِصَةً عَنِ أَغْرَاضِ النَفْسِ والهوى وَعَنْ مُشْتَهَاتِ الدُّنْيَا فَارِعَّةً عَنِ جَمِيعِ مَا يَشْغَلُ سِرَّهُ عَنِ الحَقِّ وَذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ العَظِيمُ والمَنْنُ الجَسِيمُ» (٤٧)!!

وإلى هذا المعنى أشار بابا طاهر العريان في بعض كلماته: «التقَرُّبُ إلى الله تعالى ببَدَلِ الدُّنْيَا فِعْلُ الصَّالِحِينَ والتقَرُّبُ إلى الله تعالى ببَدَلِ النَفْسِ فِعْلُ المُرِيدِينَ»!!

وقال شارح هذه الكلمات أبو المعالي الهمداني الملقب بعين القضاة: «أرادَ بالصالحينَ أهلَ الشريعةِ الَّذِينَ أَعْجَزُوا ظَاهِرَهُمْ وباطِنَهُمْ بالصَّلاحِ، وبالمُرِيدِينَ أَهْلَ الطَّرِيقَةِ الَّذِينَ خَرَبُوا وجودَهُمْ بِكَسْرِ النَفْسِ وإفناء حُظوظِها».

قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «ما كُنْتُ إِلا كقارِبٍ وَرَدَّ وَطالِبٍ وَجَدَّ» (٤٨)، والقَرَبُ طلب الماء ليلا، ولا يقال ذلك لطالِبِ الماء نهارا، وقيل أن القارب الذي يسير إلى الماء وقد بقي بينه وبينه ليلة واحدة، وقال الأصمعي: قلت لأعرابي ما القَرَبُ؟! فقال: سير الليل لِيُورِدَ الغد، وليلة القَرَبِ هي الليلة التي يصبحون منها على الماء، وعلى هذا وصف أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أنه وصل إلى صبح لقاء محبوبه الأزلي بطلوع شمس الوصال، كيف لا وهو صاحب الكلمة النورانية العرشية: «لَوْ كُشِفَ الغِطاءُ ما أزدَدْتُ يَقِيناً» (٤٩)!!

وهنا نشير إلى نقطة عرفانية دقيقة وهي أن كل بائع حينما يريد البيع لا بد أن يرى المشتري لبيعه سلعته، كذلك في بيع الأنفس، فالعارف بالله حينما يعرض سلعته وهي نفسه في معرض البيع لا بد أن يصل إلى المقام الذي يرى فيه ربه تبارك وتعالى بما يَرِدُ عليه في هذه الدار من تجليات جماله ونور قدسه وإشراقات وجهه وما يحصل له من المعارف الإلهية، ومن ثم ينعقد البيع وتتم الصفقة، وهذا المقام الأسنى والمرقى الأعلى عزيز لا يناله إلا الأوحديَّة من عباد الله!!

نرجو من الله تعالى أن يرزقنا التوفيق في طاعته والعمل الصالح في مرضاته ولتحصيل رأس المال

والزاد لتهيئة أنفسنا وتطهيرها من الذنب والعصيان وحفظها عن المخالفة والخذلان، حتى نحظى بمقام الكشف والشهود، وتكون أنفسنا قابلة للشراء من قِبَل الرب المعبود، ونكون عنده من أهل المكارم والسعود، فتوفيقه وعناياته يتم كل شيء في عالم الوجود.

نقل السيد العلامة الطباطبائي رحمته الله أن أستاذه آية الحق ونادرة الدهر سيد العلماء الإلهيين المرحوم السيد علي القاضي (قده) ربما وصل إلى مقام طي الأرض (وإن كان السيد القاضي (قده) يستنكر ذلك بشدة)، ونقل هذه الحكاية:

كان لحضرة لمرحوم السيد علي القاضي برنامجاً خاصاً في النجف الأشرف في شهر رمضان المبارك، فقد كان معتاداً على استقبال رفاقه والخواص من أصحاب السر من تلامذته في منزله بعد مرور أربع ساعات من الليل، وفي العشرة الأولى من الشهر كان يعقد مجالس دروس الأخلاق والعرفان والوعظ والإرشاد لمدة ساعتين، وبعد انتهاء المجلس وتفريق الحاضرين يتفرغ للخلوة بينه وبين ربه، وكان الأمر على هذا المنوال في العشرة الثانية من الشهر مع اختلاف وقت الدرس ومدته، وأما في العشرة الأخيرة من الشهر فقد كان السيد يعطل المجلس فلا يراه أحد إلى آخر شهر رمضان، ولم يكن أحد يعلم مكانه ولم يكن متواجداً في بيت أي من زوجاته الأربعة وكذلك لم يكن متواجداً في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة حيث كان يكثر المبيت فيهما، وفي الوقت نفسه لم يكن أحد منهم يتجرأ أن يسأله في ذلك!! وقد نقل السيد العلامة الطباطبائي (قده) أمر اختفاء المرحوم القاضي في أوقات أخرى علاوة على شهر رمضان!!

ونقل السيد العلامة الطباطبائي (قده) حكاية أخرى عن أستاذه العظيم المرحوم السيد علي القاضي (قده) في هذا المقام وقال:

لقد كان المرحوم القاضي يتشرف بالذهاب إلى كربلاء أيام الزيارات، ولم يره أحد يركب السيارة، ولم يطلع على هذا السر إلا تاجر من تجار الساعات في السوق الكبير الذي تشرف بالذهاب إلى مشهد المقدسة، فشاهد السيد علي القاضي هناك، وطلب منه حلّ مشكلة جواز سفره المنتهية صلاحيته للسفر به، فأعطى جواز السفر إلى السيد القاضي وقال له السيد ارجع إلى دائرة الشرطة غداً وخذ جواز سفرك من هناك!! ولما ذهب في اليوم التالي إلى دائرة الشرطة استلم جوازه بسهولة ويسر، وسافر به إلى النجف الأشرف، ولما أطلع أصدقاءه بالمشكلة وحلّها قال له أصدقاؤه أن السيد القاضي لم يغادر النجف، فأسرع الرجل إلى السيد القاضي وأخبره بما جرى عليه في مشهد، ولكن السيد القاضي أنكر ذلك وقال: الكل يعلم أنني كنت في النجف ولم أسافر!! ولكن التاجر أبلغ بعض العلماء الفضلاء بهذا الأمر، ولما جاء العلماء إلى السيد علي القاضي واستفسروا عنه الأمر أنكر مجدداً، هنالك طلبوا من

ساحته أن يخصص لهم دروسا في الأخلاق.

فاعلم أيها الطالب للحق أن من عرف دناءة الدنيا وحسنتها عرف شرف الآخرة وكرامتها، ولا تكون هذه المعرفة إلا بالمهاجرة عن دار الفناء والزهد فيها والشوق إلى دار البقاء والحركة إليها، فتجاف عن دار الغرور وأخرج حب الدنيا من قلبك ولا ترجو فيها مقرا ولا مقاما وأنزلها كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه، واسع بقلبك إلى منازل الأبرار والمقربين، وكُنْ من أهل الآخرة ولا تَكُنْ من أهل الدنيا تَكُنْ من الفائزين المفلحين في جنة النعيم، ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

سَبِيلًا﴾^(٥٠)!!

الهوامش

- (١) سورة الشورى: آية ٥٣
- (٢) سورة غافر: آية ٣٩
- (٣) سورة غافر: آية ٣٩
- (٤) تفسير الميزان: مجلد ١٧ ص ٣٥١
- (٥) سورة البقرة: آية ٣٦، سورة الأعراف: ٢٤
- (٦) روضة الواعظين: ص ٤٨٢ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١١٩
- (٧) روضة الواعظين: ص ٤٨٣ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١١٩
- (٨) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٢٣، دار قلعة أي ليس بمستوطن بل دار تحول وارتحال والتُّجعة في الأصل طلب الكلا ثم سمي كل من قصد أمرا يروم النفع فيه منتجعا، وتقول انتجعت فلانا إذا أتيته تطلب معروفه.
- (٩) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٠٧، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٦ ص ٤٣، والظاهر أن العبارة الأخيرة لعيسى عليه السلام أيضا، وجاءت الفقرة الأولى في روضة الواعظين: ص ٤٨٣ ط ١٩٨٦.
- (١٠) سورة الأعراف: آية ٢٩
- (١١) سورة الأنبياء: آية ١٠٤
- (١٢) الأسفار الأربعة: مجلد ٨ ص ٣٥٥
- (١٣) «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ» أو «كَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا شَيْءٌ غَيْرُهُ» أو «كَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُهُ» أو «كَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ» - الكافي: ج ١ ص ١٠٧، توحيد الصدوق: ص ١٤٥ ح ١٢، المحجة البيضاء: ج ١ ص ٢١٧، صحيح البخاري: ج ٤ ص ١٢٩، كنز العمال: ج ١٠ ص ٣٧٠، ورواه الحاكم في المستدرک: ج ٢ ص ٣٤١، الدر المنثور للسيوطي: ج ٣ ص ٣٢٢، وروى سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي عليه السلام نقلا عن كتاب محاسن البرقي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ وَلَا شَيْءٌ غَيْرُهُ نورا لا ظلام فيه» - الميزان: مجلد ٨ ص ٢٦٤
- (١٤) سورة العلق: آية ٨
- (١٥) سورة آل عمران: آية ١٣٧، سورة النحل: آية ٣٦
- (١٦) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ٢٢ - التعليق
- (١٧) الترجمة: في اليوم الذي تتجلى فيه الحقيقة (يوم القيامة) سيشعر كل سالك عمل على المجاز دون الحقيقة بالحياء والخجلة.
- (١٨) مقتنيات الدرر: مجلد ٩ ص ٢٦٢
- (١٩) سورة آل عمران: آية ١٤

- (٢٠) سورة التوبة: آية ٣٨
- (٢١) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٩٢
- (٢٢) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٨٧
- (٢٣) الترجمة:
- ما لم تحترق في فراق وجهه المحبوب
- كيف يكون مستقرك في دار القرار!!
- (٢٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٣
- (٢٥) فروع الكافي: ج ٥ كتاب المعيشة ص ٧٢ حديث ٩
- (٢٦) تحف العقول للحراني: ص ٥٣، معاني الأخبار: ص ٢٨٩، وعنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٩٧، عوالم العلوم: ج ١٧ ص ٣٥١، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٤٢، مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٤٦١
- (٢٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٢٩، باع أي شرى وابتاع أي اشترى.
- (٢٨) سورة يونس: آية ٢٣
- (٢٩) سورة يونس: آية ٢٣
- (٣٠) سورة الأعلى: آية ١٧
- (٣١) سورة الإسراء: آية ٧٠
- (٣٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢ ص ١٧٤
- (٣٣) سورة البقرة: آية ١٠٢
- (٣٤) سورة البقرة: آية ١٦
- (٣٥) سورة البقرة: آية ٨٦
- (٣٦) سورة التوبة: آية ١١١
- (٣٧) سورة الرحمن: آية ٥٤
- (٣٨) من مناجاة المريدين للإمام زين العابدين عليه السلام
- (٣٩) سورة التوبة: آية ١١١، وتامها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وفي تفسير هذه الكريمة المباركة قال العلامة الطباطبائي (قده): «وَقَدْ قَلَبَهُ سُبْحَانَهُ فِي قَالِبِ التَّمْثِيلِ فَصَوَّرَ ذَلِكَ بَيْعًا وَجَعَلَ نَفْسَهُ مُشْتَرِيًّا وَالْمُؤْمِنِينَ بَايِعِينَ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سَلْعَةً وَمَبِيعًا وَالْجَنَّةَ ثَمَنًا وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ سَنَدًا لِلْمُبَايَعَةِ وَهُوَ مِنْ لَطِيفِ التَّمْثِيلِ» - تفسير الميزان: مجلد ٩ ص ٤١٨
- (٤٠) المحجة البيضاء: ج ٢ ص ١٢٣، الكافي: ج ٤ ص ٦٣، كنز العمال: ج ٨ ص ٤٤٥، وقد سبق شرح هذا الحديث في المنزل (١٣) - بداية السفر عند المحب

- (٤١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ١٧٣، بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٣٢
- (٤٢) غرر الحكم ودرر الكلم: دار القارئ بيروت ص ٤٠٣ ح ٨٠٤٨، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٢، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٩٢، الصراط المستقيم: ج ١ ص ١٥٦
- (٤٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٥٢ ح ٣٠٢٦
- (٤٤) فقرة من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علّمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل
- (٤٥) سورة يس: آية ٦٨
- (٤٦) سورة الواقعة: آية ١٠ - آية ١١
- (٤٧) الأسفار: مجلد ٩ ص ٢٣٠
- (٤٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٥ ص ١٤٣
- (٤٩) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٧ ص ٢٥٣، مناقب ابن شهر آشوب: ج ٢ ص ٤٧، شرح المائة كلمة للإمام علي عليه السلام: ص ٥٢
- (٥٠) سورة المزمل: آية ١٩، سورة الإنسان: آية ٢٩

المنزل (٦٣)

مَعْرِفَةُ الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ

اعلم أيها السالك إلى الله أن للحب مرتبة عظيمة ومقام شريف عند أهل الله، فهو القاعدة التي بُني عليها بيت العرفان والسبيل الوحيد عند العرفاء لمعرفة الله والتقرب إليه والزلقى لديه، وكل الحالات والمقامات والمعارف والكمالات التي ينالها العارف بالله في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى إنما أساسه الحب، ولهذا يعتبر البحث في هذا المقام من المباحث المحورية والأساسية في العرفان.

يقول العرفاء أن علة خلق عالم الوجود عامة والإنسان بوجه خاص - وهو العلة الغائية لإيجاد العوالم - لم يكن لتكميل الذات الإلهية، فهو الكمال المطلق ومطلق الكمال المنزه عن كل نقص وهو الغني عن العالمين، بل لحب الجناب الإلهي الأزلي لنفسه الموجب لظهور ذوات أسماؤه وصفاته وبروز حقائقها وكمالاتها التي تطلب المظاهر والمجالي فتظهر بها الجواهر المكنونة والأسرار المصونة والكمالات المخزونة إلى عالم الكثرات فيمكن للخلق إدراكه ومعرفته، ولهذا لما قرأ القارئ في مجلس الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير^(١) قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٢) قال: لَعَمْرِي يُحِبُّهُمْ وَيَحِقُّ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ لَأَنَّهُ إِنَّمَا يُحِبُّ نَفْسَهُ!!^(٣)

وعلى هذا فإن الحركة التي دار عليها مدار الوجود من العدم إلى أبد الدهر هي في الحقيقة حركة حيية، ولولا هذا الحب ما ظهر العالم بوجوده العيني، وبوجود العالم ظهرت أسماء الله تبارك وتعالى وصفاته، قال تعالى في حديث قدسي: «كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ»^(٤)، فالحب مبدأ الخلق وسرّه وعلته، وكما قيل لولا الحب ما وجد بر ولا بحر ولا أرض ولا سماء.

وقد ورد الحب والمحبة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وروايات أهل البيت عليهم السلام منقسمة إلى جانبين: حب الحق للخلق وحب الخلق للحق، وأما تفصيل ذلك:

الجانب الأول: حب الحق للخلق

لما تجلّى الحق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته في جميع صور الوجود كان تجليه في الإنسان - وهو الجامع لجميع حقائق الوجود - أكمل التجليات وظهوره أتم الظهورات، والحق سبحانه إنها يجب عباده لحيه ذاته المقدسة المتعالية، وكما قيل أن «مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ آثَارَهُ»، فكان الإنسان أكثر الخلق استحقاقاً لمحبة الله، ومما أوحى الله به لموسى في التوراة: «يا ابْنَ آدَمَ إِنِّي وَحَقِّي لَكَ مُحِبٌّ فَبِحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا»^(٥)!!

من از دل بستگی های تو با آئینه دانستم

که بر دیدار طاقت سوز خود عاشق تر از مائی^(٦)

هذا وقد أثبت الحق تبارك وتعالى مفردات الحب في كتابه الكريم، وذكر في طي بعض آياته المباركات أصناف المحبوبين عنده وصفاتهم وكذلك الذين لا يجهم وصفاتهم.

فقال في الأصناف التي يجهم وصفاتهم أنه: ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ و ﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْضُوضًا﴾، وغيرها.

وقال في الأصناف التي لا يجهم وصفاتهم أنه: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْمُنْفِرِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ و ﴿لَا يُحِبُّ الْجُهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وغيرها.

وكما ترى أن الله تعالى يحب الأصناف المحلاة بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة المرصية ولا يحب الأصناف المشوبة بالرديلة وفساد الأخلاق ومذمومها، لأنه الربُّ المتعال ذو الأسماء الحسنی والصفات العلا يحب الخير والصلاح والإحسان ويبغض الشر والفساد والإساءة، ويريد أن يطهر عباده عن كل قذارة معنوية وقُبْح باطني ويعصمهم عن كل ظلم ومعصية وينعم عليهم بالكمال والرفعة، وكما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٧)، فهو تعالى جميل في أسائه وجميل في صفاته وجميل في أفعاله وكل جميل منه ويجب أن يرى أثر جماله على عبده، فإذا تجمّل العبد بالصفات

الحسنة والمقامات الرفيعة وتخلق بالأسماء الإلهية وظهر بالكمالات الحقانية كان محبوبا عند الله سبحانه وتعالى.

وعلى أي حال فإن حب الله تعالى لخلقه إنما هو في الحقيقة حب ذاته المقدسة لذاته ولجماله الأزلي الباقي، وهذه مدحة محجور عليها للحق ممنوعة على غيره لا يشركه بها أحد ولا تنبغي لسواه جل ثناؤه وحسنت صفاته وعظمت آلاؤه.

ويقسم العرفاء المحبوبين عند الله تعالى من جهة إلى قسمين:

القسم الأول:

من أحبهم الله تعالى حب ابتداء وعناية وامتنان، وقدم محبته لهم على محبتهم له كما في الآية المباركة: ﴿مُحِبُّهُمْ وَمُحِبُّونَهُ﴾^(٨) وهو خاص بأهل السعادة من الأنبياء والأوصياء والأولياء والكمّلين من أهل الله الذين قال تعالى فيهم: ﴿... الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى...﴾^(٩)، فأخلصهم ربه لذاته واجتباهم لنفسه وتولاهم بعنايته الخاصة وهدايته السابقة ومحبته الأزلية.

يك طائفه را بهر مكافات سرشتند

يك سلسله را بهر ملاقات گزیدنند^(١٠)

القسم الثاني:

الذين أحبهم الله تعالى حب جزاء وكرامة، وهم التابعون لرسول الله ﷺ والمطيعون له حباً لله تعالى، وكذلك التائبون الذين رجعوا من المخالفات إلى الموافقات، فكانت ثمرة اتباعهم وجزاء طاعتهم لرسول الله ﷺ وتوبتهم محبة الله إياهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١١).

ولا يخفى عليك أن أهل العناية الإلهية الخاصة تشملهم المحبة الثانية كما شملتهم المحبة الأولى، فالمحبة الابتدائية وسيلة لنيل المحبة الجزائية، فبالنسبة للأنبياء والرسول فهو اتباع الوحي: ﴿... إِنْ أَتَيْتَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ...﴾^(١٢) واتباع الهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء من قبل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾^(١٣)، وبالنسبة لما دون الرسول فبطاعة الرسول والتأسي به واتباعه في سيرته وأخلاقه وأحواله وفيما جاءهم بأداء الفرائض ورغبتهم بلزوم النوافل، ففيما رواه النبي ﷺ عن ربه: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»^(١٤)، فهم محفوظون بين محبتين إلهيتين، محبة عناية ومحبة كرامة.

ويقول بعض أرباب العرفان: كما أن لمحبة المحب مراتب متفاضلة كذلك لمحبة المحبوب درجات

متفاوتة:

فمحبته للعوام: باختصاصهم بالرحمة والغفران والتجلي عليهم بالأفعال والآيات.
ومحبته للخواص: باختصاصهم بتجلي صفات الجمال وستر ظلمة صفاتهم بأنوار صفاته.
ومحبته لأخص الخواص: باختصاصهم بالجزبات وستر ظلمة وجودهم بأنوار الوجود الحقيقي
فيتجلى أولاً بنار الجلال فيحرق عن قلوبهم جميع ما كان فيها (منها) ثم يتجلى بنور الجمال فيمحوهم
ويثبتهم به ويسلب عنهم السمع والبصر والنطق^(١٥).
وهذه المراتب كما ترى متفاوتة حسب مراتب الفناء في الله سبحانه وتعالى، وسيأتيك تفصيلها في
المنازل القادمة إن شاء الله تعالى^(١٦).

تا كه از جانب معشوق نباشد كَشَشِي

كوشش عاشق بیچاره به جائی نرسد^(١٧)

الجانب الثاني: حب الخلق للحق

وفي معنى هذا الجانب من الحب أقوال عرفانية مختلفة للمحبين تنصُّ كلها في بوتقة واحدة وهي
الحب الخلقى للخالق عزَّ وجلَّ، نذكر جملة منها:
قال بعضهم: المحبة إحماء القلب عما سوى المحبوب.
وقال بعضهم: نار في القلب تحرق ما سوى المراد المحبوب.
وقال بعضهم: الموافقة في جميع الأحوال.
وقال بعضهم: ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر والإحسان.
وقال بعضهم: بذل الجهد والحبيب يفعل ما يشاء.
وقال آخرون: ميل العبد بالكلية إلى المولى الحق وإيثاره له على نفسه وروحه وماله وولده ثم الموافقة
له سرًّا وجهراً فيما سرَّه أو أساءه ثم العلم بالتقصير في حق المحبوب ومحبته.
ويقول العرفاء أن الجمال محبوب لذاته، وأن الحب هو الميل إلى الجمال والانجذاب إليه، ولما كان
الباري عزَّ وجلَّ هو الجميل على الإطلاق ولا أجمل منه كان العالم كله محبا لله تعالى ولجماله في خلقه
وحسنه في إبداعه.

وكل معلول يعشق علته، وكل ناقص يميل إلى من هو أكمل منه، وكل موجود ينجذب إلى
موجده، وواجب الوجود تقدست أسماؤه علة العلل والكمال الأكمل، فكل موجودات العالم
في حركة رجوعية وسير ارتقائي وعود فنائي إليه، ولهذا قال الحكماء أن «الواجب بالذات هو
المعشوق الأوَّل!!»

وعلى هذا قيل أن المحبة من الوجدانيات التي لا تحتاج إلى تعريف حقيقي بل يمكن أن يقال أنها إدراك الكمال من حيث إنه مؤثر، وكلما كان الإدراك أتم والمدرك أشد كمالية مؤثرة كانت المحبة أكمل.

والنوع الإنساني هو أكثر أنواع الموجودات اختلافاً بين أفرادها وذلك لفوارق الاستعدادات في نيل الكمالات الإنسانية، فمنهم من يرتقي إلى مرتبة الملائكة المقربين أو أرفع منها ومنهم من يهبط إلى مرتبة البهائم أو أدنى منها، ولهذا تختلف محبوبات النفس الإنسانية حسب اختلاف مراتبها الوجودية ومعارفها الإلهية وحالاتها النفسانية من شهوانية وغضبية وشيطانية وملكية^(١٨).

والحب عنوان كلي ذو شئون متفاوتة، ومثله كالبحر ينظر إليه رجلان فيقول أحدهما هذا بحر ويقول الآخر هذا موج وكلاهما في الواقع ينظران إلى حقيقة واحدة وهي البحر، كذلك الحب هو حقيقة واحدة وأصل كلي مركزه القلب ولكنه ذو مراتب وشئون تختلف من شخص إلى آخر، ولذا قسّم العرفاء هذا المقام إلى مراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى: الحب

وهو الخلوص في الولاء والخلو عن شوب الأغيار والصفاء عن كدر العوارض والأستار الذي يعيق اتصال المحب بمحبوبه، فلا ولاء للحق إلا بالبراءة من الخلق.

المرتبة الثانية: العشق

وهو الحب المفرط الذي يعمي صاحبه عن كل شيء سوى محبوبه ويسري في جميع بدنه وروحه حتى لا يبقى متسع لغيره، فلا يسمع إلا منه ولا ينطق إلا به ولا يرى شيئاً غيره إلا رآه فيه، أو كما قال بعض العرفاء: «العشْقُ هُوَ التَّفَافُ الحُبِّ عَلَى المَحَبِّ حَتَّى خَالَطَ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ اشْتِمَالَ الصَّمَاءِ»^(١٩)، وقد عبر عنه الحق تعالى في كتابه بالحب الشديد: ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾^(٢٠)، وكذلك قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام وزليخا: ﴿... قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...﴾^(٢١) أي صار حبها ليوسف عليه السلام كالشغاف على قلبها وهي الجلدة الرقيقة المحيطة بالقلب.

وقد نفى الكثيرون صفة العشق لله تعالى وقالوا أن العشق إفراط المحبة وتجاوز الحد فيه، وهو مخصوص بمحبة غير الله، وأما الباري سبحانه فهو أجلُّ وأكرم من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته، فلا يجوز استعمال كلمة العشق في حبه، ولكن السيد صدر الدين كاشف الدزفولي رحمته الله يرد هذا القول ويقول في بعض رسائله في السير والسلوك:

«اعْلَمْ أَنَّ أَقْوَالَ أَرْبَابِ الطَّرِيقَةِ فِي مَعْنَى العِشْقِ وَحَقِيقَتِهِ كَثِيرَةٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَقِيقَةَ مَعْنَى العِشْقِ مُبْهَمٌ بَلْ مَجْهُولُ الكُنْهِ، وَيُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ العِشْقَ

مثل الوجود الذي وإن كان غير معلوم من حيث الكنه والذات إلا أن آثاره تدل عليه، كما أن آثار نور الشمس وإشراقها على ذرات ماهيات الموجودات تدل على وجود ونورانية الشمس، ومختصر الكلام في هذا المطلب أن العشق يُطلق على إفراط المحبة، والمحبة إدراك المناسب، ويُنكر بعض علماء الظاهر نسبة المحبة إلى الخالق عز وجل في حين أن بعض فقرات أدعية الأئمة الأطهار عليهم السلام تظهر تماماً كظهور الشمس في رابعة النهار في الشوق والمحبة الإلهية، بل إنهم عليهم السلام في محبة الخالق عز وجل كانوا في مرتبة العشق، والزيارة الجامعة - وهي أفضل الزيارات المُعتبرة - تدل على ذلك، قال الإمام عليه السلام في حق أئمة الدين عليهم السلام: «والتامين في محبة الله»، ولا شك أن المراد من تمام المحبة هو العشق، والمحبة التي لا تصل إلى مرتبة العشق ناقصة غير تامة، وهذا المعنى للعشق - أي إفراط المحبة - مُتفق عليه أصحاب القلوب، ومتى ما حصل الإفراط في المحبة فالمحبة في غاية كمالها.

المرتبة الثالثة: المحو

وهو حال من أحوال الحب وهو عدم ركون العبد إلى الأسباب وفناؤه عن نفسه واستهلاكه في الله تبارك وتعالى وقربه الحقيقي منه حتى يتجلى له، فإنها يتجلى الحق لمن انمحي رسمه وزال عنه اسمه، ويعبر عنه بعض العرفاء بـ «غليان القلب»^(٢٢).

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «انظروا إلى الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيتُه بين أبوين يَخْدوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حُبُّ الله ورَسُولُه إلى ما تَرَوْنَ»^(٢٣)!!

وقد صنّف بعض العرفاء كصدر المتأهلين الشيرازي (قده) العشق الإنساني إلى صنفين: حقيقي ومجازي، فالعشق الحقيقي هو لله تعالى ولأسائه وصفاته وأفعاله وهذا لا يكون إلا للمتأهلين الكاملين الذين حصل لهم الفناء الكلي، وأما العشق المجازي فينقسم إلى عشق إنساني وعشق حيواني، والعشق الإنساني عشق عفيف تقتضيه لطافة نفس العاشق وهو ما كان مبدؤه مشاكلة نفس العاشق والمعشوق في الجوهر فيكون الإعجاب بشمائل المعشوق وآثاره^(٢٤) ومعرفة قدره، وغايته التشبه بالمحبوب، وأما العشق الحيواني فتقتضيه النفس الأمارة بالسوء، وهو ما كان مبدؤه شهوة بدنية وغايته حصول لذة بهيمة.

وكما قيل أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، وغاية الطرق كلها هو الله سبحانه وتعالى: ﴿... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ...﴾^(٢٥)، وأقرب الطرق إليه معرفته، وكلما ازدادت معرفته اشتعل

القلب بنور محبته وتجليات جماله أكثر فأكثر، فمن تحبب إلى الله تعالى وتقرَّب إلى جنباه وتخلق بأخلاقه علماً وعملاً غداً عالماً إلهياً وعارفاً ربانياً ومظهراً من مظاهر أسماء الله ومن المقربين.

وفيما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبيِّه داود عليه السلام: «يا داود!! ما أحببني أحدٌ أعلمُ ذلكَ يقيناً من قلبه إلاَّ قِبَلْتَهُ لِنَفْسِي وَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَا يَتَقَدَّمُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي» (٢٦)!!

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يدعو دائماً بهذا الدعاء ويوصينا به: «اللَّهُمَّ أَذِقْنَا حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ»!! فهو العارف الواصل الذي عرف معنى الحب والعشق والفناء في الله تعالى ولم ينفك من طلب مزيد شراب الحب بكأس الحب عند لقاء المحبوب. وعلى هذا يمكن القول أن كمال الحب على قدر كمال المحبوب، فكلما قوي كمال المحبوب وشأنه كان حبه أرفع مرتبة وأعظم مقاماً، مثلاً إذا كانت الدنيا وحطامها هي المحبوب فهذا الحب خسيس ودنيء ولذته فانية زائلة، وأما إذا كان الله تبارك وتعالى هو المحبوب فحبه أصدق أنواع الحب وأحقه، وإذا استولى على قلب المحب طهره عن حب من سواه، وكانت درجة محبته لله تعالى أعلى درجات المقربين، فتعم المحبوب ونعم جزاء المحبين المقربين حين يتجلى لهم جمال رب العالمين.

وقد يعمل البعض - حسب مرتبتهم الوجودية وهم الأكثرية الغالبة - في طاعة الله وعبادته والامثال لأوامره طمعاً في نعيم الجنة أو خوفاً من عذاب النار أو كلاهما معاً، وإن كانت الأعمال بنيات صادقة وصحيحة وخالية من الرياء - أي الطمع والخوف - ولا تفسد بغاياتها - أي حصول نعيم الجنة والخلاص من عذاب النار - إلا أن محبتهم لتلك الطاعات والعبادات لا تدرج تحت مقام محبة الله الخالصة، لأن عملهم لم يكن إلا لحظوظ أنفسهم ومشتهياتها ونيل اللذات المحسوسة في اليوم الآخر من مشارب ومآكل وأنهار وحور وقصور، وأما المحب الحقيقي الذي عرف الله بجماله وجلاله فمطلوبه الحق تبارك وتعالى ويعبد الله الله ويرى الله تعالى أهلاً للطاعة والعبادة فيطيعه ويعبده حتى عبادته حتى يتنعم بلذة لقائه وجنة قربه ووصاله.

قال العارفون: نحن نحب الله تعالى لذاته لا لغرض ولو كان كل شيء محبوباً لأجل شيء آخر دار أو تسلسل، وإذا كنا نحب الرجل العالم لعلمه والشجاع لقوته وغلته والزاهد لبراءة ساحته عن المثالب فالله تعالى أحق بالمحبة لأن كل كمال بالنسبة إلى كماله نقص والكمال مطلوب لذاته محبوب لنفسه، وكلما كان الاطلاع على دقائق حكمة الله وقدرته وصنعه أكثر كان حبه له أتم، وبحسب الترتيبي في درجات العرفان تزداد المحبة إلى أن يستولي سلطان الحب على قلب المؤمن فيشغله عن الالتفات إلى غيره ويغني عن حظوظ نفسه، فبه يسمع وبه يبصر وبه ينطق وبه ييطش وبه يمشي، فلا يفعل إلا ما أحبه وأراد ولا يختار إلا ما أمره ورضيه، ولا يثق إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يتكلم إلا عنه، ولا

يتفكر إلا فيه، ولا يتنفس إلا معه، وهذه أحوال تُلطف عن العبارة وتدق عن الإشارة^(٢٧).

ونعم ما قيل في هذا المقام:

يا حبيبَ القلوبِ مَنْ لي سِواكَ
 اَرْحَمَ اليَوْمَ زائِراً قَدْ اُنَاكَ
 اَنْتَ سُؤلي وَبُغْيَتِي وَسُرُوري
 قَدْ اَبى القَلْبُ اَنْ يُحِبَّ سِواكَ
 يا مُنايا وَسَيِّدي واَعْتِمادي
 طالَ شَوْقي مَتى يَكُونُ لِقاكَ
 لَيْسَ سُؤلي مِنَ الجِنانِ نَعِماً
 غَيْرَ اَنْي اُرِيدُها لِأراكَ

قال أبو جعفر عليه السلام لجابر الجعفي في وصف أهل التقوى: «فَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ بِمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ وَوَحَشُوا الدُّنْيَا لِمَطَاعَةِ مَلِكِهِمْ وَنَظَرُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى مَحَبَّتِهِ بِقُلُوبِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ لِعَظِيمِ شَأْنِهِ»^(٢٨).

وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «حُبُّ اللَّهِ إِذَا أَضَاءَ عَلَيَّ سِرٌّ عَبْدٌ أَخْلَاهُ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ وَكُلِّ ذِكْرِ سِوَى اللَّهِ وَالْمَحَبُّ أَخْلَصَ النَّاسِ سِرًّا لِلَّهِ»^(٢٩)!! ولذا حينما ينظر العارف إلى غير محبوبه أو يتوجه إلى غيره يعدُّ نفسه من الظالمين الخاطئين!!

ثم إن قوة الحب في المحب تدفعه إلى حب لقاءه وتوقان رؤيته والأنس به والراحة لديه، وقد جاء في حديث إلهي: «يا ابنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبِّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ، هَا أَنَا ذَا يَا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَيَّ أَحِبَّائِي إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلَتْ أَبْصَارُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَثَلَتْ عُقُوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ يُخَاطِبُونِي عَنِ الْمَشَاهِدَةِ وَيُكَلِّمُونِي عَنِ الْحُضُورِ»^(٣٠).

وقد قال الله تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَهُ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٣١).

فزين قلبك أيها المحب وانظر إلى أي صنف تنتمي، فإن كنت من الصنف الأول فطوبى لك ثم طوبى لك واشكر ربك على توفيقه لك ومنه عليك، وأما إن كنت من الثاني - والعياذ بالله - فاستيقظ عن نوم الغفلة وانتقل عنه بالتوبة وادع الله تعالى أن يطهرك عن كل لذة سوى لذة محبته ولقائه!!

ولما كان العبد لا يلقي ربه إلا بالموت ترى العارف بالله يستعجل لقاء ربه حباً له، فيموت عن نفسه وإنيته وإرادته وتصرفاته في الحياة الدنيا حتى يتحقق اللقاء، ومن هنا قيل: «مَنْ أَحَبَّ اللَّقَاءَ اخْتَارَ

الفَنَاءَ عَلَى البَقَاءِ!!

كى در آيى در صف آزادگان

اين قيامت بر تو كى گردد عيان^(٣٢)

لقيت عالما عارفا في آخر أيام عمره يكرر هذه الكلمة (بالفارسية): «او جويَم!!»، أي أبحث عنه!! - وكان يعني الحق سبحانه وتعالى - فلم يكن يبحث عن مقصود في الوجود سوى الحق تبارك وتعالى إلى أن مات.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(٣٣)، فالأمر عظيم والمقام خطير، ومن كذب بقاء الله تعالى فإن أعماله محبوبة ولا قدر له عند الله تعالى يوم القيامة!! فزادك الذي تحمله معك عند الميزان هو حبك لله تعالى وكل عمل سواه يندرج تحت هذا المقام فيكون له وزن عند الله.

فالملك الحقيقي والمحور الذي تدور عليه كل الأعمال هو حب الله تعالى، فإن أحببت شيئا لله كان ذلك حبا لله، وإن أبغضت شيئا لله كان ذلك أيضا حبا لله، وهذا الحب هو الباقي وما سواه زائل وفاني، قال الحكيم في كتابه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣٤)، فالخلة التي كانت في ذات الله ومن جهة التقوى هي الثابتة الباقية النافعة يوم القيامة وما سواها ممنوعة مقطوعة. وقد يسأل سائل: إذا كان حب العبد لله تعالى في أعلى مراتبه فهل يجوز أن يكون في قلبه حب غير الله سبحانه؟!

يقول العارف الصمداني الملا حسينقلي الهمداني (قده)^(٣٥) في بعض رسائله:

«لَا شَكَّ أَنَّ الْمَحْبُوبَ الْأَوَّلَ هُوَ ذَاكَ الْكَبِيرَاءِ جَلَّ جَلَالُهُ، بَلْ وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَا

تَرْجِعُ إِلَى مَحَبَّتِهِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ!!»

نعم فالمحسوب بالأصالة والحقيقة هو الله تبارك وتعالى ويجوز حب غير الله تعالى على أن يكون أساس حبه للغير هو حب الله تعالى وأن يكون الغير من المخلصين لله ومن أحبائه وأودائه، وهنا يصدق القول أن ليس في القلب سوى حب الله.

ثم يقول الملا حسينقلي (قده):

«ثُمَّ بَعْدَهُ مَحَبَّةٌ مَنْ كَانَ لِلْسُلْطَانِ الْعَظِيمِ الشَّانِ أَكْثَرَ حُبًّا، لِذَا فَإِنَّ أَوَّلَ مَحْبُوبٍ بَعْدَ وَاجِبِ الْوُجُودِ

هُوَ الْوُجُودُ الْمُقَدَّسُ لِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِ الرِّسَالَاتِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ بَعْدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ الْأَيُّمَةُ الْمُعْصُومُونَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ ثُمَّ الْأَوْصِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ!!»

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «المحِبُّ في الله مُحِبُّ الله والمَحْبُوبُ في الله حَيِّبُ الله لَأَنَّهَا لَا يَتَحَابَّبَانِ إِلَّا فِي اللَّهِ» ^(٣٦)!! فكيف إذا كانت المحبة لمن جعلهم الله تعالى حُجَجاً على عباده وأمر العباد بمحبتهم وجعل رضاه في ولايتهم وهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إني أحبُّك، فقال صلى الله عليه وآله: إنك لتحبُّني!! فقال الرجل: إي والله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: أنت مع مَنْ أَحَبَّتَ ^(٣٧)!!

قيل لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك إنا نسَمِّي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟! فقال عليه السلام: إي والله، وهَلْ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ ^(٣٨)!!

وجاء في تفسير مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام للآية المباركة: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: «أَنَّ النَّعِيمَ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ وَمُؤَالَاتُنَا» ^(٣٩)!!

فمن أراد نعيم الدنيا والآخرة فليعرف إمام زمانه وليتمسك به ويعقد قلبه بحبه وموالاته ويجعله أسوة له في حياته الدنيا فيتبعه في أعماله وعباداته كما أمره الله تعالى حتى يكون محبوباً عند الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٤٠)!!

وفي ختام البحث في معرفة الحب نبين مقامات الحب بإيجاز كما طرحها مرشدنا العظماء ومشايخنا الفضلاء، وفي كل مقام منها بحث يطول شرحه، وهي كالتالي:

- درجة المحبة	- حلقة المحبة	- سلطان المحبة
- دعوى المحبة	- جزاف المحبة	- علامة المحبة
- نداء المحبة	- عُلُقَة المحبة	- قطرة المحبة
- ورد المحبة	- روائح المحبة	- دور المحبة
- أحكام المحبة	- رقم المحبة	- ارتباط المحبة
- كأس المحبة	- شراب المحبة	- سُكْر المحبة
- ياقوت المحبة	- يد المحبة	- بلاء المحبة
- انبساط المحبة	- شطرنج المحبة	- مَقْمَرَة المحبة
- طست المحبة	- بوتقة المحبة	- معدن المحبة
- أوراد المحبة	- حقيقة المحبة	- أسرار المحبة
- نار المحبة	- المحروقون في نار المحبة	

وفي مقامات المحبين حكايات كثيرة ومصاديق عديدة نذكر ما نقله لنا شيخنا الأستاذ آية الله

العظمى الشيخ مرتضى الحائري رحمته الله وقال:

كان الشيخ الأردكاني عالماً مجتهداً ومرجعاً يؤم المؤمنين للصلاة في مسجد من مساجد يزد، وكان المسجد يغصُّ بالمصلين الذين يفدون على المسجد للصلاة خلف هذا العالم الجليل الذي كانوا يتبركون به وبأنفاسه الطيبة.

وذات يوم رآه بعض خواصه جالساً في مقهى شعبي يشرب الدخان، فقالوا له: مولانا، ما هذه الحالة؟! ولم أنت جالس هنا؟!

قال لهم: لقد خلّصت نفسي من الجحيم!! فتعجبوا من قوله وقالوا: وكيف يكون ذلك؟! قال: حينما دخلت المسجد آخر مرة ورأيت الجموع الغفيرة المحتشدة داخله وخارجه بدأ الشيطان يوسوس في صدري وكاد يدخل في قلبي من العُجب ما لا يُحمد عقباه، فرأيت أن أخلّص نفسي من هذه المصيدة المهلكة.

من يقدر أن يفهم هذا المنطق؟!

قد يرى البعض أن هذا العمل خلاف وقار العالم وهيئته ومنزلته وشأنه عند الناس، لكن العالم العارف هو الذي يعرف معنى الحب الحقيقي والمحجوب الحقيقي، فيتجرد عن إرادته ويخالف نفسه ومراضيه ويخرج عنها بالكلية في سبيل محبوبه ويسارع إلى طاعته ويفر من معصيته لا بمشقة وعناء بل بلذة وحلاوة وطيب نفس حتى لا يقدر في قربه إليه طرفة عين أبداً.

يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لِأَبْصَارِ مُحِبِّهِ رَائِقَةٌ وَسُبْحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ
يَا مَنْ نَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ وَيَا غَايَةَ آمَالِ الْمُحِبِّينَ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ
وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إِلَى قُرْبِكَ وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ سِوَاكَ وَأَنْ تَجْعَلَ
حُبِّي إِلَيْكَ قَائِداً إِلَى رِضْوَانِكَ وَشَوْقِي إِلَيْكَ ذَائِداً عَنْ عِضْيَانِكَ وَأَمْنُنُ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ
عَلَيَّ وَأَنْظُرُ بَعَيْنِ الْوُدِّ وَالْعَطْفِ إِلَيَّْ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي وَجْهَكَ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ الْإِسْعَادِ
وَالْحُطْوَةِ عِنْدَكَ يَا مُجِيبُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ (٤١).

الهوامش

- (١) أبو الخير حسن بن بهنام بن بابا بن سوار بن بهنام المشهور بـ «أبي سعيد أبي الخير النيشابوري» تلميذ أبي الفضل السرخسي ومن أبرز العرفاء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، توفي عام ٤٤٠ هـ.
- (٢) سورة المائدة: آية ٥٤
- (٣) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٧، إحياء العلوم: ج ٤ ص ٣٢٨
- (٤) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤، كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ص ٦٦٥، وقيل أن هذا الحديث جواب على سؤال نبي الله داود عليه السلام (أو نبي الله موسى عليه السلام) كما جاء في أوصاف الأشراف: (ص ١٧١) لخصرة جمال الحق سبحانه: لماذا خلقت الخلق؟! فقال سبحانه - الحديث.
- (٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٧٩
- (٦) الترجمة:
- عرفت من تعلقك وحبك لمرائيك
أنك أشد حبالذاتك من حبالنا إليك
- (٧) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٩٢، الكافي: ج ٦ ص ٤٣٨
- (٨) سورة المائدة: آية ٥٤
- (٩) سورة الأنبياء: آية ١٠١
- (١٠) الترجمة:
- طائفة خُلِقَتْ (فُطِرَتْ) للمكافأة والجزاء
وطائفة أخرى اختيرت للقاء
- (١١) سورة آل عمران: آية ٣١
- (١٢) سورة الأنعام: آية ٥٠، سورة يونس: آية ١٥، سورة الأحقاف: آية ٩
- (١٣) سورة الأنعام: آية ٩٠
- (١٤) مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣
- (١٥) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٩
- (١٦) في المنزل (٢٥) - فناء المحب
- (١٧) الترجمة:
- ما لم تكن من جانب المعشوق جذبة
فلن يصل سعي العاشق المسكين إلى غاية
- (١٨) فآتم حالات النفس الشهوانية أن تتمتع أبداً بلذاتها من الأكل والجماع، وآتم حالات النفس الغضبية أن

تكون رئيسة وغالبة على غيرها عاشقة للقهر والانتقام، وأتم حالات النفس الشيطانية أن تكون ماكرة حيالة كاذبة تلبس الحق بالباطل، ومن أتم حالات النفس الملكية أن تعرف الحقائق وترغب في الخلوة مع الله ومناجاته فتكون عاشقة للمعارف الإلهية مسرورة بذكر الله متشوقة إلى جوار الله ولقائه - مقتبس من

الأسفار الأربعة مجلد ٧ ص ١٨٥

(١٩) العشق مأخوذ من العشقة اللبلاية التي تلتف على شجرة العنب وأمثالها.

(٢٠) سورة البقرة: آية ١٦٥

(٢١) سورة يوسف: آية ٣٠

(٢٢) قَسَمَ بعض العرفاء صفة الحب إلى أربعة أحوال لكل حال اسم تُعرَف به وهي: الهوى والودّ والحب

والعشق، فأول سقوطه في القلب وحصوله يسمى هوى وأسبابه كثيرة كالنظر والخبر والإحسان وغيرها، ثم الودّ وهو ثباته، ثم الحب وهو صفاؤه عن كدورات العوارض وخلاصه من إرادته فهو مع إرادة محبوبه، ثم العشق وهو التفاهة بالقلب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه، وقَسَمَ بعض العرفاء المحبة من حيث المقامات إلى ثلاثة: الصدق، الشُّكر، الفناء

(٢٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٥٦

(٢٤) هذا وقد أشار الحكيم الشيرازي (قده) أن العشق النفساني يجعل نفس العاشق لينة شيقة ذات وجد وحزن

ورقة قلب كأنها تطلب شيئاً باطنياً مختلفياً عن الحواس فتنتقطع عن الشواغل الدنيوية جاعلة جميع المهوم هماً واحداً، فلاجل ذلك يكون الإقبال على المعشوق الحقيقي أسهل على صاحبه وأقرب إليه فلا يحتاج إلى الانقطاع عن أشياء كثيرة، ثم يقول (قده): ولا يخفى في هذا المقام أن هذا العشق وإن كان معدوداً من الفضائل إلا أنه لا يكون محموداً وشريفاً على الإطلاق في كل وقت وعلى كل حال ومن كل أحد من الناس، بل ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني لترقيق النفس وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية، وأما عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلاً بالفعل محيطاً بالعلوم الكلية لا ينبغي لها الاشتغال بعشق السائل البشرية اللطيفة، ولهذا قيل «المَجَازُ قَنْطَرَةُ الْحَقِيقَةِ» وبعد عبور القنطرة يكون الرجوع إلى المجاز أمراً قبيحاً ويُعدُّ من الرذائل بعدما كان من الفضائل الأسفار الأربعة: مجلد ٧ ص

١٧٤

ويستند العارف السيد صدر الدين الكاشف الدزفولي (قده) في مقام العشق العفيف إلى رواية نقلها الشيخ الصدوق في علل الشرائع في باب العشق الباطل ص ١٤٠، وهي: أن مفضل بن عمر روى عن مولانا الصادق عليه السلام وقد سأله عن عشق الباطل فقال عليه السلام: «قُلُوبٌ خَلَّتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ حُبَّ غَيْرِهِ»، ثم يقول السيد صدر الدين: وإن كان ظاهر الحديث يذم العشق الباطل أو العشق المجازي عفيفاً كان أو غير عفيف - ولكن قد يكون المعنى وحقيقة الأمر مدحاً لا ذمّاً بشرط العفة، وأن لا يكون على أساس الشهوة الحيوانية، لأن أصحاب الطريقة وأرباب القلوب يعتقدون أن العشق العفيف يُعِين القوة الشوقية والقوى الروحانية للتوجه إلى المحبوب الحقيقي بسبب تطهير وتلطيف السر والباطن من الأفكار الزائفة والخيالات

الكاسدة وجعل المهوم كلها همًّا واحداً، ولا تبقى من الحجب الظلمانية سوى حجاب المعشوق المجازي، فيكون كل خياله وفكره ونظره متوجهاً إليه، مما يسهل على صاحبه التخلي عنه والتوجه إلى الحق بإمدادات الفيوضات الربانية والتوفيقات السبحانية وبالرياضة والمجاهدة، إلا إذا لم يكن مقترنا بالعفة أو أن يصل بصاحبه إلى مرحلة الفناء في المعشوق المجازي إلى حد نسيان المحبوب الحقيقي بالكلية. لذا فمؤدَّى معنى كلام مولانا رحمته الله - والله ورسوله وأوصيائه أعلم - هو مدح العشق العفيف، وإن كان باطلاً في مقابل عشق المعشوق الحقيقي، فبعض القلوب خلَّت عن ذكر الله ولم تتوجه بالشوق والمحبة إلى الله لأنها لم تجد حقيقة معنى المحبة والشوق ولم تُدقِّ حلاوة لذتها في حق المعشوق الحقيقي، ثم يقول: وليس المراد من «ذَكَرَ اللهُ» الذكر اللساني ولا الذكر القلبي الخالي عن المحبة والشوق، فإذا كان المراد الذكر اللساني لقال الإمام رحمته الله: ألسنة خلَّت عن ذكر الله!! وإذا كان المراد الذكر القلبي لكان ذلك يتطلب المحبة والشوق ومن دونها أمر ممتنع!! والحقيقة هي أن حضرة الجمال والكمال المطلق مشتاق إلى جذب قلوب عباده إلى حسنه وجماله وحبهم له من غير حاجة إليهم وهو الغني الذات عن العالمين حتى يعشقوه ويصلوا إلى كمال اللذة وعظيم الابتهاج به، وفي حديث المعصوم عليه السلام دلالة صريحة لهذا الأدعاء، ومثل ذلك - بلا تشبيه - كمثل الوالد المشفق على ولده حينما يراه مائلاً إلى غيره ملتفتاً إلى سواه ولجذبه إلى نفسه يقدِّم له شيئاً حسناً يعلم أنه يجبه وبسببه يتوجه إليه، لذا فعلة «فَأَذَاقَهَا اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ» هي اللطف والرحمة لا القهر والإبعاد.

(٢٥) سورة هود: آية ١٢٣

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦

(٢٧) رياض السالكين: ج ٢ ص ٢٥٤

(٢٨) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ٣٦، وقال العلامة المجلسي (قده) في تفسير الحديث: قَطَّعُوا مَحَبَّتَهُمْ أَي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ عَمَّا لَا يُرْضِي اللهُ، بِمَحَبَّةٍ رَهَّبَهُمْ أَي بِسَبَبِهَا أَوْ جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ تَابِعَةً لِمَحَبَّةِ اللهِ وَلَا يَجِبُونَ شَيْئاً إِلَّا لِحُبِّ اللهِ لَهُ، وَنَظَرُوا إِلَى اللهِ وَإِلَى مَحَبَّتِهِ بِقُلُوبِهِمْ أَي لَمْ يَنْظُرُوا وَعَيْنَ قُلُوبِهِمْ إِلَّا إِلَى اللهِ أَي رِضَاهُ أَوْ مَعْرِفَتُهُ وَمَرَاqَبَتُهُ وَذَكَرَهُ وَعَدَمَ الْاَلْتِمَاتِ إِلَى غَيْرِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ أَي اللهُ وَمَحَبَّتَهُ هُوَ الْمُنْتَظَرُ إِلَيْهِ أَي هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ لَا غَيْرَهُ لِعِظَمَةِ شَأْنِهِ وَحِقَارَةِ مَا سِوَاهُ.

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٣

(٣٠) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٢٩، ج ٧٠ ص ١٤، أمالي الشيخ الصدوق: ط ١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص ٣١٨

(٣١) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦

(٣٢) الترجمة:

متى تدخل في صفوف الأحرار!!

ومتى ترى هذه القيامة عياناً!!

(٣٣) سورة الكهف: آية ١٠٥

(٣٤) سورة الزخرف: آية ٦٧

- (٣٥) ذكرنا نبذة عن سيرته الشريفة في المنزل (٢) - الإخلاص عند المحب - فراجع
- (٣٦) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥١
- (٣٧) بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ١٢٢
- (٣٨) تفسير العياشي: مجلد ١ ص ١٦٨ ط طهران ومنه بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٩٥ في تفسير الآية ٣١ من سورة آل عمران
- (٣٩) عيون أخبار الرضاؑ: ج ٢ ص ١٢٩، والآية ٨ من سورة التكاثر
- (٤٠) سورة آل عمران: آية ٣١
- (٤١) من مناجاة المحبين لمولانا زين العابدينؑ

المنزل (٦٤)

دَرَجَاتُ الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ

كما ذكرنا في المنزل السابق أن كل حب سوى حب الله تبارك وتعالى أو حب ما يُنسب إليه من نبي أو ولي أخلصه الله تعالى واجتباؤه لنفسه مجازي ومحكوم عليه بالأفول والعدم المحض، لأن المحبوب في هذه الحالة - وهو محور الحب المجازي - هالك لا محالة، فهو القائل سبحانه: ﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾^(١)!!

والانجذاب إلى الجمال فطري والتوجه إلى الكمال جِبِّيٌّ في ذوات ذرات عالم الوجود، ومع ذلك تتفاوت درجات الحب حسب اتجاه السير وقوته إلى الكمال، ولما كان الحب هو «میلُ النفس إلى الشيء لكمالٍ أو جمالٍ أذركته فيه بحيث يَحْمِلُها على ما يقربُها إليه»^(٢)، فعلى هذا الأساس قسّم العرفاء درجات الحب إلى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال الأخلاق، فينجذبون إلى كل من اجتمعت فيه مكارم الأخلاق ومحامدها كالأدب والصدق والوفاء والأمانة وغيرها فيتعشقونه ويأنسون بلقائه ويميلون إلى مصاحبته ويتقربون إليه ويتخلقون بأخلاقه.

الدرجة الثانية

لأولئك الذين يرون الجمال وكل الجمال في كمال العقل، وأن كل جميل في عالم الوجود منشأه العقل، وهم الفلاسفة الذين يبنون نظرياتهم وآراءهم حسب قانون العلة والمعلول، فيعيشون في جذبة هذا

الجمال، ولولا نور الإيمان والسلوك في معارج العرفان الإلهي لكانت الغالبية العظمى من الناس مؤيدة لهذه الفرقة وداخلة في مسلكتهم وجذبتهم، ولرأت أن كل ما يؤيده العقل ويجد له سببا وعللة ويعترف به من صنعة واختراع جميل ولا أجمل منه.

الدرجة الثالثة

لأرباب الحقائق والعرفان وأهل الكشف والشهود الذين أنعم الله تعالى عليهم بقوة تفوق قوة العقل، فهم مستغرقون في شهود نور الجمال الحقيقي ومجذوبون إلى شعاع الكمال الأزلي ويرون أن كل جمال دون الجمال المطلق زائل وبائس وأن نور جماله فوق كل نور ومنور كل نور وليس كتوره نور، ويرون أن جمال وجه الحق الباقي في كل شيء قد تجلّى في قلوب محبيه فيكونون له عاشقين وفي حبه فانيين وبشهوده متنعمين مسرورين.

وأما علامة أصحاب الدرجة الثالثة من الحب هو أدهم وخضوعهم وخشوعهم في محضر المحبوب، لأنهم يعلمون أن ناصيتهم ونواصي الخلق كله بيده سبحانه وهو معهم أينما كانوا، فيتحركون به ويسكنون به ويعبدونه عن رؤية ومشاهدة وحضور تام.

وبعد بيان درجات الحب وأصناف المحبين نقول أن المجذوب نحو الجمال في كمال الأخلاق يريد الوصف الثبوتي دون الإثبات والتحقق، ويطلب التخلق بخلق الآخرين، في حين أن العارف المجذوب نحو الجمال الإلهي منعوت بالأسماء الإلهية تخلّقاً وتحققاً، فيكون متخلّقا بأخلاق الله ومرآة للحق ومجلى للمظاهر الإلهية والنعوت المقدسة^(٣).

وأما المشتغل بعلم الأسباب والمتعلق بالمنهج العقلي في التحليل والتركيب والبحث في العلل والمعلولات والتوقف عندها والركون إليها حينما يصل إلى نتيجة ينجذب إلى جمال العقل ويتشدد بكماله وهو غافل عن العلم بالله الذي هو رب الأرباب وموجد الأسباب، فيكون تعلّقه بها توصل إليه عقله ونفسي ما نفاه عقله صدأ على قلبه ومانعاً من تجلّي جمال الحق فيه - وهو المتجلّي بجماله وكماله لعباده في كل حين - وفي عمى عما دعاه الله تعالى إليه وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤) أي ليعرفون، فأين هو من العلم الإلهي والمعرفة الربانية التي تتجلى في قلب العارف الكامل فيدرك الحقائق الإلهية بعين القلب ويشاهد جمال الحق وحسنه وبهاءه!!

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَحْتَجِبُ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا أَحْتَجِبُ عَنِ الْأَبْصَارِ»^(٥)!!

ولا نعني بقولنا هذا أن العرفان لا يؤيد البحث والاستدلال، فإن كلا من القوة العاقلة - وهي

محور الأصول العقلية والعلوم الفلسفية - والقلب - وهو محور العلوم الإلهية والعرفانية - سبيل للإدراك والفهم حسب القابلية في كل إنسان^(٦)، ولكن نقول أن القلب أخص من العقل وأن العرفان يرى أن العقل قاصر في إدراك حقائق الألوهية وأسرارها وغير كافٍ للاتكاء عليه في السير والوصول إلى المقصود، ولهذا كان العرفان علماً جامعاً يجمع بين العلم الكشفي والعلم العقلي والفكري، وبالتالي فهو أعمق رؤيةً وأوسع فضاءً من الفلسفة.

فأصحاب القلوب يرون الله في كل مشهد ومجلى ﴿... فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾^(٧) ووجه الشيء حقيقته، ولكن العقل لا يدرك هذا المعنى ولا يحتويه، فتقصر عن إدراكه أفهام العقلاء، وأنسى يكون لهم ذلك وهم يريدون بالدليل العقلي والنتائج الفكرية أن يتصوروا من يستحيل عليه الصورة والتصور، فترجع عقولهم أمام جمال الحق قاصرة حاسرة خائبة!!

ثم إن العقل يتبع لسان الظاهر وليس له القدرة على إدراك الحقائق اللامتناهية والمعاني اللامحدودة المجردة عن المادة، وبحسب قوته الفكرية والنظرية لا يدرك سوى المفهومات الذهنية ولوازم الهويات الوجودية دون الحقائق الخارجية، لأنه من عالم التقييد، وهو في حد ذاته ضيق في غاية الضيق، ومحدود بمحدودية الماديات والمحسوسات، وعاجز عن تجريد المعاني عن المواد، ولهذا سمي عقلاً من العقال، بخلاف القلب الذي يتقوّم عليه العرفان ويتبع لسان الباطن فيسع الحق تبارك وتعالى اللامتناهي كما في قوله تعالى في حديث قدسي: «يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(٨) فالقلب يسع الحق حين ضاق عنه العقل فلم يسعه ولم يدركه!!

من ناحية أخرى فإن العقل يحجب الحقائق والمعاني تحت ستار الكلمات والألفاظ التي يعتني بها - أي الكلمات والألفاظ - كثيراً في حين أنه يغفل عن الحقائق والمعاني ذاتها، بينما ينظر قلب العارف - ولا كل قلب - إلى تلك الحقائق والمعاني بذاتها، وقد لا يجد في خزنة الألفاظ ما يستخرجه لبيانها فيعبر عنها تارة ويمسك أخرى!!

يقول الحكيم الإلهي والعارف الرباني صدر المتألهين الشيرازي (قده): «وإِنِّي لِأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَثِيرًا مِمَّا ضَيَّعْتُ شَطْرًا مِنْ عُمْرِي فِي تَتَبُعِ آرَاءِ الْمُتَلَسِّفَةِ وَالْمُجَادِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَتَدَقِيقَاتِهِمْ وَتَعَلُّمِ جَرَبَزَتِهِمْ فِي الْقَوْلِ وَتَفَنُّنِهِمْ فِي الْبَحْثِ حَتَّى تَبَيَّنَ لِي آخِرَ الْأَمْرِ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَتَأْيِيدِ اللَّهِ الْمَنَانِ أَنَّ قِيَاسَهُمْ عَقِيمٌ وَصِرَاطُهُمْ غَيْرٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَلْقَيْنَا زَمَامَ أَمْرِنَا إِلَيْهِ وَإِلَى رَسُولِهِ النَّذِيرِ الْمُنذِرِ فَكُلُّ مَا بَلَّغْنَا مِنْهُ آمَنَّا بِهِ وَصَدَّقْنَاهُ وَلَمْ نَحْتَلْ أَنْ نُخَيَّلَ لَهُ وَجْهًا عَقْلِيًّا وَمَسْلُكًا بَحْثِيًّا بَلْ اقْتَدَيْنَا بِهُدَاهُ وَانْتَهَيْنَا بِنَهْيِهِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَي قَلْبِنَا مَا فَتَحَ فَأَفْلَحَ بِبَرَكَتِهِ مُتَابِعَتِهِ وَأَنْجَحَ»^(٩)!!

والمتمسك بقاعدة العلة والمعلول المعتمد على كل ما أحالت إليه أدلة العقول غافل عما وهب الله تعالى بعض عبادته من قوة تفوق في فضلها وشرافها عن قوة العقل وتتسع دائرتها وإحاطتها عن دائرة العقل، فتعطي حكماً قد توافقت قوة العقل في بعض الأمور وقد تعطي خلاف ما تعطيه، فلا يمكن للعقل إدراكه ويستعصي عليه فهمه فضلاً عن الاعتقاد به.

والدليل العقلي قد ينفيه دليل عقلي آخر، وقد يكونان متكافئان في القوة والإفناع فيصعب الترجيح، وقد يصيب العقل ويخطئ، بينما شهود الحق لا يكون إلا عن يقين، فمن تحبب إلى الله تعالى بالأنوال بعد كمال الفرائض وكان عند الله تعالى محبوباً وكان الله سمعه وبصره ويده وجميع قواه ولا يتصرف إلا بالحق في الحق للحق لا يخطئ سمعه ولا يرتاب بصره ولا تقدر عقله حيرة ولا شبهة، وكلما تجرد الإنسان عن الخلق الحسية الدانية والحجب المادية الفانية وكبس لباس البقاء وعرج بروحه معارج الارتقاء كان إلى نور الحق أقرب وإلى الجمال السرمد أحب وأعشق.

وعلاوة على ذلك كله فإن حب الجمال نعت إلهي كما ورد في حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(١٠)، وجمال الصنعة يعود إلى جمال صانعه، والعقل من مصنوعات الله تبارك وتعالى، فمن أحب العقل أو أي مصنوع أو مخلوق في العالم من هذا المنظار دون استقلال وحسب قاعدة «الحب تابع للحسن» فقد أحبه بالمحبة الإلهية، ويمكن أن نقول أنه في واقع الأمر قد أحب جمال الله تبارك وتعالى، وأما من استقل بحب العقل وحب جماله وكماله دون حب الله تعالى وحب جماله وكماله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً!!

وكل محب - في أي درجة من درجات الحب التي ذكرناها - يدعى الحب ويزهو به، ولكن صدق الحب يتبين من ردود فعل صاحبه، والبلاء لا يكون إلا مع الدعوى، والدعوى لا تصدق إلا بالشواهد وإقامة الدليل، وهنا محل الامتحان هل المحب حينما يتطلب حبه الفداء والتضحية وقبول المصاعب والمشاكل في سبيل المحبوب صادق في حبه أم لا!!

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان له تعبير خاص في هذا الباب في المحبتين الأوليتين حيث كان يقول (بالفارسية): «اينجاست كه مشتها باز ميشه، ودستها خالی، وهمه رسوا ميشوند»، أي هنا كلُّ يفتح قبضته وإذا بالأيدي خالية ويفتضح المدعون للمحبة في دعواهم!!

وأما ردود الأفعال فهي كالتالي:

رد فعل المجذوبين إلى جمال الأخلاق:

وهؤلاء يعيشون في جذبة المحبوب ولا يتحملون فراقه ولكن ليسوا بمستعدين لقبول المتاعب

والصعاب والتضحية والفداء في سبيل المحبوب، ومقولتهم: «أحبُّ الصالحين ولستُ منهم»!!

رد فعل المجذوبين إلى جمال العقل:

وهم الفلاسفة الذين يعيشون في جذبة عشق كمال العقل، وهؤلاء مستعدون لقبول المتاعب والصعاب في سبيل محبوبهم ما لم يتعارض مع مصالحهم الدنيوية، لأنهم يطلبون من وراء محبتهم جلب المنفعة ودفع المضرة والظفر بأسباب السعادة من حيث ما شخصته لهم عقولهم التي قصرت فهمها في حب ما خلقه الحق وجهلت حب الحق، فإذا ما شعروا أن ثَمَّ منافاة بين قبول الصعاب مع المصالح الكلية يتعدون عن محبوبهم بسهولة ويستغنون عنه بيسر.

رد فعل المجذوبين إلى الجمال المطلق:

وهم أهل الله المخلصون في محبة الله المتنعمون بشهود جمال الحق المتنورة قلوبهم بتجليات محاسنه، وكما قيل أن «مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ آثَارَهُ»، والسالك إلى الله في مقام المحبة يتلذذ بطاعة مولاه وخدمة محبوه ويتحمل أعباءها ومشاقها ابتغاء وجهه، ويشعر بالراحة والسعادة لما وفقه الله تعالى إلى خدمته والعمل من أجله، ويرى أن كل ما يملك في هذه الدنيا أمانة عنده ولا بد أن يردها إلى صاحبها، ف«العَبْدُ وَمَا فِي يَدِهِ لِمَوْلَاهُ»، وليس له مُلك أقرب إليه وأعز عليه من نفسه، مع ذلك فهو على استعداد أن يقدمها قربانا في سبيل محبوه.

يقول العارف الحقاني بابا طاهر الهمداني رحمته الله في كلماته: «المحبةُ أوَّلُها اختيارٌ وأوسطُها افتقارٌ وآخرُها اختيارٌ».

وفي شرحها يقول عين القضاة الهمداني: «مَنْ يَدْعِي مَحَبَّةَ الْحَقِّ يَخْتَبِرُهُ الْمَحْبُوبُ أَوَّلًا بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا رَجَعَ رَدًّا عَلَى أَطْوَائِهِ وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا يَخْلُصُ لِمَنْ أَبْرَزَ حَالَهُ لَسَبِكِ الْامْتِحَانِ عَنْ عُشُوشِ الْعِلَلِ، فَيُعْرِضُ عَنْ غَيْرِهِ مُقْبِلًا بِالْكَلِيَّةِ عَلَيْهِ وَيَفْتَقِرُ بِالْحَقِيقَةِ إِلَيْهِ، وَظَهُورُ هَذَا الْاِفْتِقَارِ فِي وَسَطِ الْمَحَبَّةِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ مِنْ الْمُصْطَفِينَ بَلَّغَهُ اللهُ تَعَالَى نَهَايَةَ الْمَحَبَّةِ وَخَلَعَ عَنْهُ لِبَاسَ وَجُودِهِ وَاخْتَارَهُ لِمُنَادِمَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ».

ويقول العارف الكامل الشيخ عبدالرزاق الكاشاني رحمته الله في شرح منازل السائرين: «فمقام المحبة آخرُ منازلِ العوامِّ الذي إذا نزلوه خرجوا من رتبة العوامِّ ودخلوا في زمرة الخواصِّ فيكون أولَّ مقام من مقام الخواصِّ»^(١١)!!

ثم يقول الشيخ رحمته الله: «المحبةُ تقتضي الوصالَ والأنسَ بالجمالِ، والوصالُ لا يُمكنُ إلاَّ ببذلِ الروحِ، والأنسُ يَمْنَعُ مِنَ التَّفَاتِ الْقَلْبِ إِلَى مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ»^(١٢).

ولما كان السالك إلى الله يعيش في محبة الله ويمنع قلبه من التعلق بما سوى الله فهو يؤثر الفناء في الله عما ينسب إليه من فعل أو صفة أو ذات ويقدم روحه رخيصة في سبيله، وبذلك يكون قد وصل إلى أعظم اللذات وأبهجها.

ونعم ما قيل في هذا المقام:

فَالرُّوحُ أَوَّلُ نَقْدَةٍ تَأْتِي بِهَا
فِي وَضَلِنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ خُطَّابِنَا

ويقول مولانا جلال الدين الرومي بالنظم الفارسي:

عشق از اول سرکش و خونی بود

تا گریزد هرکه بیرونی بود^(١٣)

ويقول أهل محبة الله: «لا خَيْرَ فِي حُبِّ يُدَبَّرُ بِالْعَقْلِ»، فالحب لا يجتمع مع العقل في محل واحد لأنه وراء طور مدارك العقل وحكمه يناقض حكم العقل، والمحِب لا يعمل فعل المحبوب لأن التعليل من فعل العقل كما في قوله تعالى ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ...﴾^(١٤)، وكل حب يُبقي في المحب عقلا يعقل به عن غير محبوه أو تعقلا فليس بحب خالص.

عاقلان نقطه پَرگار وجودند ولی

عشق داند که در این دایره سرگردانند^(١٥)

فلولا نور محبة الله لا يكون للعقل في كشف كنوز الحقائق من نصيب ولا إلى المقصد الحق من سبيل، ﴿... فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ...﴾^(١٦)!!

إذا ما تجلّى لي فكُلّي نواظِرُ

وإن هو ناجاني فكُلّي مَسَامِعُ

أيها السالك إلى الله، حَكِّم قلبك وانظر بعينه ﴿... أَفِي اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾، وهل ترى جمالا يفوق جمال الخالق البارئ المصور وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد!!

إلهي وسيدي ومولاي!!

«أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ»

«عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيْبًا وَخَسِرَتْ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ
 نَصِيْبًا، إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَأَزْجِعُنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ
 الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونِ السَّرِّ عَنِ النَّظْرِ
 إِلَيْهَا وَمَرْفُوعِ الْهَمَّةِ عَنِ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!!»

الهوامش

- (١) سورة القصص: آية ٨٨
- (٢) تفسير الصافي: مجلد ١ ص ٣٠٣
- (٣) يقول الحكيم الإلهي السبزواري (قده): الإنسان بعضه طالب التخلق بخلق بعض آخر، حتى ينتهي إلى التخلق بأخلاق الله تعالى، مثلاً يتحرك الإنسان ليكون عالماً أديباً وإذا كان يسعى أن يصير فقيهاً وإذا صار يشتاقي إلى أن يغدو متكلماً وإذا غدا يجهد أن يكون حكيماً إلهياً يعني عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني وإذا بلغ إلى هذا المقام الذي هو عزيز المنال يبتغي أن يكون مثلاً عارفاً ربانياً متصرفاً في الرياستين فائزاً بالحسنيين متخلقاً بأخلاق الله جل جلاله عالماً وعملاً - الأسفار الأربعة مجلد ٦ ص ٤٣ التعليق.
- (٤) سورة الذاريات: آية ٥٦
- (٥) علم اليقين (للفيض الكاشاني): ج ١ ص ٣٩
- (٦) إن العقل والقلب عاملان مهمان للإدراك في الإنسان، ولا يمكن للإنسان أن يستغني عن أحدهما، فالعقل لإدراك الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار وللحد من الميول النفسانية والرغبات الوهمية، والقلب لإدراك الحقائق بنحو الشهود الموجب للإيمان والتوحيد ومعرفة الله تعالى والاتصال بعوالم الملكوت والجبروت واللاهوت والارتباط بذات الحق جل شأنه، ولكل منهما ميزان خاص في كتاب الله تعالى والأحاديث الشريفة، ففي شأن العقل قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ - سورة العنكبوت آية ٤٣، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - سورة البقرة آية ٢٤٢، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ - سورة المؤمنون آية ٨، وقال رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل» - محاسن البرقي: باب العقل ص ١٩٣ ح ١١، وقال أمير المؤمنين ﷺ: «لا عُدَّةَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَقْلِ وَلَا عَدُوٌّ أَضَرُّ مِنَ الْجَهْلِ» - بحار الأنوار: ج ١ ص ٩٥، وفي شأن القلب قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ - سورة الحج: آية ٤٦، وقال النبي ﷺ: «فِي الْقَلْبِ نَوْرٌ لَا يُضِيءُ إِلَّا مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَقَصْدِ السَّبِيلِ وَهُوَ نَوْرٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْأَنْبِيَاءِ مُودَعٌ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» - بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٥، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» - مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٢٦٤، وغيرها من الآيات والروايات.
- (٧) سورة البقرة: آية ١١٥
- (٨) غوالي اللآلي: ج ٤ ص ٨، بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٣٩، المحجة البيضاء ج ٥ ص ٢٦
- (٩) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١١
- (١٠) بحار الأنوار: ج ٧٣ ص ١٩٢، الكافي: ج ٦ ص ٤٣٨

(١١) شرح منازل السائرين: ص ٢١٦

(١٢) شرح منازل السائرين: ص ٢١٥

(١٣) الترجمة:

إن الدخول في طريق العشق لا يكون إلا بالدم

ليفتر الأغيار وأهل الخيالات والآثار الذين هم ليسوا أهلاً للعشق

(١٤) سورة الأنبياء: آية ٢٣

(١٥) الترجمة:

العقلاء هم نقطة المركز لفرجار عالم الوجود

ولكن العشق يعلم أنهم في هذه الدائرة متحIRON

(١٦) سورة يونس: آية ٣٢

المنزل (٦٥)

فَنَاءُ الْمَحَبِّ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ أَوْلِيَّةِ الْأَوَّلِينَ وَالْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الْعَالَمِينَ!!»
اعلم أيها السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ أَنَّ الْفَنَاءَ مَرْتَبَةٌ عَلِيَّةٌ شَاخِحَةٌ مَعْقُودَةٌ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَعَ تَعَدُّدِ مَرَاتِبِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَتَفَاوُتِ دَرَجَاتِ صِفَاتِهَا وَكِمَالِهَا كَانَ التَّكْثُرُ فِي مَرَاتِبِ الْفَنَاءِ.
ووجود العالم عَرَضِي، أي أنه قائم بغيره لا بذاته ومفتقر إلى من يتقوَّم به ذاته، وكما قيل أن: «ما بِالْعَرَضِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى مَا بِالذَّاتِ»، والذات الأزلية المتعالية هي ذات الله الأول الذي ليس لأوَّليته ابتداء، والآخر الذي ليس لأبديته انتهاء، ولكل موجود غاية ينتهي إليها، وهذه الغاية غاية، إلى أن تنتهي كل الغايات إلى الوجود الحق الذي لا غاية له، لذا كانت المخلوقات في حركة جِبِلِّيَّةٍ وتوجه غريزي في طلب الوجود الصُّرْفِ الذي لا يشوبه عدم، والتقرب إلى الخير المحض الذي ليس فيه شرٌّ.

وكما أن آخر الدائرة المرسومة تنتهي إلى أولها فإن كل مخلوق دائرة كاملة تنعطف فاتحته على خاتمته وعوده إلى حيث كان بدوُّه كما نطق بذلك القرآن المجيد: ﴿اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)، فمآل كل الموجودات هو الرجوع إلى غاية الفيض والجلود طبعاً وإرادةً، والحب الكامن والعشق الدائم في الخلق تجاه أصل الوجود هو علة شوق الممكنات إلى واجب الوجود لذاته ورجوع المقيدات إلى الواحد المطلق والمبدأ الفيض المقوَّم له، فكما أنه هو مبدأ كل شيء فهو مرجع كل شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿..... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ.....﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿..... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(٤) وما جاء في غيرها من الآيات بخصوص هذا المطلب.

والفناء في المفهوم اللغوي يعني تغير الصفات وزوالها، وأما عند أهل الله فإن للفناء معانٍ كثيرة،

ويمكن القول بتعريف عام بسيط أن الفناء هو الاتصال بالحق جلّ وعلا والتقرب إليه بعد الافتراق عن كل ما سوى الله والابتعاد عنه^(٥)، وقيل أن الفناء هو عدم شعور الشخص بنفسه ولا بشيء من لوازمها^(٦)، بمعنى أن السالك إلى الله يعلم أن الله تعالى يدير كل إدراكاته وحر كاته وأفعاله ويحيط بها ويظهر بها.

والفناء حال بقي الفاني من أن يؤثر فيه ما فنّى عنه، ولتقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نرى أن نأتي بأمثلة في الفناء المجازي لأنه كما قيل «المَجَازُ قَنْطَرَةُ الْحَقِيقَةِ»:

قال كُثَيِّرٌ أن ألد ما مرَّ عليّ في حب عَزَّةَ أنه كان معه ركب يريدون الحج وقد اتفق أن في ذلك الركب عَزَّةَ مع زوجها، وكان كُثَيِّرٌ لا يعلم بهما، فبينما هو ذات يوم في الطريق يبري وإذا عَزَّةُ واقفة على رأسه، فطار لبّه لما نظر إليها، وصار يبري أصابعه بالشفرة والدم يسيل من يده وهو لا يحس به^(٧)!!

وحكى الشيخ البهائي طاب ثراه أن رجلا يهوديا كان عنده جارية وكان مفرطا في حبها ومتعشقا لها، فمرضت يوما واحتاجت إلى طبخ طعام لمكان المرض، فوضع القدر، فلما قرب اشتواء الطعام احتاج إلى سوطه (تحريكه)، فأخذ المعرفة وشرع يسوطه، فكان هو يسوط الطعام والجارية تن، فلما سمع أنينها اشتغل قلبه بها، فوقعت المعرفة من يده، وصار يسوط القدر بيده ولم يحس به حتى تساقط لحم يده، فلما سكنت من الأنين ورجع إليه عقله رأى أنه كان يسوط القدر بيده^(٨)!!

ثم انظر إلى الفراشة التي تحوم حول الشمع وتتقرب إليه شيئا فشيئا حتى تلقي بنفسها فيه وتحترق، ما كان غرضها من هذا العمل؟! هل كانت تريد أن تبقى لنفسها هوية أو إنية أو تضيف على تعيناتها شيئا؟! أو كانت تريد أن تصنع لذاتها كما لا صوريا؟! أم أنها كانت تقصد المحو والفناء في الشمع حتى تصير شمعا ونورا!!

وانظر إلى الأم التي حينما ترى ولدها يحترق في النار لا تجد طريقا سوى أن تفدي بروحها في سبيل إنقاذه، فتلقي بنفسها في النار بلا أدنى تفكير وتروّي، هل كانت تريد بذلك إثبات هويتها أو إنيتها؟! أم أنها كانت تريد المحو والفناء في سبيل بقاء ولدها!!

هذا حال الفناء في المخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق وهو (أي الفناء) - كما قال الحكيم السبزواري (قده) - قرّة عين العارفين!!

ونظير ما ذكرنا من مراتب الحب المجازي في مراتب الحب الحقيقي لله تعالى والفناء في الخالق عزّ وجلّ ما ورد في أحوال مولانا سيد العاشقين أمير المؤمنين عليّ^{عليه السلام}، فقد روي أنه حينما وقع نصل في قدمه لم يتمكن أصحابه من إخراجة إلا في حين صلاته، لأنهم يعلمون أنه^{عليه السلام} في تلك الحالة يكون

فانيا في الله عن الخلق، ومجدوبا بكل كيانه ووجوده إلى الحق المتعال، وفي أعلى مراتب القرب منه، فلا يؤثر عليه ألم الجراح.

وقد قَسَمَ العرفاء الفناء إلى ثلاث مراتب:

المحوى: وهو فناء أفعال العبد في أفعال الحق بقيام الحق على ذلك.

الطمس: وهو فناء صفات العبد في صفات الحق.

المحقق: وهو فناء وجود العبد في وجود الحق وهو مقام أهل الوحدة وأهل الفناء في

التوحيد^(٩).

وأما تفصيل ذلك:

يقول العرفاء أنه «لا مُؤَثَّرَ في الوجودِ إِلَّا اللهُ» ولا فاعل في الوجود إلا الله ولا فعل إلا الله فهو القائل سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾^(١٠)، فالفاعلية الاستقلالية وإفاضة الوجود مختصة بالحق سبحانه، وإن الأفعال كلها بما فيها الأفعال الاختيارية لا تكون إلا بإذنه ومشيتته وتقديره، والسالك الفاني في الحق عارف بحقيقة «لا حول ولا قوة له إلا بالله»، وأن وجوده وكل ما يتبعه من قوة وفعل وإدراك قائم الذات بالذي فطره ومملوك لمن أوجده ومفتقر إلى من برأه، وأن الذات الإلهية المتعالية هو الغني عن العالمين والقاهر فوق عباده والقيوم المطلق القائم على كل شيء والمدبّر لكل شيء ومنه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي كل شيء، فيترك ما في أيدي الخلق ويؤثر جناب الحق ويرجو ما عنده، حتى يكون الحق كل قواه، ويفنى فعله في فعل الله وإرادته في إرادة الله، ويكون الحق متصرفا فيه بالكلية كيف ما يشاء.

وعلى هذا كلما تقرب العبد إلى الحق تعالى بالحُب والمعرفة وخرج من قيد الأهواء وأسر المرادات وغُلَّ الشهوات وكدر الشبهات تصرّف الحق في نفسه وعقله وقلبه وجميع أعضائه وجوارحه كما هو يريد، وهذا ما يسمى بالفناء في الأفعال، أي فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك، من هنا كان قول مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عَرَفْتُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهَمَمِ»^(١١)، وقوله عليه السلام: «والله مَا قَلَعْتُ بَابَ خَيْبَرٍ بِقُوَّةِ جِسْمَانِيَّةٍ بَلْ بِقُوَّةِ رَبَّانِيَّةٍ»^(١٢)!! فالفناء في الله أن لا ينظر العبد السالك إلى الأسباب المعتادة والعلل الواسطة بل يرى إرادته قد اضمحلت في إرادة الله ولا قدرة له إلا بقدرة الله.

ثم إن العبد السالك إلى الله حينما يتّصف بطاعة ربه في نوافل الخيرات فإنه ينفي السماع بسمعه والتكلم بلسانه والنظر ببصره والبطش بيده والسعي برجله ويثبت أحكام صفات الحق كالسمع بالله والتكلم بالله والنظر بالله والبطش بالله والسعي بالله وتفنى جميع متعلقات إرادته في إرادة الله تبارك

وتعالى^(١٣)، وهذا ما يعرف بالفناء في الصفات، أي فناء الصفات البشرية وبقاء الصفات الإلهية، إذ أن لكل عبد جهتان جهة إلى الخلق وجهة إلى الحق، فكلما ارتفعت عنه صفة بشرية حلت محلها صفة ربوبية حتى تغلب عليه أحكام الوجود، ويظهر فيه باطن الربوبية التي هي كنه جوهر العبودية كما قال صادق آل محمد جعفر بن محمد عليه السلام: «العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهَهَا الرُّبُوبِيَّةُ»^(١٤)، ولا يكون ذلك إلا باندكاك إنيتته واضمحلال أثره واسمه ورسمه وحكمه وتعينه وهو نتيجة قرب النوافل.

وعلى هذا فحاصل قرب النوافل هو فناء صفات السالك المجذوب في صفات الحق وأفعاله في أفعال الحق واستهلاك علمه في علم الله وقدرته في قدرة الله حيث أن كل علم وقدرة في عالم الوجود لا توجد إلا بواسطة الفيض الإلهي، وأن مبدأ العلم والقدرة ومنشأهما هو الله تبارك وتعالى، وكذلك باقي الصفات والكمالات، فيكون الحق لسانه وسمعه وبصره ويده وكل حواسه وقواه من غير حصر ولا تشبيه، فالمتكلم والسميع والبصير هو العبد الفاني ولكن لا بنفسه بل بالحق، وبالتالي يكون عارفاً بحقيقة كلمة «لا إله إلا الله» حيث أن «الله» اسم جامع لجميع الأسماء الإلهية والصفات الكمالية.

وأما الفناء في الذات فهو مقام أهل الوحدة وأهل الفناء في التوحيد، وهذا النوع من الفناء يحصل بترك الالتفات إلى الذات والإقبال بكلية الذات إلى الحق حتى لا يبقى له جهة خلقية ويستتر وجوده الإمكاني في الوجود الحقاني السرمدي ويفنى عن نفسه في الحق ويبقى به، فلا يرى نفسه ويكون في الدنيا بهيكله وصورته وعند الله بحقيقته ومعناه، ويدخل في زمرة الأولياء الموحدين لله الذين جاء في حقهم قول ربهم جلّ وعلا في حديث قدسي: «أُولِيَّائِي تَحْتَ قِبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»^(١٥)!!

تا نگردي بیغش وپاک از وجود

ره کجا یابی به خلاق ودود^(١٦)

وقالت العالمة الجليلة بانو إصفهاني (قده) في معنى الفناء:

«المقصود من فناء العبد عن نفسه وبقائه بربه ليس فناء وجوده رأساً بل المقصود أن العارف إذا صار مُسْتغْرِقاً في الله تعالى يصيرُ غافلاً عن جهاتِ بشريّته وأنانيّته لا ذاته ووجوده رأساً فيكون سيره في الله ومع الله، فكلُّ شيءٍ اسْتَنَدَ إلى نفسه قَبْلَ ذلك من الأوصافِ والكمالاتِ يستندُ حينئذٍ إلى الله لعدم بقاء أنانيّته عنده أبداً فهو لا يزالُ في بهجةٍ وسرورٍ لانتفاء ما يُنافي نفسه من الأمور الملائمة لها وذلك

لأنَّه لا يريدُ إلاَّ ما أرادَ اللهُ تعالى ليُكَانِ اسْتِهْلَاكُ أَنَانِيَّتِهِ فيصيرُ همُّهُ همًّا واحدًا فلا يَلْتَفِتُ إلى غيرِه تعالى حتَّى إلى نَفْسِهِ فضلًا عن غيرِها». وقد يسأل البعض: ما هو العرفان؟!

يجيب على ذلك عارف من العرفاء حينما دخل عليه رجل يريد أن يرشده إلى طريق العرفان ومعرفة الله عزَّ وجلَّ فقال له: أتريد أن تكون عارفا حقا؟! قال: نعم، قال العارف: أين واقف أنت الآن؟! فقال الرجل: في الدهليز، فقال العارف: الدهليز مدفن العرفاء، فإذا أردت أن تدخل بيت العرفان والعرفاء والسالكين إلى الله عليك أن تدفن نفسك وهويتك وإنيَّتِكَ في دهليز هذا البيت ثم تدخل، فالعرفان ليس إلاَّ قدمان، القدم الأولى دفن النفس والهوية والإنيَّة والأناية، والقدم الثانية التوجه إلى الله تعالى، فإذا كنت قادرا على ذلك فافعل وإن لم تقدر عليه فاذهب ولا تشغلني.

يك قدم بر نفس خود نه

ديگری در كوی دوست^(١٧)

أو كما قيل:

أول قدم آنست كه او را طلبی

آخر قدم آنست كه با او باشی^(١٨)

فسمع بعض أهل العرفان هذا الكلام - وكان أعلى مقاما من العارف الأول - ثم قال: طوَّل ما قصَّرَ اللهُ، بل قدم واحدة على النفس وقد وصلت!! لأنه متى ما وضع الإنسان قدمه على نفسه وقضى على الجهة الخلقية والأناية منها وضمحل اسمه ورسمه وفنت هويته وإنيَّته ظهرت على أثر ذلك تلقائيا الجهة الحقية والرحمانية فيه.

وقد ورد في حديث قدسي أنه حينما سئل الله تعالى كيف الطريق إليك؟! قال سبحانه: «دَعْ نَفْسَكَ وتَعَالَ»!!

فمع فناء الذات يعرف العبد السالك ربه بالبقاء والأبدية كما أشار إلى ذلك مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «وَبِوَجْهِكَ الباقِي بَعْدَ فَنَاءِ كُلِّ شَيْءٍ»^(١٩)!! من هنا كان قول العرفاء بأن الفناء في الحق ليس أمرا عدميا بل يعقبه بقاء بالحق، لأن الفناء - كما ذكرنا في تعريفه - دثور الصفات الخلقية الفانية وظهور الصفات الحقية الأبدية الباقية، ومع الوصول إلى هذا المقام يصل الفاني في الله إلى حقيقة كلمة: «يا هُوَ يا مَنْ هُوَ هُوَ يا مَنْ لا هُوَ إلا هُو»^(٢٠)، ويشاهد شتات الحسن والجمال المتفرق في الأكوان مجموع في الجمال المطلق فان فيه، فلا هوية باقية سوى الهوية الأحدية المطلقة ولا وجود إلا الحقيقة الحقة الواحدة.

يقول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي:

گفتم که کی ببخشی بر جان ناتوانم

گفت آنزمان که نبود جان در میانه حائل^(٢١)

وكما أن الفناء في الصفات من خواص القرب الحاصل من النوافل فإن الفناء في الذات من خواص القرب الحاصل من الفرائض إذا جاء بها العبد السالك موفيا حقها وبالميزان الصحيح، أي كما أن النوافل تعطي العبد السالك الفاني أحكام صفات الحق فيكون الحق سمعه وبصره ويده وجميع قواه فإن الفناء في الذات تجعل نوره مندرجا في نور الله، فيكون كله نورا، فينظر بذاته ويسمع بذاته ويتكلم بذاته لا بصفته كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(٢٢)، أي أن ذاته عين سمعه وعين بصره وعين بطشه وعين سعيه.

تا نگردي از وجود خویش پاک

دل نگرده از طهارت نور پاک^(٢٣)

وقرب الفرائض لا يحصل إلا بعد قرب النوافل، لأن نتاج قرب النوافل هو استهلاك الأسماء والصفات بينما نتاج قرب الفرائض هو استهلاك الذات والفناء التام واحتراق الكل بعد فناء الاسم والرسم بالكلية، وإذا شملت العبد عناية إلهية وبقي بعد فناءه ببقاء الله يكون مخفيا في سمع الحق وبصر الحق وكلام الحق وإرادة الحق، فيسمع الحق بسمع العبد ويبصر بصره ويتكلم بلسانه ويريد بإرادته^(٢٤)، وهو أمر أعلى من كون الحق سمع العبد وبصره وكلامه و..... والذي يسببه قرب النوافل.

حينما يقول العارف الفاني في الله قبل البدء بصلاته: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾^(٢٥) فقد أضاف الوجه - وهو في محضر الحق ومقام الشهود - إلى نفسه، لأنه فنى عن نفسه واضمحل آثاره وصار وجهه وجه الله ولسانه لسان الله، كما قال الحق على لسان عبده «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»!! ثم إن وجه الشيء هو ذاته، والعبد الفاني في كل أحواله لا سيما في صلاته يتوجه بكلية إلى الله ويقوم بذاته لله عزَّ وجلَّ دون الالتفات إلى ما سواه، ثم قوله: ﴿...إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢٦) إنها هو تصديق لقوله تعالى: ﴿... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ...﴾^(٢٧) وإن كان الفاعل المباشر لها هو العبد.

فالعارف يعلم أن كل ما يصدر منه من أفعال إنما هي لله تعالى ومن أجله لا من أجل عود المنفعة والخير على نفسه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢٨)، فالمقصود من العبادة والحياة والمهات هو الله عزَّ وجلَّ لا غير كما جاء في قول مولی الموالی أمير المؤمنین عليه السلام: «ولكن وجدتك

أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ» (٢٩).

والفناء في التوحيد هو منتهى السفر الأول من الأسفار الأربعة، وهو السفر من الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدة، ومبدأ السفر الثاني وهو السفر في الحق بالحق، وأما البقاء بعد الفناء فهي مرتبة لا تحصل إلا في السفر الثالث من الأسفار الأربعة، أي من الحق إلى الخلق بالحق، ويزول فيه الشُّكْر والمحو، ويحصل له الصحو التام، ويبقى بقاء الله، ويسلك في مراتب الأفعال، ويسافر في عوالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويشاهد هذه العوالم بأعيانها ولوازمها، وينبئ عن معارف ذات الحق وصفاته وأفعاله (٣٠).

ومن جملة الآيات الدالة على مقام الفناء التام في الحق قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ....﴾ (٣١)، فالله سبحانه يخاطب نبيه ﷺ وهو الإنسان الكامل الفاني في الحق الباقي به أنَّ يده هو يد الحق كما جعل رمية رمي نفسه في قوله تعالى: ﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى....﴾ (٣٢) وجعل طاعته هو عين طاعته في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ....﴾ (٣٣).

وقد عبَّر خاتم الأنبياء ﷺ عن مقامه الإلهي الشامخ عند فناءه في ذات الله عزَّ وجلَّ بقوله: «لي معَ الله وَفْتُ لا يَسْعُنِي (لا يَسْعَةُ) مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ» (٣٤)!! فلم تكن بينه وبين الله واسطة ولم يرَ غير ربه وكان بكليته الله تعالى لا بنفسه ولم يدن من مقامه ملك مقرب كما قال جبريل ﷺ: «لَوْ دَنَوْتُ أَنْمَلَّةً لَأَحْتَرَفْتُ» (٣٥) ولا نبي مرسل وهو من جملة النبيين والمرسلين، ففنى في مقامه هذا عن تعيينه ونبوته ورسالته!!

وكذلك ما جاء في الأحاديث النبوية الأخرى وروايات أهل البيت ﷺ الذين جعل الله تعالى زيارتهم زيارته وطاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته وولايتهم ولايته ومعاداتهم معاداته لا كما يظنه أهل التشبيه تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قال خير البشر النبي المصطفى ﷺ: «مَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي فَقَدْ زَارَ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ» (٣٦)، ومن زار واحدا من الأئمة المعصومين كان كمن زار رسول الله ﷺ (٣٧).

وعن أبي الحسن علي بن موسى الرضا ﷺ أنه قال: «مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَطِّ الْفُرَاتِ كَانَ كَمَنْ زَارَ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ» (٣٨)!!

وقال ﷺ أيضا: «مَعْرِفَتِي بِالنُّورَانِيَّةِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٤٠)!!

وورد في الأحاديث الإمامية في ذيل تفسير بعض الآيات كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (٤٢) وغيرها من الآيات التي تسند الغضب والأسف والانتقام و.... و.... إلى الله تعالى أن

الله تعالى ليس له الغضب والأسف^(٤٣) وغيرها بل إن له من العباد والأولياء الفانين عن أنفسهم الباقين بالله الذين كان أسفهم وغضبهم موجبا للانتقام الإلهي ونزول العذاب^(٤٤)، كما قال رسول الله ﷺ في شأن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام: «إِنَّ اللَّهَ لَيَغْضَبُ لِغَضَبِ فَاطِمَةَ وَيَرْضَى لِرِضَاهَا»^(٤٥).

وخلاصة القول أن قوس الصعود هو السفر الإلهي الأول من الخلق إلى الحق وهو أن يقطع السالك إلى الله مراحل الكمال الذي يتبدئ من عالم الناسوت وبواسطة الإمدادات الغيبية والفيوضات الإلهية يترقى وجوده فيطوي عالم الملكوت ويتجاوز عن فضاء عالم الجبروت ويدخل في حريم قدس اللاهوت وينتهي إلى الفناء في الله والبقاء بالله.

الهوامش

- (١) سورة الروم: آية ١١
- (٢) سورة هود: آية ١٢٣
- (٣) سورة البقرة: آية ٢٤٥، سورة يونس: آية ٥٦، وغيرهما
- (٤) سورة النجم: آية ٤٢
- (٥) يقول صدر المتألمين (قده) أن اتصال العارف بالحق يعني حالة روحانية تليق بالمفارقات لا أن هناك اتصال جرمي أو امتزاج ولا اتحاد اثنين ولا بطلان إحدى الهويتين.
- (٦) الإنسان الكامل: ج ١ ص ٨١
- (٧) الأنوار النعمانية: ج ٣ ص ١٧٣
- (٨) الأنوار النعمانية: ج ٣ ص ١٦٧
- (٩) السحق تغير إلى الدثور والدروس، والمحق نقصان الشيء حالا بعد حال ووقوعه في طريق الفناء والزوال تدريجيا، والطمس محو الشيء حتى يذهب أثره.
- (١٠) سورة الرعد: آية ٣٣
- (١١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٩ ص ٨٤
- (١٢) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٤٨، مناقب ابن شهر آشوب: ج ٢ ص ٢٧٢
- (١٣) كما ورد في الحديث القدسي المعروف بحديث قرب النوافل حيث يقول الباري عز وجل: «ما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ (بِالنَّوَافِلِ) حَتَّىٰ أَحِبُّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَّهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا إِنْ دَعَانِي أَحْبَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيْتُهُ» - مستدرک الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢، محاسن البرقي: ص ٢٩١، رياض الصالحين (للنووي): ص ٦٣
- (١٤) مصباح الشريعة: باب ١٠٠ ص ٦٦
- (١٥) إحياء علوم الدين: ج ٤ ص ٢٥٦
- (١٦) الترجمة:
- ما لم تكن مطهرا من وجودك
فكيف تجدل لك طريقا إلى الخلاق الودود!!
- (١٧) الترجمة:
- ضع قدما على نفسك
وقدما أخرى في فناء المحبوب

(١٨) الترجمة:

أن تكون القدم الأولى في طلب الحق

حتى تكون القدم الأخيرة مع الحق

(١٩) فقرة من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل(٢٠) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر ليلة فقلت له علمني شيئاً أنصر به علىالأعداء، فقال: قل «يا هو يا مَنْ لا هو إلا هو»، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا عليعلمت الاسم الأعظم، وكان على لساني يوم بدر، وأن أمير المؤمنين عليه السلام قرأ قل هو الله أحد فلما فرغ قال:«يا هو يا مَنْ لا هو إلا هو اغفر لي وانصرني على القوم الكافرين»، وكان علي عليه السلام يقول ذلك يوم صفتين وهو

يطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟! قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله لا

إله إلا هو ثم قرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ - بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٢٢، ج ١٩ ص ٣١٠، ج

٦١ ص ٢٤٢

(٢١) الترجمة:

سألته متى تفيض على روحي المتعب من فيضك

قال في الوقت الذي لا يكون روحك حائلاً بيني وبينك

(٢٢) الكافي: ج ١ ص ٢١٨، عيون الأخبار: ج ٢ باب ٤٦ ص ٢٠٠

(٢٣) الترجمة:

ما لم تطهر من وجـودك

لن يكون قلبك من الطهارة نوراً

(٢٤) يقول العارف الإلهي محمد رضا القمشه اي (قده) أن الفناء في الذات قسمان: فناء استهلاك كضياء نور

الكواكب في نور الشمس وحينئذ يبقى عين الفاني وذاته ويرتفع حكم إنيتته ويبقى بعد الفناء عند شمول

عناية الله وتوفيقه ويكون وجوده حقانياً (ويسمى أيضاً بالصحو بعد المحو أو الإفافة بعد الصعق)، وفناء

هلاك كفناء الأمواج عند سكون البحر وحينئذ يزول عين الفاني ويفنى أثره وليس له البقاء بعد الفناء

لامتناع إعادة المعدوم.

(٢٥) سورة الأنعام: آية ٧٩

(٢٦) سورة الأنعام: آية ١٦٢

(٢٧) سورة هود: آية ١٢٣

(٢٨) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٢٩) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١٨٦، الوافي: ج ٣ ص ٧٠، الحقائق لفيض الكاشاني: ص ١٠٣، روض الجنان:

ج ١ ص ٢٧

(٣٠) كما ذكرها الحكيم الإلهي محمد رضا قمشه اي (قده)، وقد سبق بيان مراتب الأسفار الإلهية كما قسمها

- أساطين العرفان والتي ذكرها صدر المتألهين الشيرازي (قده) في كتابه المشهور بـ «الأسفار الأربعة» في المنزل (١٤)، فراجع.
- (٣١) سورة الفتح: آية ١٠
- (٣٢) سورة الأنفال: آية ١٧
- (٣٣) سورة النساء: آية ٨٠
- (٣٤) بحار الأنوار: ج ٨٢ ص ٢٤٣، وبلفظ «يَسْعُهُ» في بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٦٠
- (٣٥) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٨٢
- (٣٦) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٣، التوحيد: ص ١١٧
- (٣٧) عن زيد الشحام قال قلت لأبي عبد الله: ما لمن زار واحدا منكم؟! قال: «كَمَنْ زَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ» - بحار الأنوار: ج ١٠٠ ص ١١٧
- (٣٨) ثواب الأعمال: ص ٨٥ ط ٢ قم، ومنه بحار الأنوار: ج ١٠١ ص ٦٩
- (٣٩) بحار الأنوار: ج ٢٤ ص ١٩٤، ونقل الشيخ الصدوق في التوحيد ص ١٦٥ أنه قال: «أنا علمُ الله وأنا قلبُ الله الواعي ولسانُ الله الناطقِ وعَيْنُ الله وجَنبُ الله وأنا يدُ الله».
- (٤٠) بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ١
- (٤١) بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٣٦٧
- (٤٢) سورة الزخرف: آية ٥٥
- (٤٣) الإيساف: الإغصاب، وقال الراغب في المفردات: الأسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا.
- (٤٤) عن البرقي عن أبيه يرفعه إلى أبي عبد الله في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَأْسَفُ كَأَسْفِنَا وَلَكِنَّهُ خَلَقَ أَوْلِيَاءَ لِنَفْسِهِ يَأْسِفُونَ وَيَرْضُونَ وَهُمْ مَخْلُوقُونَ مُدَبَّرُونَ فَجَعَلَ رِضَاهُمْ لِنَفْسِهِ رِضًا وَسَخَطَهُمْ لِنَفْسِهِ سَخَطًا وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَهُمُ الدُّعَاءَ إِلَيْهِ وَالْأَدْلَاءَ عَلَيْهِ وَلِذَلِكَ صَارُوا كَذَلِكَ وَلَيْسَ أَنْ ذَلِكَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَصِلُ إِلَى خَلْقِهِ» - التوحيد: ص ١٦٨ ومنه بحار الأنوار: ج ٤ ص ٦٥
- (٤٥) أمالي الشيخ المفيد: مجلس ١١ ص ٩٥، مناقب ابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٣٧٢، ومنه بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٤٤

الْمُنْزَل (٣٦)

الْفَنَاءُ الْاِخْتِيَارِيُّ عِنْدَ الْمَحَب

لما كان لقاء الله تعالى حق محتوم لا ريب فيه وتحققه لا يكون إلا بالموت والفناء فقد اختار العارف بالله التجرد عن حكم نفسه وإيئته ومحو تعينه وهويته والخروج عن محبس إرادته وتصرفاته وتزكية نفسه وتطهير قلبه عن كدورات العلائق والعوائق التي تحول بينه وبين محبوبه في حياته الدنيا حتى تجلو مرآة قلبه وتكون قابلة لما يرد عليها من التجليات الإلهية ويتحقق بذلك اللقاء الأبدي والبقاء السرمدي الذي لا فناء بعده، ومن هنا قيل: «مَنْ أَحَبَّ اللَّقَاءَ اخْتَارَ الْفَنَاءَ عَلَى الْبَقَاءِ»!!

والعارف بالله لما عرف حقيقة قوله تعالى: ﴿... وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ...﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾^(٢) وعرف حتمية الرجوع إليه سبحانه فهو يرجع إليه محبا مختارا لا كارها مضطرا، والعارف بالله هو الذي يعجل الرجوع إلى الله تعالى في حياته الدنيا بفناء نفسه، قال الله تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَهُ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٣)، ومن اختار لنفسه هذا الرجوع كان من الخواص والسعداء والمقربين في مقعد صدق عند مليك مقتدر!!

وهذا لا يكون إلا بالمحبة والعشق لله تبارك وتعالى، ومع صدق المحبة وخلوص العشق يكون التوجه التام إلى حضرة الإله والاتصال بجناب الحق المتعال، وبالمحبة والعشق تقوى جهة حقيّة العبد وتضعف جهة خلقيّته إلى أن تغنى خلقيّته في حقيّته ويكون وجوده وجودا حقانيا ويدور مع الحق أينما دار، فلا يرى إلا الحق ولا يفكر إلا في الحق ولا يشغله شيء عن الحق، كقطعة فحم مجاورة لنار مشتعلة التي بسبب مجاورتها للنار واستعدادها لقبول الاشتعال من الجهة النارية الكامنة فيها تشتد فيها الحرارة شيئا فشيئا إلى أن تصير نارا فيحصل منها ما يحصل من النار من خاصية الإحراق والإنارة والحمرة والحرارة وغيرها.

والفناء الاختياري منهج الأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين الذين اختاروا لأنفسهم أعلى درجات الحب لله تبارك وتعالى وأحسن الطرق وأفضل السبل للوصول إلى الحق والتقرب إليه، وهم أعلم الناس وأدراهم بذلك، فكانوا القدوة الحسنة للتابعين لهم ومن اهتدى بهديهم وورث علمهم من أولياء الله الأكبر وعباده المقربين.

يقول الله تبارك وتعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿... أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٤)!! فلو تردّد الأمر بين الحق وبين سائر الأرباب لاختار العبد السالك العاقل لنفسه ربا واحدا وهو الحق تبارك وتعالى دون سائر الأرباب ليكون ولياً وحاكماً على قلبه، ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ...﴾^(٥)، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الذي يبدأ منه كل شيء وينتهي إليه كل شيء ويستحق العبادة لأنه سبب كل خير وسعادة.

ولهذا قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه السلام: «موتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا»^(٦)، فالموت الإرادي والفناء الاختياري يحصل للعارفين بالله والمتوجهين إلى الحق قبل وقوع الموت الطبيعي بسبب الإعراض عن ملذات الدنيا وطيباتها والامتناع عن هوى النفس وحظوظها ومقتضياتها ورفع كل حجاب بين العبد السالك إلى الله وربّه، فيكون موجبا لمشاهدة الحق في جميع مجالي الوجود ولقاء الحق قبل فئائه الطبيعي حسب التجليات الأسمائية أو الصفاتية أو الذاتية وعلى قدر السعة الوجودية وقوة الاستعداد والقابلية والتوجه إلى الله تبارك وتعالى.

وفي الحب المجازي الدنيوي نرى كل محب في بادئ الأمر يتوجه إلى من يجب بظاهر حواسه كالنظر والسمع وغيرهما ومن ثم ينشئه في خاطره ويصوره في خياله، ومع مرور الزمان يقوى هذا الحب الظاهري ويتضاعف، فيسري في نفسه وقلبه وباطنه وروحه، ويكون حاكماً عليها ومسخرها جميعاً في سبيل المحبوب، وينحصر حبه فيه دون سواه، فلا يرى غيره إلا به ولا يسمع من غيره إلا به، ويكون على استعداد للتضحية والفداء بكل ما كان متعلقاً به من قبل من مال وثروة وكل ما يملك من أجله. كذلك السالك إلى الله الذي إذا سرى في قلبه وروحه حب الله تبارك وتعالى يصل إلى مرحلة فداء كل شيء في سبيل الله ابتداء من المال حتى ينتهي في الفناء الاختياري إلى أعلى مراتب الفداء وهو فداء النفس الذي يعتبره العارف بالله أقل ما يجب عليه من التضحية في سبيل المحبوب، وكما يقول العرفاء أن أعظم قربان يقدمه العبد لله عزّ وجلّ هو النفس وأعظم التضحيات التضحية بها في سبيل الله.

مَا لِي سَوَى رُوحِي وَبِأَذْلِ نَفْسِهِ

فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ^(٧)

وَحَيَاتِكُمْ وَحَيَاتِكُمْ قَسَمًا وَفِي
عُمْرِي بغيرِ حَيَاتِكُمْ لَمْ أُحْلِفِ
لَوْ أَنَّ رُوحِي فِي يَدَيَّ وَوَهَبْتُهَا
لِمُبَشَّرِي بِقُدُومِكُمْ لَمْ أَنْصِفِ

وقد تسأل: هل هناك دليل على سير السالك في طريق الفناء الاختياري أم لا؟! نعم، هناك أدلة على ذلك، فالسالك - وهو في بدايات طريقه إلى الله عزَّ وجلَّ - يحرص على الاجتناب عن الذنوب والمعاصي والآثام اختياراً، ويعلم أن الله تعالى وضع ميزاناً يفصل به بين من يدَّعي محبته صادقاً ومن يدَّعيها كاذباً وهو تحريم الفواحش، فمن ادَّعى محبته وقف عند حدوده ليتبين الصادق من الكاذب، والمحب لا يكون محباً صادقاً وفي الوقت نفسه يعمل عملاً بخلاف ما يجب محبوبه ويرضاه، والمحبة الكامنة في العبد وظهورها لا يكون إلا بالورع والتقوى والعمل بطاعة الله والوقوف عند أوامره ونواهيه.

وفي أبيات منسوبة إلى مولانا الإمام الصادق عليه السلام (٨):

تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ
هَذَا لَعْمَرِي فِي الفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطَعْتَهُ
إِنَّ المُجِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

بل يصل السالك في سيره في طريق الفناء الاختياري إلى مرحلة - كما قال العارف الكامل السيد علي القاضي رحمته الله أستاذ العلامة الطباطبائي رحمته الله - إذا اضطر إلى الذنب وآل به الحال إلى المعصية لا يذنب ولا يعصي، فالسالك إلى الله محال أن يذنب في أي حال من الأحوال سواء كان اختياراً أو اضطراراً، ويحتنب كل عثرة لسانٍ أو زلَّةً قدَّم يحتاج بسببها إلى الاعتذار، أو يستحي منها حين يقف بين يدي الله تعالى يوم يرجع إليه، ثم أن محبة الله الصادقة إذا سيطرت على القلب تحرق كل شيء وما تبقي في القلب شيئاً ولا تذر إلا حب الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يكون إلا بتوفيق من الله عزَّ وجلَّ وألطافه وعناياته، لذا يقول قطب العارفين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في مناجاته: «إلهي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقَلَ بِهِ عَن مَعْصِيَتِكَ إِلَّا فِي وَقْتٍ أَبْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ» (٩)، فمحبة الله تبارك وتعالى رادعة للذنوب وموانعة للمعصية وصارفة للآفات وصائنة من الفواحش.

يقول العارف الكبير بابا طاهر رحمته الله: «كُلُّ مَا دَنَا مِنْكَ فَأَشْغَلَكَ عَنِ الحَقِّ فَهُوَ دُنْيَاكَ» (١٠)، وكذلك قيل: «كُلُّ مَا شَغَلَكَ عَن رَبِّكَ فَهُوَ صَنَمُكَ»، وعلى هذا فالسالك

إلى الله يعلم أن الاشتغال بشهوات الدنيا والانهماك في ملذاتها ذنب وصنم يُعبد من دون الله، لأنه يشغله عن الحق ويعمي قلبه عن رؤيته ويجعل بينه وبين محبوبه حجبا ظلمانيا، وأن كل محبوب شقي لا محالة، محرّم عليه سعادة الأبد، محترق بنار الفراق وجحيم الشقاء، ولهذا يقول إمام العارفين أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه: «فَهَبْنِي يَا إلهي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ»^(١١)!! فعذاب البعد والحرام أشد على العارف من عذاب النار، ومن ذاق طعم شراب المحبة وأحس بعذب زلال الوصال يصعب عليه تجرع غصص آلام الفراق ومرارة البعاد.

وَهَجْرُهُ أَغْظَمُ مِنْ نَارِهِ
وَوَضْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ

ولهذا يقطع السالك إلى الله عن قلبه كل عرق يجري فيه حب الدنيا الفانية ويرغب عنها ويهجر زخرفها وشهوتها وملذها، ويحكم عقد قلبه بحب الله تبارك وتعالى ويقبل عليه بكلمه، ولا يرى سعادة في دار البقاء إلا بقاء الله تبارك وتعالى، من هنا كان دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿... وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(١٢) وهي الأصنام الباطنة إلى جانب الأصنام الظاهرة المصنوعة وأكبرها صنم النفس الأمارة بالسوء والهوى الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما خوطب في الآية المباركة: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٣) يتعوذ منه ويقول: «أعوذ بالله من الشِّرْكِ الحَفِيِّ»!!

جاء في بعض رسائل صدر المتألهين الشيرازي رحمته الله هذه الكلمة:

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا
فَكُلُّ إِحْسَانِهِ ذَنْبٌ

ويجدر بالذكر هنا أن نقول أن كل شيء ما لم يكن في حقيقته شاغلا العبد عن ربه فليس محكوم عليه بالدنيا الدنيّة ولا يُشْمَل في متاعها، فمثل الدنيا كالأرض إما أن تكون طيبة تنبت نباتا طيبا أو أن تكون سبخة لا ينمو فيها بذر ولا يُحصَد منها حصاد كما ورد في الحديث: «الدنيا مَزْرَعَةٌ الآخِرَةِ»^(١٤)، فلا يقدر حبه للمال والأهل والأولاد في حبه لله، بل يمكن للإنسان أن يتزوّد من الدنيا لضرورة المشرب والمطعم والملبس والمعيشة الكريمة ويملك من المال ما يصرفه في سبيل الله والإنفاق على نفسه وعياله لا أن يُفتن بها ويعيش فيها عيش المترفين المسرفين.

ونعم ما قيل: «ليس الزاهد من لا يملك شيئا ولكن الزاهد من لا يملكه شيء»!!

وفي بيان حقيقة الزهد عند العارفين يقول إمام الزاهدين أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين: «الزُّهُدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

آتَاكُمْ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى الْمَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالْآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بَطَرَفَيْهِ ﴾^(١٥)!!
وعلى هذا فالدنيا دنيا وان:

دنيا تبعد العبد عن الله تعالى كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١٦)، فالحب الذي يقيّد العبد بالاشتغال بالدنيا ويبعده عن جناب المولى وإن كان في صلاة أو صوم أو أي طاعة من الطاعات وأي عبادة من العبادات إذا كانت بقصد الرياء لا بقصد الإخلاص والقربة المطلقة إلى الله تعالى فهي في حقيقتها صورة من صور حب الدنيا.

ودنيا تقرب العبد إلى الله تعالى كما قال في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «الدُّنْيَا مَنْزِلٌ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا وَدَارٌ عَافِيَةٌ لِمَنْ فَهَمَ عَنْهَا وَدَارٌ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا وَدَارٌ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا، بِهَا مَسْجِدٌ أَحْبَبَاءُ اللَّهِ وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ وَمَهْبَطٌ وَحْيِ اللَّهِ وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ اِكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ»^(١٧)، وقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: والله إننا لنطلب الدنيا ونحِبُّ أن نُؤْتَاهَا، فقال عليه السلام: تَحِبُّ أَنْ تَصْنَعَ بِهَا مَاذَا؟! قال: أعودُ بها على نفسي وعيالي وأصلُ بها وأتصدقُ بها وأحجُّ بها وأعتمر، فقال عليه السلام: لَيْسَ هَذَا طَلَبُ الدُّنْيَا هَذَا طَلَبُ الْآخِرَةِ^(١٨)!!

أيها المحب لله!! إذا نويت القربة إلى الله تعالى بكل كيانك وبجميع أبعاد وجودك فاعلم أنك تتقرب إلى رب رحيم بخلقه رؤوف بعباده ويشتاق إليهم أكثر مما يشتاقون إليه ويعشقهم أكثر مما يعشقونه!! قال تعالى في حديث قدسي: «إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى قَلْبِ عَبْدِي الْأَشْتِغَالُ بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي، فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ فَأَرَادَ أَنْ يَسْهُو حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُو، أَوْلِيكَ أَوْلِيَاءِي حَقًّا، أَوْلِيكَ الْأَبْطَالُ حَقًّا، أَوْلِيكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَهْلِكَ أَهْلَ الْأَرْضِ بَعْقُوبَةَ زَوَيْتُهَا عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَوْلِيكَ الْأَبْطَالِ»^(١٩)!!

«إِلَهِي أَقْمِنِي فِي أَهْلِ وَلَايَتِكَ مَقَامَ مَنْ رَجَا الزِّيَادَةَ مِنْ مَحَبَّتِكَ، إِلَهِي وَأَلْهِمْنِي وَلَهَا بِذِكْرِكَ إِلَى ذِكْرِكَ وَهَمَّتِي فِي رَوْحِ نَجَاحِ أَسْمَائِكَ وَمَحَلِّ قُدْسِكَ، إِلَهِي بِكَ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِمَحَلِّ أَهْلِ طَاعَتِكَ وَالْمَثْوَى الصَّالِحِ مِنْ مَرَضَاتِكَ، فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ لِنَفْسِي دَفْعًا وَلَا أَمْلِكُ لَهَا نَفْعًا، إِلَهِي أَنَا عَبْدُكَ الضَّعِيفُ الْمَذْنُوبُ وَمَمْلُوكُكَ الْمُنِيبُ فَلَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ صَرَفَتْ عَنْهُ وَجْهَكَ وَحَجَبَهُ سَهْوَةٌ عَنْ عَفْوِكَ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

الهوامش

- (١) سورة هود: آية ١٢٣
- (٢) سورة النجم: آية ٤٢
- (٣) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦
- (٤) سورة يوسف: آية ٣٩
- (٥) سورة الأنعام: آية ١٤
- (٦) مرصاد العباد باب ٤ فصل ٢ ص ١٧٩، ص ١٨٢
- (٧) ليس لي أن أقدم شيئاً سوى روعي، ومن يبذل روحه في عشق محبوبه وهو اه فليس بمسرف.
- (٨) وقيل أنها لابن المبارك وقد تمثل بها الإمام الصادق عليه السلام - الأنوار النعمانية ج ٣ ص ١٩٣
- (٩) فقرة من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام في شهر شعبان المعروفة بالمناجاة الشعبانية.
- (١٠) شرح كلمات بابا طاهر: ص ٨٢
- (١١) فقرة من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه كميل بن زياد النخعي واشتهر بدعاء كميل
- (١٢) سورة إبراهيم: آية ٣٥
- (١٣) سورة الزمر: آية ٦٥
- (١٤) علم اليقين: ج ١ ص ٣٤٧
- (١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٨٧، والآية ٢٣ من سورة الحديد
- (١٦) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٢٥٨، وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في روضة الواعظين: ص ٤٨٣ ط ١٩٨٦
- (١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٢٥
- (١٨) أصول الكافي: ج ٥ ص ٧٢ رواية ١٠
- (١٩) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٦٢، وجاء في بعض الكتب: «إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى قَلْبِ عَبْدِي الْأَشْتِغَالَ بِي يَقْلِبُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي، فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ عَشِقَنِي عَبْدِي وَعَشِقْتُهُ، أَوْلِيكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا، أَوْلِيكَ الْأَبْطَالَ حَقًّا، أَوْلِيكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَهْلِكَ أَهْلَ الْأَرْضِ بَعْقُوبَةً زَوَيْتُهَا عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَوْلِيكَ الْأَبْطَالَ»

المنزل (٥٧)

مَبَادِي الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ

لما رأت جميع الأشياء في عالم الوجود في نفسها من النقص والضعف والعجز والفناء كان لها - بِجِبَلَّتْهَا وفطرتها الأولى - تَشَبُّهًُ بالمحجوب الأزلي والباري الباقي عَزَّ وَجَلَّ وميل طبيعي وعشق غريزي لطاعته سبحانه والتقرب إليه.

لهذا يقول الحكماء والفلاسفة أن الغاية المطلوبة من العبد هي التشبُّهُ بِالْإِلَهِ جهد الطاقة البشرية والوسع الإنساني، ويقول العرفاء أنها التخلُّق^(١) بأخلاق الله وبأسائه تعالى مستندين في ذلك على ما جاء في الحديث النبوي الشريف: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»، فالعبارات مختلفة والمعنى واحد. ومن جملة الصفات الإلهية صفة «الدائمة»، فالله سبحانه وتعالى رب دائم ديموم وافر الجود وواسع الرحمة وتجلياته دائمة وشئونه متعاقبة وظهوراته مستمرة وكل يوم هو في شأن، وفي المقابل لا بد أن يكون العبد السالك إلى الله تعالى في عبودية دائمة لله رب العالمين وحضور دائم معه حتى يكون متشبهًا بربه في صفة الدائمة.

وقد خُلِقَ الإنسان في موضع الحاجة والعجز والذلة والافتقار، ولهذا يطلب رفيقا على الدوام ليستعين به على أمره ويصحبه في سيره، فيقول له رب العزة والجلالة في كتابه: ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾^(٢) فخير مستعان للأمر كلها وخير رفيق في أي وجهة يكون فيها هو الرب الودود ذو الجمال والبهاء الذي لا يبعد عن خلقه وهو أقرب إليه من حبل الوريد وفي المقابل يكون هذا الإنسان في معرض هجوم الشيطان وجنوده وما يحيكه من الوسوس والنفثات والنزغات الدائمة وما ينصب له من الحبائل والحيل المستمرة ولذا عليه أن يكون على حذر منه في كل آن متوجها إلى الله تعالى على الدوام.

والمعيّة الدائمة والصحبة غير المنقطعة مع الرب المتعال الدائم الفيض والتجلي على عباده تستلزم العبودية الدائمة له، ومع معرفة حقيقة المعية والصحبة الإلهية يدعو السالك في سفره إلى الله تعالى بهذا الدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ»، أي يتخذها صاحباً له في سفره إليه!!

حكى أبو حمزة الخراساني عن نفسه وقال: بينا أنا أمشي في طريق الحج إذ وقعت في بئر فنازعني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله، فما استتممتُ هذا الخاطر حتى مرَّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نطمَّ هذا البئر لئلا يقع فيها أحد، فطمَّ رأس البئر، فهمت أن أصيح، فقلت: إلى من هو أقرب منهما، فما مضت إلا ساعة حتى رأيت شيئاً كشف عن رأس البئر وأدلى رجله وجعل يمهِّم فتعلقت به فأخرجني، فإذا سبُعٌ وهاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن؟! نجيناك من التلف بالتلف^(٣).

وعلى هذا فمدار بحثنا في هذا المنزل هو «الدائمة»، ومنه يقسّم العرفاء مبادئ الحب إلى ثلاثة مبادئ أساسية هي كالتالي:

- المبدأ الأول: الطاعة الدائمة
 - المبدأ الثاني: الصمت الدائم
 - المبدأ الثالث: التسليم الدائم
- وأما بيان ذلك:

المبدأ الأول: الطاعة الدائمة

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿... وَلَهُ الدِّينُ وَإِصْبَاءً...﴾^(٤)، والدين ههنا بمعنى الطاعة، أي لله تعالى على خلقه حق الطاعة الواجبة واللازمة على الدوام في جميع الأحوال والأزمان. كيف لا وقد امتثلت لطاعته السماوات والأرض ومن فيهما، فقد قال المولى جلّ وعلا في كتابه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾^(٥)!! والقنوت - على ما ذكره الراغب في مفرداته - لزوم الطاعة مع الخضوع، والقانتون أي الطائعون لله طاعة تكوينية في كل ما أمرهم به ونهى عنه لما وجدوا الله تعالى أهلاً للسمع والطاعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٦)، أي أنهما تحرّكتا طاعةً لأمر الله حين دعاها وطلباً للكمال في عبوديتها حسب ما يليق بهما، ولما كانت السماوات والأرضون في حركة دائمة مستمرة إلى يوم القيامة عالميتين بها إليه يتحركان فطاعتها لله تعالى دائمة مستمرة إلى يوم

القيامة: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٧)!!
 وكذلك طوائف الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بمحض الطاعة له بقوله: ﴿... لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٨)، وقوله تعالى في دوام طاعتهم له دون انقطاع واستغراقهم في عبادته دون كلل ولا ملل: ﴿... وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ *﴾^(٩)، وقوله تعالى في ذلك أيضا: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾^(١٠) أي لا يملون التسبيح أبدا!!

وعلى هذا فكل المخلوقات التي خلقها الله مفطورة على معرفة الله وفي مقام الذلة والعبودية والطاعة الذاتية له إلا الثقلين، ولذا نرى أن الحق تبارك وتعالى خص الثقلين من دون خلقه في الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١١) بتعريفهم غاية خلقهم وهي العبادة والمعرفة بذنهم وعجزهم وجهلهم وفقرهم أمام عزة الله وقدرته وعلمه وغناه ومن ثم خصهما بالتهديد والوعيد حيث قال ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾^(١٢) فما تكبر أحد من خلق الله على أمر الله وما عصاه إلا الثقلان، فكان من الناس الجاحدون لأنعم الله والجانون على أنفسهم الذين حينما أشهدهم الله تعالى في عالم الذر وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا ﴿بلى﴾^(١٣) وأفروا له بالربوبية ثم مالوا عن الصراط المستقيم وأجابوا دعوة الشيطان واتبعوا الهوى وتكبروا وطغوا وعصوا أمر ربهم وخالفوه ومنهم من عصى ربه مرة وأطاعه أخرى ومنهم من لم يحد عن طاعة ربه وصراته المستقيم ولم يقدم على معصيته ولو بقلبه ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فكانوا مع الحق وذواتهم مستغرقة في شهود الجلال والجمال وإن كانوا في الخلق وكانوا يرون المنّة لله تعالى في طاعتهم إياه، فطوبى لمن رزق طاعة الله الدائمة فهي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان وهي أعظم النعم وأتم الآلاء كما قال تعالى: ﴿... قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ...﴾^(١٤).

فأتى أيها السالك كل ما يرضي الله واجتنب كل ما لا يرضيه، وكن كما أوصى به مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «أحذر أن يراك الله عند معصيته ويقدرك عند طاعته فتكون من الخاسرين وإذا قويت فاقو على طاعة الله وإذا ضعفت فاضعفت عن معصية الله»^(١٥)!! والزم أمر الله تعالى حيث أمر عباده وقال: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَاتِينَ﴾^(١٦) أي اخضعوا لله تعالى وأديموا له الطاعة لا لأجل مثوبة ولا لدفع نقمة بل مخلصين له ولأجله، ولما كان الأمر الإلهي أبديا دائما كانت الطاعة له أبدية دائمة.

يقول الحق تبارك وتعالى في حديث قدسي: «يا بني آدم أطيعوني بقدر حاجتكم إليّ واعصوني بقدر صبركم على النار واعملوا الدنياكم بقدر لبثكم فيها وتزودوا للآخرة بقدر

مَكْتَبِكُمْ فِيهَا»^(١٧)!! ومن علم حقيقة الدنيا والآخرة علم أن لا غنى له عن الله سبحانه وتعالى طرفه عين أبدا بل لا يزال بأمرس الحاجة إلى عطفه ورحمته ولطفه وعنايته ولا صبر له على نار غضبه وسخطه، وبالنسبة للعارف فلا صبر له على نار بُعده وفراقه بعدما تذوّق لذة قربه ووصاله!!

فاعمل أيها السالك إلى الله على الإقامة على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وانو إدامتها والمثابرة عليها، واستعن بالله، وسله أن لا يُخْلِكَ من حسن نظره إليك، ويثبتك على دينه ويحفظك عن معصيته، فلا تكن من المقصّرين المتوانين إنه خير سند ومعين.

عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن: «أبلغ قومك أنه ليس من عبدٍ منهم أمره بطاعتي فيطيعني إلا كان حقا عليّ أن أطيعه وأعينه على طاعتي وإن سألتني أعطيتُه وإن دعاني أجبتُه وإن اعتصم بي عصمتُه وإن استكفاني كفيته»^(١٨)!! وعنه عليه السلام أنه قال قال رسول الله ﷺ قال الله عزّ وجلّ: «... لا يتكلّ العامِلونَ على أعمالِهِمُ الَّتِي يَعمَلونها لثوابي فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفسنوا أعمالهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جنّاتي ورفيع درجاتي العلى في جوارِي»^(١٩)!!

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال لبعض ولده: «يا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بالجدِّ، لا تُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ مِنْ حَدِّ التَّقْصِيرِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَاعَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعْبَدُ حَقَّ عِبَادَتِهِ»^(٢٠)!!

ثم اعلم أيها السالك - وهذا ما يعيننا في هذا البحث - أن لكل عمل من الأعمال البدنية تأثير في النفس، فالطاعات الإلهية لها تأثير في تهذيبها وتصفيتها وجلائها واقتنائها الفضائل، وكلها أبواب لتنوير النفس بنور الإيمان ومعرفة الله تبارك وتعالى، ولما كانت الطاعة تجرُّ الطاعة فإن دوام الطاعة سبيل إلى اشتداد نور ملكات النفس الحسنة فتكون نورا على نور، وأما المخالفات فلها تأثير في إظلامها وتكديرها وتضررها وتلوثها بالردائل.

تا دل صدف درّ شريعت نشود

جان مَحْرَم اسرار طريقت نشود^(٢١)

فمن أحب الله محبة خالصة صادقة أطاعه، وطاعة الله تعالى بطاعة النبي الخاتم ﷺ واقتفاء أثره واتباع شريعته الغراء، ومن اقتفى أثر النبي ﷺ واتبع شريعته فقد نال محبة الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾^(٢٢)!! وإذا أحب الله عبده جعله محرماً لأسراره ومجلى لتجلياته.

وعلى أثر مراتب الطاعات كانت للتوبة مراتب هي كالتالي:
التوبة العامة: وهي التوبة والإنابة من اقتراف الذنب وارتكاب الحرام، وهذه للعامة من الناس.

التوبة الخاصة: لمن لم يقترف ذنبا ولم يرتكب حراما بل يستغفر من إقدامه على مكروه فيسارع بالتوبة إلى الله حياءً منه.

التوبة الأخص: وهي لأولياء الله والصالحين والعارفين والواصلين الذين يتوبون إلى الله لا عن اقتراف ذنب أو إقدام على مكروه بل لغفلة عن الحق أو اشتغال بغير الحق ساعة يخافون أن يكون الحق تعالى ناظرا إليهم فيها فيلومون أنفسهم عليها وهم في أشد الحياء والانكسار كما أشار إلى ذلك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في بعض أدعيته: «لَيْتَ شِعْرِي فِي غَفَلَاتِي أُمْعِرِضْ أَنْتَ عَنِّي أَمْ نَاطِرٌ إِلَيَّ»^(٢٣)!! وهي - أي الغفلة - في نظرهم دَرَنٌ ووسخ يعلق بالقلب فيطفئ ضوء شعاع من نور الله فيه، كما قال قطب العارفين أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته: «إِلَهِي لَمْ يَكُنْ لِي حَوْلٌ فَأَنْتَقِلَ بِهِ عَنْ مَعْصِيَتِكَ إِلَّا فِي وَقْتٍ أَيْقَظْتَنِي لِمَحَبَّتِكَ فَكَمَا أَرَدْتَ أَنْ أَكُونَ كُنْتُ فَشَكَرْتُكَ بِإِذْخَالِي فِي كَرَمِكَ وَلِتَطْهِيرِ قَلْبِي مِنْ أَوْسَاطِ الْغَفْلَةِ عَنْكَ»^(٢٤)!! وقد ورد في «لباب الألباب»: «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَتَحَسَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَتَحَسَّرَهُمْ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٢٥)!!

وبلا شك وترديد أن العارف الواصل لا يصل إلى ديمومية الطاعة والجذبة إلى الله والاستغفار عن ساعة غفلة عن الله سبحانه وتعالى ما لم يكن قد وصل إلى مقام الشهود وذائق طعم محبة الله والقرب منه والزلفى لديه ورأى هيبة الملك المنان بعين القلب، رزقنا الله وإياكم هذه النعمة بمنه وكرمه!!

المبدأ الثاني: الصمت الدائم

قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكَ بِطَوْلِ الصَّمْتِ فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ الشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ»^(٢٦)!! وقال ﷺ أيضا: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»^(٢٧)!!

فعل الإنسان أن يلزم الصمت في موطن مادام الكلام فيه معصية وخلافا للشرع وخوضا في الباطل وتعديا لحق الأدب مع الحق عز وجل، وأن يكون كمن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(٢٨)، أما إذا كان التكلم في ذكر الله والله وفي مرضاة الله وبميزان ما شرع الله فلا بأس به وعلى الخصوص إذا كان مؤداه إحقاق حق ونشر فضيلة أو إبطال باطل وقمع رذيلة، وقد قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ خَيْرًا فَنَغِمَ أَوْ سَكَتَ عَنْ سَوْءٍ

فَسَلِمَ»^(٢٩)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية عليه السلام: «يا بُنَيَّ، لا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ بَلْ لا تَقُلْ كُلَّ ما تَعْلَمُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ فَرَضَ عَلَيَّ جَوَارِحَ كُلِّهَا فَرائِضٌ يَحْتَجُّ بِها عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيامَةِ»^(٣٠)، ومن أمسك لسانه فقد تصدَّق على نفسه وأنجاها من العذاب والتهلكة.

وفضلا على الأمر باجتناب الكلام في المعصية والحرام فقد وردت أحاديث في اجتناب فضول الكلام ومدح الصمت عنه، منها قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «طَوَّبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»^(٣١)، وفي هذا الحديث حثُّ على اجتناب فضول الكلام وهو التكلم بما لا فائدة فيه أو ما كان زيادة على قدر الحاجة فهو مذموم وإن كان مباحا ولم يكن فيه إثم لأنه موجب لتضييع الوقت والابتعاد عن ذكر الله والفكر في آلاء الله وآياته وأنعمه، وبالتالي فهو موجب للخسران المبين.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «جَمَعَ الْخَيْرُ كُلَّهُ فِي ثَلَاثٍ خِصَالٍ النَّظْرُ وَالسُّكُوتُ وَالْكَلَامُ فَكُلُّ نَظْرٍ لَيْسَ فِيهِ اعْتِبَارٌ فَهُوَ سَهْوٌ وَكُلُّ سُكُوتٍ لَيْسَ فِيهِ فِكْرٌ فَهُوَ غَفْلَةٌ وَكُلُّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَغْوٌ»^(٣٢)، فالسكوت الدائم محمود ما لم يكن عن غفلة أو اشتغال الفكر بغير الله سبحانه، وإذا وجب الكلام في أمر ما فلا بد أن لا يخلو عن ذكر الله تعالى وإلا اعتبر لغوا كما أشار إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام نقلا عن آبائه عليهم السلام وقال: «الصَّمْتُ عِبَادَةٌ لِمَنْ ذَكَرَ اللهُ»^(٣٣).

وطول الصمت ينشأ عن شدة مراعاة الإنسان حين التلفظ أو التكلم ودوام المراقبة والمحاسبة وترك ما لا يعنيه ولهذا قيل: «الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ» ولا يتمكن من ذلك إلا بمعرفته حدود الله تعالى في ذلك ومعرفة المواطن التي ينبغي له أن يصرف كلامه فيها وقد قال سيد البشر عليه السلام: «وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(٣٤)!! وقد قيل: «لا شيء أحق بسجن من لسان وقد جعله الله خلف بابين الشفتين والأسنان»^(٣٥)، ولما قيل أن ما كل حق يقال هو في رضا الله ^(٣٦) فكيف بالخوض في الباطل والذكر القبيح كالكذب والزور والشائنة والبهتان وغيرها من ذمائم اللسان وآفاته.

وقد ضيقت دائرة التكلم حتى قيل: «لا تتكلم إلا فيما إن سكتت عنه كنت عاصيا وإن لم فلا»، وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: «دُنَّا عَلَى عَمَلٍ نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، قَالَ عليه السلام: «لا تَنْطِقُوا أَبَدًا»، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال عليه السلام: «فَلا تَنْطِقُوا إِلَّا بِخَيْرٍ»!!

وهذا صمت العوام، وأما صمت العارفين فهو - علاوة على ما مضى - ناشئ عن هيبة وتعظيم وحضور وحياء ومراقبة ومراعاة وسماح كلام الحق بأذن القلب على الدوام، لأن المعرفة بالله تعطي

ذلك كله، فمن عرفه شاهده ومن شاهده هابه وعظّمه وأتقاه، ومادام أن قلبه يصغي لكلام الحق ويستقبل تجلياته على الدوام فهو صامت على الدوام، وقد قيل: «كَمْ بَيْنَ عَبْدٍ سَكَتَ تَصَوُّنًا عَنِ الْكُذِبِ وَالْغَيْبَةِ وَعَبْدٍ سَكَتَ لَاسْتِيْلَاءِ سُلْطَانِ الْهَيْبَةِ»!!

ومن صفات المؤمن المتقي التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام لهّمّام أنه «كثير الصّمت» (٢٧)، وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام في صفات المؤمنين الكاملين: «ألَسِنَتُهُمْ مَسْجُونَةٌ وَصُدُورُهُمْ وَعَاءٌ لِسِرِّ اللَّهِ إِنْ وَجَدُوا لَهُ أَهْلًا نَبَذُوهُ إِلَيْهِ نَبْذًا وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُ أَهْلًا أَلْقَوْا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَقْفَالًا غَيَّبُوا مَفَاتِيحَهَا وَجَعَلُوا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ أَوْكِيَةً» (٢٨)، ثم قال عليه السلام فيهم أيضا: «حُلِيَّتُهُمْ طَوْلُ السُّكُوتِ وَكِتْمَانُ السَّرِّ»!!

وقد ورد أن ربيع بن خثيم - أحد الزهّاد الثمانية - كان يضع قرطاسا بين يديه فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: أه آه!! نجا الصامتون وبقينا!!

وأما سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمته الله فقد كان قليل الكلام طويل الصمت شديد الحضور كثير الاشتغال بذكر الله، وقد ذكر أحد تلامذته أنه كان على تلك الحالة على الدوام حتى أنه حينما كان يتوقف في الجلسات والدروس بين حين وآخر كان في حين سكوته يشتغل بذكر الله تعالى.

وكان عليه السلام لا يتكلم إلا إذا سئل وإذا أجاب اختصر وأفاد، وذات يوم سأله عن سبب هذا السكوت الدائم فقال: أتفكّر في ذنوبي وتقصيري وأتفكّر في نفسي وأعدّها جوابا عند الحضور يوم القيامة في محكمة رب العالمين!!

نعم، هذا هو العارف الواصل الذي باع نفسه لله تعالى واشتراها منه ربه فذاق طعم محبة الله وقربه، ورأى من ربه ما أعطاه الهيبة والإجلال والتعظيم وأدّى به إلى السكوت الدائم والمناجاة الدائمة والخلوة مع ربه على الدوام، ومع ذلك لا يدّعي لنفسه شيئا بل يرى نفسه أقلّ الأقلين وأعظم المذنبين والمقصرين!!

المبدأ الثالث: التسليم الدائم

هَوَايَ لَهُ فَرَضٌ تَعَطَّفَ أَمَّ جَفَا
وَمَشْرَبُهُ عَذْبٌ تَكَدَّرَ أَمَّ صَفَا
وَكَلْتُ إِلَى الْمَحْبُوبِ أَمْرِي كُلُّهُ
فَإِنْ شَاءَ أَحْيَانِي وَإِنْ شَاءَ أَتْلَفَا

اعلم أيها السالك إلى الله أن التسليم مقام عظيم ومنزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى، فقد قال

سبحانه في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾^(٣٩) فإسلام الوجه إلى الله هو إقبال العبد بكلّيته على الله وإعراضه عن سواه والخضوع لإرادته والتذلل لعظمته وكبريائه والإيمان بوحدانيته وشريعته، وبه يكون كمال الإيمان وتمامه.

ولا يقتصر التسليم على الإنسان فحسب بل هي في فطرة كل ما خلق الله تعالى، وقد عاتب الله سبحانه كل من يجحد دينه والتسليم له وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٤٠)، ثم عرّف الله دينه للناس وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾^(٤١)، فكل من في السماوات والأرض قد أسلم لله في مقام التكوين والخلق والفطرة ويجب على الناس التسليم لله في مقام التشريع أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً...﴾^(٤٢) أي التسليم لله تعالى ولرسوله ﷺ وأوصيائه ﷺ بعد الإيمان بهم وبذل الجهد في طاعتهم.

ومجرد علم العبد بأن الله هو الحق لا يكفي بل لابد من التسليم لأمره واتباع سنة نبيه ﷺ وأوصيائه ﷺ في الأولى حتى تكمل سعادته في الأخرى، فعليه أن يختار سبيل التسليم في الدنيا قبل أن يُكره على ذلك يوم القيامة كما هو حال الذين جحدوا الحق في حياتهم الدنيا مع علمهم بثبوته ﴿فَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾^(٤٣) فاضطروا إلى التسليم له يوم الجزاء بعد كشف الغطاء وإحاطة العذاب ﴿... فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤٤).

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله أن الإسلام والاستسلام والتسليم بمعنى واحد ومن مادة السَلَم، وهو يعني الانقياد والقبول من الإنسان لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني من قدر وقضاء أو حكم تشريعي من أمر أو نهي أو غير ذلك.

قال مولانا أمير المؤمنين رحمه الله: «الإيمان له أركانٌ أربعةٌ التوكلُ على الله وتفويضُ الأمرِ إلى الله والرّضا بقضاءِ الله والتسليمُ لأمرِ الله عزَّ وجلَّ»^(٤٥)، وهذه المقامات الأربعة من مقامات العبودية وهي متقاربة المعاني ولكنها تختلف في الاعتبارات، وفيما ذكر في بعض التفاسير وأقوال بعض العرفاء أن التوكل هو جعل العبد ربه وكيلا يقوم مقام نفسه في مصالحه ويتصرف فيها له من الأمر مع حفظ تعلقه بالأمر، والتفويض رد ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه والاعتراف بعدم الحول والقوة إلا بالله والفناء في قدرة الله وهو أوسع معنى من التوكل فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبله وبعده^(٤٦)، والرضا هو موافقة الطبع مع كل ما يفعله الله تعالى به واستهلاك إرادته في إرادة الله واختياره في اختيار الله والسكون تحت مجاري القدر والقضاء، وأما التسليم فهو مطاوعته المحضّة ذاتا وفعلا لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه أو تعلق به أو موافقة

لطبعه أو مخالفة له والاعتراف بالجهل واضمحلال علمه في علم الله.

قال العزيز سبحانه فيها أوحى إلى نبيه داود عليه السلام: «يا داود!! تَريِدُ وأَريِدُ ولا يَكونُ إلاَّ ما أريِدُ فإنَّ أَسَلَمْتَ لِمَا أريِدُ أَعطَيْتُكَ ما تَريِدُ وإنَّ لَمَ تَسَلِمَ لِمَا أريِدُ أَعَبْتُكَ فيما تَريِدُ ثُمَّ لا يَكونُ إلاَّ ما أريِدُ» ^(٤٧)!!

والتسليم ذو مراتب متفاوتة بدليل الآية المباركة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ ^(٤٨) فما معنى الأمر بالإسلام وقد كان إبراهيم عليه السلام مسلماً!!

فأولى مراتبه التسليم الاختياري ومقدماته شاقة وصعبة على النفس والطبع، وفي المراتب العالية يكون التسليم بمعنى تمام العبودية وكما لها بأن لا يرى العبد لنفسه أو صفاتها أو آثارها ولو احقها استقلالاً يشغله عن ربه بل كلها ملكاً خالصاً له سبحانه، ومع ارتفاع المقامات ونيل الكمالات في المراحل العالية يكون التسليم أمراً إلهياً وفيضاً ربانياً يفرضه الحق تبارك وتعالى على عبده عناية منه ومِنَّةً.

والتسليم لله رب العالمين ما هو إلا الاعتصام بحبل الله المتين وسبيل الفلاح والنجاة اليقين

كما نطقت به الآية المباركة: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾ ^(٤٩)!!

وأما علامة التسليم فهي الحب في الله والبغض في الله والموالاتة في الله والعداوة في الله والعطاء لله

والمنع لله والتكلم لله والسكوت لله وغيرها من المعاملات والتصرفات والأخلاقيات.

روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: هَلْ عَمَلْتَ لِي عَمَلًا؟! قال: صَلَّيْتُ لَكَ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَذَكَرْتُ لَكَ، قال الله تبارك وتعالى: وَأما الصَّلَاةُ فَلَكَ بُرْهانٌ وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ ظِلٌّ وَالذِّكْرُ نَوْرٌ فَأَيُّ عَمَلٍ عَمَلْتَ لِي؟! قال موسى عليه السلام: دُلَّنِي عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي هُوَ لَكَ؟! قال: يا مُوسَى هَلْ وَالَيْتَ لِي وَلِيًّا وَهَلْ عَادَيْتَ لِي عَدُوًّا قَطُّ؟! فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله ^(٥٠).

وأشار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا المقام بقوله: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في

الله وتوالي أولياء الله والتبيري من أعداء الله» ^(٥١).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «المحب في الله محب الله والمحبوب في الله حبيب الله لآئها لا يتحابان إلا في الله» ^(٥٢).

وعلى هذا فالملاك في ذلك كله هو حب الله سبحانه وتعالى والتودد إليه.

والروايات الواردة في هذا المقام كثيرة من جملتها:

عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّ مُؤْمِنًا فَقَدْ سَرَّنِي وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ اللَّهَ» ^(٥٣)!!

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ قَدْ أُنَارَ نُورٌ وَجُوهِهِمْ وَنُورٌ أَجْسَادِهِمْ وَنُورٌ مَنَابِرِهِمْ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى يُعْرِفُوا بِهِ فَيُقَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ» ^(٥٤)!!

قيل لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟! فقال عليه السلام: إي والله، وهل الدين إلا الحب!! قال الله **﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** ^(٥٥)!!

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «مَنْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ فِي مَرَضٍ أَوْ صَحَّةٍ لَا يَأْتِيهِ خِدَاعًا وَلَا اسْتِبْدَالَ وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُنَادُونَ فِي قَفَاهُ أَنْ طِبْتَ وَطَابَتْ لَكَ الْجَنَّةُ فَأَنْتُمْ زُورُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ وَفَدُ الرَّحْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَ مَنْزِلَهُ» ^(٥٦)!!

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ فِيكَ خَيْرًا فَانظُرْ إِلَى قَلْبِكَ فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ وَيُبْغِضُ أَهْلَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَبِئْسَ فِيكَ خَيْرٌ وَاللَّهُ يُحِبُّكَ وَإِنْ كَانَ يُبْغِضُ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ وَيُحِبُّ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ فَلَيْسَ فِيكَ خَيْرٌ وَاللَّهُ يُبْغِضُكَ وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ^(٥٧)!!

وخير المحبة وأعظمها ما كانت لرسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام والالتقياد في كل ما أمروا به أو نهوا عنه، فعن أبي جعفر عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «شِيعَتُنَا الْمُتَبَادِلُونَ فِي وَلَايَتِنَا الْمُتَحَابُّونَ فِي مَوَدَّتِنَا الْمُتَزَاوِرُونَ فِي إِحْيَاءِ أَمْرِنَا الَّذِينَ إِنْ غَضِبُوا لَمْ يَظْلَمُوا وَإِنْ رَضُوا لَمْ يُسْرِفُوا بَرَكَةً عَلَى مَنْ جَاوَرُوا سَلْمٌ لِمَنْ خَالَطُوا» ^(٥٨)!!

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى سَبِيلِ طَاعَتِكَ وَعَلَّمَنَا سُنَنَ الْعِبَادَةِ لَكَ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِينَ الْأَئِمَّةِ الْأَكْرَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مُتَقَلِّبًا فِي قَبْضَتِكَ لَا أَمْلِكُ مِنْ نَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِمَشِيَّتِكَ، فَاسْأَلُكَ يَا مَالِكَ كُلِّ نَفْسٍ وَيَا قَادِرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَحْفَظَنِي فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ الزَّلَلِ وَتُوفِّقَنِي لِصَالِحِ الْعَمَلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَأَعْبُدُكَ وَأَقُدُّسُكَ وَأَصْلِي لَكَ وَأَسْجُدُ لَكَ وَأَمْرُغُ صَفْحَتِي فِي التُّرَابِ تَذَلُّلًا لَكَ كَيْ تَرْحَمَ مَخَافَتِي مِنْكَ وَتَغْفِرَ السَّالِفَ مِنْ ذَنْبِي وَعِصْيَانِي لَكَ، فَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ يَا خَيْرَ الرَّاحِمِينَ»!!

الهوامش

- (١) التخلق بخلق ما بمعنى التشبه بمن هو فيه هذا الخلق بالذات.
- (٢) سورة الحديد: آية ٤
- (٣) إحياء علوم الدين: ج ٤ ص ٢٧٢، ومنه رياض السالكين: ج ٣ ص ٢٥
- (٤) سورة النحل: آية ٥٢
- (٥) سورة الروم: آية ٢٦
- (٦) سورة فصلت: آية ١١
- (٧) سورة مريم: آية ٩٣
- (٨) سورة التحريم: آية ٦
- (٩) سورة الأنبياء: آية ١٩ - آية ٢٠
- (١٠) سورة فصلت: آية ٣٨، ويضيف السيد العلامة الطباطبائي رحمته في تفسيره لهذه الآية والآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة الأنبياء (المذكورة أعلاه) والآية ٢٠٦ من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الحق آية سجدة) أن المراد بالذين عند ربك ليسوا هم الملائكة فقط على ما فسره كثير من المفسرين إذ لا معنى لقول «اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك» بل مطلق المقرين عنده تعالى والمخلصون من عباده على ما يفيد لفظ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الحضور من غير غيبة!! وعلى هذا فالمراد بقوله ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ في سورة الأنبياء المخصوصون بموهبة القرب والحضور وربما انطبق على الملائكة المقرين المكرمين.
- (١١) سورة الذاريات: آية ٥٦
- (١٢) سورة الرحمن: آية ٣١
- (١٣) سورة الأعراف: آية ١٧٢
- (١٤) سورة الحجرات: آية ١٧
- (١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٩ ص ٣٢٤
- (١٦) سورة البقرة: آية ٢٣٨
- (١٧) الكشكول ج ١ ص ٣ للشيخ بهاء الدين
- (١٨) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦
- (١٩) الكافي: ج ٢ ص ٦٠
- (٢٠) الكافي: ج ٢ ص ٧٢
- (٢١) الترجمة:

ما لم يكن القلب صَدَفًا لَدُرِّ الشريعة
لم يكن الروح محرماً لأسرار الطريقة

- (٢٢) سورة آل عمران: آية ٣١
- (٢٣) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٢٠١
- (٢٤) فقرة من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام في شهر شعبان المعروفة بالمناجاة الشعبانية
- (٢٥) مستدرک الوسائل: ج ٥ ص ٢٨٨
- (٢٦) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٧٩
- (٢٧) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٩٠
- (٢٨) سورة المؤمنون: آية ٣
- (٢٩) محاسن البرقي: كتاب القرائن باب فضل قول الخير ص ١٥
- (٣٠) الفقيه: ج ٢ ص ٦٢٦
- (٣١) الكافي: ج ٢ ص ١٤٤، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٨٣
- (٣٢) الفقيه: ج ٤ ص ٤٠٥، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٧٥، محاسن البرقي: كتاب القرائن ص ٥
- (٣٣) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٩٣
- (٣٤) بحار الأنوار: ج ٧٥ ص ٢٦٠، الكافي: ج ٢ ص ١١٥، الترغيب والترهيب: ج ٣ ص ٥٢٨
- (٣٥) مصباح الشريعة: باب ٤٦
- (٣٦) كالنميمة والغيبة وإفشاء الأسرار فهي صدق ولكنها ليست بحق بل مذمومة ومحظورة ولا ترضي الله بل تسخطه وتغضبه.
- (٣٧) الكافي: ج ٢ ص ٢٢٦
- (٣٨) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٥٢، الأوكية جمع وكاء وهو الخيط الذي يُشَدُّ به رأس الصرّة أو الكيس، وقد شبه أفواههم بكيس أو صرّة شدّ رأسها فلا يخرج منها شيئاً!!
- (٣٩) سورة النساء: آية ١٢٥، والإحسان - كما يقول العرفاء - على مراتب: الأولى اللغوية بأن يحسن العبد على كل شيء حتى على من أساء إليه وأن ينظر إلى المخلوقات بعين الرحمة والشفقة،
- والثانية العبادية بأن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير الإحسان، والثالثة الشهودية بأن يشاهد العبد ربه في كل شيء وعند كل شيء وهي مقام المشاهدة دون «كأن» كما ورد في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعّه» وقوله صلى الله عليه وآله: «كَيْفَ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ»!!

وعلى هذا فالكلمة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الواردة في الآية الكريمة تعني أنه مشاهد لله تعالى عند تسليم ذاته وقلبه إليه وهو في شهود الحق مع كل شيء وفي كل شيء وفي جميع مراتبه الوجودية ومنقاد برمة ذاته إلى الله وهو

مشاهد له، وهي أعلى مراتب الإحسان!!

- (٤٠) سورة آل عمران: آية ٨٣
- (٤١) سورة آل عمران: آية ١٩
- (٤٢) سورة البقرة: آية ٢٠٨
- (٤٣) سورة النمل: آية ١٤
- (٤٤) سورة النمل: آية ١٤
- (٤٥) الكافي: ج ٢ ص ٤٧، تحف العقول: ص ٢٢٣ مع اختلاف يسير
- (٤٦) شرح منازل السائرين للعارف الكامل كمال الدين الكاشاني: باب التفويض ص ١٠٤
- (٤٧) التوحيد: ص ٣٣٧ ومنه بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٠٤
- (٤٨) سورة البقرة: آية ١٣١
- (٤٩) سورة لقمان: آية ٢٢
- (٥٠) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥٢
- (٥١) الكافي: ج ٢ ص ١٢٥
- (٥٢) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٢٥١
- (٥٣) الكافي: ج ٢ ص ١٨٨
- (٥٤) الكافي: ج ٢ ص ١٢٥، وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى زَبَرٍ جَدَّةٍ خَضْرَاءٍ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ عَنْ يَمِينِهِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ وَجُوهُهُمْ أَشَدُّ بَيَاضاً وَأَضْوَاءُ مِنَ الشَّمْسِ الطَّالِعَةِ يَغْبِطُهُمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَكُلُّ نَسَبٍ مُرْسَلٍ يَقُولُ النَّاسُ مَنْ هَؤُلَاءِ فَيُقَالُ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ» - الكافي: ج ٢ ص ١٢٦.
- (٥٥) تفسير العياشي: مجلد ١ ص ١٦٨ ط طهران ومنه بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٩٥ والآية ٣١ من سورة آل عمران
- (٥٦) الكافي: ج ٢ ص ١٧٧، وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «مَنْ زَارَ أَحَاهُ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْطَرُّ بَيْنَ قُبَاطِيٍّ مِنْ نَوْرِ لَا يَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا أَضَاءَ لَهُ حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَرْحَبًا، وَإِذَا قَالَ لَهُ اللَّهُ مَرْحَبًا أَجْرَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْعَطِيَّةَ» - الكافي: ج ٢ ص ١٧٧.
- (٥٧) الكافي: ج ٢ ص ١٢٦
- (٥٨) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١٩٠، الكافي: ج ٢ ص ٢٣٦

المنزل (٢٨)

آثارُ الحُبِّ عندِ الحُبِّ

لحب الله تعالى آثار، من جملتها:

الأثر الأول: طلب اللقاء وعدم كراهة الموت

سأل أبو ذر رسول الله ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟! قال ﷺ: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً، يا أبا ذر إذا دخل النور القلب انفسح القلب واستوسع»، قال: فما علامة ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟! قال ﷺ: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١)!!

وقال رسول الله ﷺ: «تُحَفُّهُ الْمُؤْمِنُ الْمَوْتُ»^(٢)، فالموت تحفة يتحف الله بها المؤمن ويحبه ويكرمه ليقوده من العالم الأدنى إلى العالم الأعلى حيث الرحمة والرضوان والخلود في نعيم مقيم مع الأنبياء والأولياء وجنة أبدية يتبوأ منها حيث يشاء، ولهذا فالمحب الصادق لله تبارك وتعالى لا يطلب الموت لذاته بل يراه مغبراً للقاء محبوبه ومفتاحاً لانطلاقه من مضيق سجن الدنيا وظلماتها^(٣) وقيودها وأغلالها إلى فسيح عالم الآخرة وأنوارها.

تو بمير ای خواجه قبل از مردنت

تا نبینی زحمتِ جان کندنت^(٤)

وقد يكون المراد بالموت في الحديث النبوي إما الموت الطبيعي أو الموت الاختياري، فالعابد الزاهد المحجوب عن معرفة الحقائق اليقينية يحصل له اللقاء مع ربه ولكن بالموت الطبيعي والعارف بالله الذي يقطع المنازل ويرتقي في المقامات في السير والسلوك إلى الله تعالى في الحياة الدنيا وينغمر في حب

الله تعاليفلم يشاهد سوى الحق هو المقرَّب عند الله وفي لقاء معه في كل أحواله ويشاهده في كل ظهور من ظهوراته وتجلُّ من تجلياته من حيث أسمائه وصفاته وأما المحجوب الذي حجب قلبه عن ذكر الله وأعماه عن حبه وخرج من عبوديته له واشتغل عنه بما سواه فلا أمل له في لقاء الله تعاليعلى الإطلاق لا في الدنيا ولا في الآخرة كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٦) ولذا يكره لقاء الله وبالتالي يكره الموت المحتوم عليه، يقول الحي الباقي سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٧).

قام رجل إلى الحسن بن علي عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله، ما بالنا نكره الموت ولا نحبه؟! فقال عليه السلام: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ أَخْرَبْتُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النَّقْلَةَ مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْحَرَابِ»^(٨).

وعلى هذا فإن حب لقاء الله يتفاوت حسب مراتب حب الله سبحانه، فمن استغرق في حبه لله واشتد منه الوجد والشوق والحنين إلى لقائه ورؤيته فهو أشد حبا بلقاء الله وأكثر سرورا برؤيته يوم الورود عليه، وأما من شابت حبه لله شائبة وشغلت زاوية من زوايا قلبه محبة لغير الله فعلى قدر تعلقه بهذا الشاغل والمحجوب يضعف شوقه وحبه للقاء الله سبحانه.

يقول سيدنا الأستاذ الكامل العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسير الكريمة المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٩):

«إِنَّ الْوَلِيَّ يَحِبُّ لِقَاءَ وَلِيِّهِ، وَمَنْ أَيْقَنَ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَلَا حَاجِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا الْمَوْتُ، فَأَحَبُّ الْمَوْتِ وَتَمَنَّى أَنْ يَحِلَّ بِهِ فَيَدْخُلَ دَارَ الْكِرَامَةِ وَيَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا الَّتِي مَا فِيهَا إِلَّا الْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْمِحْنَةُ وَالْمُصِيبَةُ، وَأَمَّا الظَّالِمُ فَلَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَحِبُّ لِقَاءَهُ، وَلَا مَحَبَّةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ»^(١٠).

وقد ذكر في تفسير علي بن إبراهيم أن في التوراة مكتوبا: «أَوْلِيَاءُ اللَّهِ يَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ»^(١١)!!

ويقول سيد الأَوْلِيَاءِ الفانين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «والله لا بَنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْسَ بِالْمَوْتِ مِنَ الطُّفْلِ بِشَدِيٍّ أُمَّهُ»^(١٢)، ويقول عليه السلام أيضا: «لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِينًا»^(١٣)!!

الأثر الثاني: إيثار رضا الله وإرادته على رضا النفس وإرادتها

لما يدرك العبد أن الحق سبحانه وتعالى أرأف به من نفسه وأرحم، وأخبر منه بمصلحته وأعلم،

ولا يقع منه شيء إلا ما كان فيه الخير والنفعة وإن كان ظاهره يخالف الطبع، كيف لا يقدم رضا الله وما يفعله فيه ويريده منه ويقسم له من الرزق على رضا نفسه وإرادتها لاسيما إذا كان العبد عارفا بالله ومجبا مخلصا في حبه لله!! فاستغراق العبد في حب الله وحيأؤه منه وهيبته عند مشاهدته وتعظيمه له يمنعانه من أن يؤثر شيئا على رضا محبوبه ومولاه، بل يرى أن كل ما يفعله المحبوب محبوب.

ومما أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى ﷺ وقال: «يا موسى إِنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الرِّضَا بِقَضَائِي»، فخير ما يتقرب به المحب إلى محبوبه والعبد إلى مولاه هو العمل على كل ما يحبه وبلوغ منتهى رضاه وتقديم الرضا بقضائه على رضا النفس بما تشتهييه وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه وإن كان ذلك مخالفا لرضا نفسه.

يروى أن عيسى ﷺ مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه، فقال له عيسى ﷺ: يا هذا أي شيء من البلاء تراه مصر وفا عنك؟! فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدقت، هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى ﷺ وتعبَّد معه (١٤).

الأثر الثالث: الحضور وعدم الغفلة

فمن آثار حب الله تعالى عدم استيلاء الغفلة على القلب والالتفات إلى غير الله بل اليقظة والتوجه والجلوس مع الحق على بساط الأنس والتجلي والحضور التام معه والغيبة الكلية عمن سواه والمراقبة الدائمة له والاشتغال بذكره سواء كان الذكر ذكرا لسانيا أو ذكرا قلبيا وسواء كان ذكره سبحانه أو ذكر ما يتعلق به أو ما كان مظهرا من مظاهره من رسول أو ولي أو تلاوة قرآن، وكلها مقامات رفيعة عزيزة المنال تستلزم الأدب مع الحق المعبود سبحانه كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ (فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ) فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١٥)، وهذا لا يكون للعبد إلا بحصوله غاية المعرفة بالله والإقبال بكلمة على الله وتخليه عن كل ما سواه من علاقات وشهوات وشواغل مادية وحظوظ نفسانية.

قال صادق الآل جعفر بن محمد ﷺ: «إِذَا تَخَلَّى الْمُؤْمِنُ مِنَ الدُّنْيَا سَمَا وَوَجَدَ حَلَاوَةَ حُبِّ اللَّهِ وَكَانَ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا كَأَنَّهُ قَدْ خُوِلَطَ وَإِنَّمَا خَالَطَ الْقَوْمَ حُبُّ اللَّهِ فَلَمْ يَشْتَغَلُوا بِغَيْرِهِ» (١٦)، فمن أخرج حب ما سوى الله عن قلبه وقطع كل علاقة جسمية أو شهوة ظلمانية استقر حب الله فيه واشتغل به عمن سواه.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تمنطق به فقال ﷺ: «انظروا إلى الرجل الذي قد نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبْوَيْنِ يَغْدُوَانَهُ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ»^(١٧)!!

ذَكَرْتُكَ لَا أَنِّي نَسَيْتُكَ لَمَحَّةً

وَأَيْسَرُ مَا فِي الذُّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

فَكَدْتُ بِلَا وَجْدٍ أَمُوتُ مِنَ الْهَوَى

وَهَامَ عَلَيَّ الْقَلْبُ بِالْخَفَقَانِ

فَلَمَّا أَرَانِي الْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي

شَهَدْتُكَ مَوْجُوداً بِكُلِّ مَكَانٍ

فَخَاطَبْتُ مَوْجُوداً بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ

وَلَا حَظْتُ مَعْلوماً بِغَيْرِ عَيَانٍ

قال سيد الأحرار الحسين بن علي رضي الله عنهما في دعاء يوم عرفة: «أنت الذي أزلت الأغيار عن

قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك»!!

وقال رضي الله عنه: «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك»!!

وقال ولده السجاد رضي الله عنه في أحد أدعيته: «وفرغ قلبي لمحبتك واشغله بذكرك»^(١٨).

فبالحب الخالص لله سبحانه يستحيل أن يدخل العبد السالك في قلبه - وهو حرم الله - أحداً غير

الله^(١٩)، وعليه لا يغيب ربه عن بصر قلبه طرفة عين، بل إن العارف الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه يعدُّ

نفسه من الخاطئين المذنبين.

الأثر الرابع: المشاركة في مجالس ذكر الله والاجتناب عن مجالس معصية الله

وَالله مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرُبَتْ

إِلَّا وَذَكَرُكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي

وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أَحَدْتُهُمْ

إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَاسِي

فمما يورثه حب الله تبارك وتعالى هو الحضور في مجالس أهل الدين والمعرفة والصدق والأمانة

والصلاح والذكر الحسن، وقد قال علي بن الحسين رضي الله عنه: «مجالسة الصالحين داعية إلى

الصَّلاح»^(٢٠)، ثم الابتعاد عن مجالس أهل الريب والجهل والسفه والضلال والإعراض عن ذكر

الله فإنها مجالس باء أهلها بسخط من الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾^(٢١)، فعلى المحب لله عدم المشاركة في مجالس يكون الحديث فيها خوضاً في آيات الله واستهزاءً بعلومه ومعارفه واجتراءً على الله وعلى أوليائه وأجابه خاصة إذا لم يتيسر له إبطاله وتغييره كما قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِساً يُعْصَى اللهُ فِيهِ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهِ»^(٢٢)!!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ حَتَّى يَتَرَأَى لَهُ مَلَكَانِ الْكَاتِبَانِ عَمَلَهُ فَإِنْ كَانَ مُطِيعاً قَالَا جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْراً فَرُبَّ مَجْلِسٍ صَدِّقٍ أَجْلَسْتَنَا وَعَمَلٍ صَالِحٍ قَدْ أَحْضَرْتَنَا وَإِنْ كَانَ فَاجِراً قَالَا لَا جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْراً فَرُبَّ مَجْلِسٍ سَوْءٍ قَدْ أَجْلَسْتَنَا وَعَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ قَدْ أَحْضَرْتَنَا وَكَلَامٍ قَبِيحٍ قَدْ أَسْمَعْتَنَا»^(٢٣)!!
وعلى هذا فالجلساء الذين يألف المحب لله بالجلوس في مجالسهم ويأنس بالحضور معهم ويشعر بالقرب إلى الله تعالى هم من جاء وصفهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: قالت الحواريون لعيسى عليه السلام يا روح الله مَنْ نَجَالِسُ؟ قال عليه السلام: مَنْ يُدَكِّرُكُمْ اللهُ رُؤْيَتُهُ وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقَهُ وَيُرَغِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ»^(٢٤)!!

وخير المجالس ما ذكر فيها أهل البيت عليهم السلام وآثارهم وسيرتهم والذين وصفهم الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد بـ «أهل الذكر»، فهم منار العلم ومعدن التنزيل والتأويل وذكرهم ومجالستهم هو ذكر الله ومجالسته، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...﴾^(٢٥)، وإحياء أمرهم هو إحياء للقلوب كما قال مولانا أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِساً يُحْيِي فِيهِ أَمْرَنَا لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ»^(٢٦)!!

الأثر الخامس: حب الخلوة مع الله

وَإِنِّي لِأَسْتَغْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ
لَعَلَّ خَيْالاً مِنْكَ يَلْقَى خَيْالِيَا
وَأُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي
أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيَا

كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: «يا ابنَ عِمْرَانَ كَذَبَ مَنْ رَعِمَ أَنَّهُ يُحْيِي فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ مُحِبُّ خَلْوَةٍ حَبِيْبِهِ، هَا أَنَا ذَا يَا ابْنَ عِمْرَانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَجْبَائِي إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ حَوَّلْتُ أَبْصَارَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَثَلْتُ عُقُوبَتِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ

يُحَاطَبُونِي عَنِ الْمَشَاهِدَةِ وَيُكَلِّمُونِي عَنِ الْحُضُورِ» (٢٧).

فالسالك إلى الله يجب أن يتفرد بذكر الله ويأنس بمناجاته، ومع غلبة الأُنس يعرض عن كل ما يشغله عن الحق وينعزل عن الخلق ويتجرد عن ملاحظة الغير ويسدل الحجب ويرخي الأستار بينه وبينهم ويلزم الخلوة والانفراد بحبيبه لتشرق أنواره على قلبه ويتنعم بلذيق مجالسته ومحاضرتة ويطلع على ما يكشف له من علمه وأسراره.

الأثر السادس: عدم الحزن على فقد شيء أو الفرح لحصول شيء

فالعارف المحب لله يخلي قلبه ونفسه عن كل همٍّ وشاغل سوى تعلقه بمحبوبه والخلوة به واللذة بذكره ومناجاته والبهجة بإشراقات أنواره وتجليات جماله على مرآة قلبه، ولهذا لا يجزئه فقد شيء ولا يسُرُّه إقبال شيء إلا ما كان لله وفي الله لأنه يعلم أن كل شيء ملك لله وحده يضعه حيث يشاء ويعطيه من يشاء، فإن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له وإن منعه منعه ما ليس له وهو الجواد إن أعطى وإن منع ولهذا لا تؤثر فيه العوارض والأسباب وظواهر الأمور بأن يرى نفسه دون الآخرين في المال والثروة والمنصب فيحزن عليها ويتألم بل يكون حزنه على طاعة مقربة تركها أو مستحبات لم يؤدها أو معصية ارتكبها أو مكروهات عملها أو أضرار ساعة مضت خلت عن ذكر الله، وكما قيل: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَتَحَسَّرُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَتَحَسَّرِهِمْ عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ» (٢٨)!!

الأثر السابع: الرجاء والخوف

وهي من الآثار اللازمة للمحب لله، قال الصادق عليه السلام: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ عَارِفًا كَانَ مِنَ اللَّهِ خَائِفًا وَإِلَيْهِ رَاجِعًا» (٢٩).

فأما الرجاء فإنه لا يكون إلا بعد تهيئة المقدمات وتمهيد الأسباب الداخلة تحت إرادة العبد من الإيمان والجهاد ومحبة الله وخلوص القلب وصدق العمل وغيرها ومن ثم انتظار الفضل والإحسان وسعة الرحمة من الملك المَنَّان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٠).

وأما الخوف فهو تألم القلب لتوقع مكروه في المستقبل، وللخوف مراتب، فخوف العوام من عذاب الله وانتقامه وسخطه، وخوف المحبين وأرباب القلوب من خطر بعده وفراقه وإعراضه لما أعطتهم المعرفة بصفاته وأسائه من الهيبة والعظمة والإجلال وما عرفوه من حقيقة كلمة: ﴿... وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ

نَفْسُهُ... ﴿٣١﴾، فأعلم الناس بالله أخوفهم له، ولذلك قال النبي ﷺ: «أنا أخوفكم لله» لأنه أشدهم حبا لله وأعلمهم به فأخوفهم له.

وقال الصادق عليه السلام: «حُسْنُ الظَّنِّ بالله أَنْ لَا تَرْجُو إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ» ﴿٣٢﴾، فالعارف المحب يرى أن الذنب ظلمة والظلمة حجاب والحجاب بُعد والبعد عذاب ﴿٣٣﴾.

هذا وللرجاء حد وللخوف حد، فإذا تجاوز الرجاء إلى الأمن فهو خسران مبین، وإذا تجاوز الخوف إلى القنوط واليأس فهو كفر وضلال، ولا بد من الاعتدال في كفتيهما فلا يغلب الرجاء على الخوف ولا الخوف على الرجاء، فعن الإمام الباقر عليه السلام: «لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ نُورٌ مِنْ خَيْفَةٍ وَنُورٌ مِنْ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» ﴿٣٤﴾!!

مرض رجل من الأنصار فأتاه النبي ﷺ يعوده فوافقه وهو في الموت فقال ﷺ: كيف تجددك؟! قال: أجدني أَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّي وَأَتَخَوَّفُ مِنْ ذُنُوبِي، فقال النبي ﷺ: مَا اجْتَمَعَتَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ رَجَاءَهُ وَأَمَنَهُ حَوْفَهُ ﴿٣٥﴾.

ومن دعاء الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «اللَّهُمَّ أَيَقْنَتُ أَنْكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ» ﴿٣٦﴾.

الأثر الثامن: الشفقة والرأفة على عباد الله والرحمة والتذلل لأولياء الله والتعزز والشدة على أعداء الله

إن الشفقة والرأفة والود والرحمة من صفات الباري عز وجل، ولا شك أن المحب يتطلع دوما إلى التشبه بمحبوبه في جميع صفاته، فإذا ورث القلب حب الله تبارك وتعالى كان المحب يقظ الإحساس رقيق القلب على عباد الله وخلقه بعيدا عن الشدة والقسوة مشفقا محسنا رؤوفا رحيا بمن أمره الله برحمته مشاركا إياهم بوجدانه خافض الجناح لهم لا سيما الفقراء والمساكين منهم وأهل الاحتياج والفاقة فيخف إلى مساعدتهم ويهرع إليمواساتهم، وهذا ما يرضي الله سبحانه ولا غاية للمحب سوى رضا المحبوب، وقد روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك فأوحى الله تعالى إليه: «إِذَا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تُحِبُّ الْمَسَاكِينَ وَتُبْغِضُ الْجَبَّارِينَ فَذَلِكَ آيَةٌ رِضَايَ» ﴿٣٧﴾!!

وفى كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر رضي الله عنه لما ولاه على مصر: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعًا ضَارِيًا نَعْتَنِمُ أَكْلَهُمْ

فإنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخْ لَكَ فِي الدِّينِ أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الخَلْقِ.... فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ
وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ» (٣٨)!!

ولما كان للفقر كراهة جليّة في النفس البشرية فعلى السالك إلى الله أن يسأل ربه أن يحب إليه صحبة
الفقراء ومعاشرتهم ومجالستهم لما في ذلك من ترويض للنفس وتركيتها بالصبر والتواضع وصيانتها
من الخوض في ملذات الدنيا، ويقول كما قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعائه:
«اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيَّ صُحْبَةَ الْفُقَرَاءِ وَأَعِنِّي عَلَى صُحْبَتِهِمْ بِحُسْنِ الصَّبْرِ» (٣٩) اتباعاً
لقوله تعالى في محكم كتابه مخاطباً خاتم أنبيائه عليه السلام: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَيْشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن
ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَاً» (٤٠)!!

وفي حديث ليلة المعراج قال تعالى لنبية عليها السلام: «يا أحمَد، إنَّ المَحَبَّةَ هِيَ المَحَبَّةُ لِلْفُقَرَاءِ
والتَّقَرُّبُ إِلَيْهِمْ، قال عليه السلام: يَا رَبِّ وَمَنِ الْفُقَرَاءُ؟! قال تعالى: «الَّذِينَ رَضُوا بِالْقَلِيلِ وَصَبَرُوا عَلَى
الجوع وشكروا عَلَى الرِّخَاءِ وَلَمْ يَشْكُوا جوعَهُمْ وَلَا ظَمَأَهُمْ وَلَمْ يَكْذِبُوا بِالسِّنَّتِهِمْ وَلَمْ يَغْضَبُوا
عَلَى رَبِّهِمْ وَلَمْ يَغْتَمُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ وَلَمْ يَفْرَحُوا بِمَا آتَاهُمْ» (٤١)!!
ومن آثار حب الله تعالى المودة للمؤمنين والتذلل لأولياء الله الصالحين والبغض لأعداء الله
والمخالفين كما جاء في قوله تعالى: ﴿... أَشَدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ...﴾ (٤٢) وقوله تعالى:
﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٤٣).

الأثر التاسع: كتمان حبه لله

صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ أَنِّي وَاللَّهِ
غَيْرَ أَن لَمْ يَعْلَمُوا حُبِّي لِمَنْ!!

وهذا الأثر من أبرز الآثار عند الخواص والسالكين إلى الله والعارفين المحبين الذين تجردوا عن
الخلق واتصلوا بالحق فلم يحبوا إلا الله ولم يعرفوا إلا الله ولم يأنسوا إلا بحب الله، فسانوا قلوبهم أن
يدخلها إلا ربهم وسترها في نفوسهم وحجوا محبتهم له في قلوبهم وكتموها عن غيرهم
تعظيماً لشأنه وغيره لجنابه.

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ سِرٌّ لَيْسَ يُفْشِيهِ
قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلْخَلْقِ يَحْكِيهِ (٤٤)

وكانت من وصايا سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي عليه السلام لتلاميذه: الكتمان، الكتمان، الكتمان!!

وقد جاء في بعض رسائل الحكيم الإلهي صدر المتألهين الشيرازي (قده) هذا البيت:

نالہ و فریادم از حد در گذشت

يك كس از حال درون واقف نگشت^(٤٥)

ونعم ما قيل: «لَوْلا حُضُورُ الْأَغْيَارِ مَا كَانَتِ الْأَسْرَارُ»!! فلو كان للكل أهلية الوصول إلى الأسرار ومعدن الأنوار لتجلت كل الحقائق عن بطون الأستار وظهرت جميع المعاني عن طي الاحتجاب والكتمان ولم يكن للأسرار في ديار القلوب مكان!!

ونختم بحثنا في هذا المنزل بشميم عطرٍ من مسك حديث مولانا ومقتدانا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في حب الله تعالى وآثاره:

قال الصادق عليه السلام: «حُبُّ اللَّهِ إِذَا أَضَاءَ عَلَيَّ سِرٌّ عَبْدٍ أَخْلَاهُ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ وَكُلِّ ذِكْرٍ سِوَى اللَّهِ عِنْدَ ظُلْمِهِ وَالْمَحِبُّ أَخْلَصَ النَّاسَ سِرًّا لِلَّهِ وَأَصْدَقَهُمْ قَوْلًا وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا وَأَزْكَاهُمْ عَمَلًا وَأَصْفَاهُمْ ذِكْرًا وَأَعْبَدُهُمْ نَفْسًا تَتَبَاهِيَ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مُنَاجَاتِهِ وَتَفْتَخِرُ بِرُؤْيَيْتِهِ وَبِهِ يَغْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِلَادَهُ وَبِكِرَامَتِهِ يُكْرِمُ عِبَادَهُ وَيُعْطِيهِمْ إِذَا سَأَلُوا بِحَقِّهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ بِرَحْمَتِهِ فَلَوْ عَلِمَ الْخَلْقُ مَا مَحَلَّهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَنْزِلَتَهُ لَدَيْهِ مَا تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِتَرَابِ قَدَمَيْهِ»^(٤٦)!!

«إلهي مَنْ ذَا الَّذِي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً وَمَنْ ذَا الَّذِي أنس بقربك فابتغى عنك حولا إلهي فاجعلني مِمَّنْ اصطفيتَه لقربك وولایتك وأخلصتَه لودك ومحبتك وشوقته إلى لقائك ورصيتَه بقضائك ومنحته بالنظر إلى وجهك وحبوته برضاك وأعدته من هجرتك.....»^(٤٧)!!

الهوامش

- (١) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٨٣
- (٢) بحار الأنوار: ج ٨٢ ص ١٧١
- (٣) كما جاء في قول رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ» - تحف العقول للحراني: ص ٥٣، معاني الأخبار: ص ٢٨٩، وعنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٩٧، عوالم العلوم: ج ١٧ ص ٣٥١، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٤٢، مكارم الأخلاق للطبرسي: ص ٤٦١
- (٤) الترجمة:

مَت قَبْل مَوْتِكَ حَتَّى

لَا تَرَى عَذَابَ نَزَعِ رُوحِكَ

- (٥) سورة المطففين: آية ١٥
- (٦) سورة الإسراء: آية ٧٢
- (٧) سورة الجمعة: آية ٨
- (٨) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٩
- (٩) سورة الجمعة: آية ٦ - آية ٧
- (١٠) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٩ ص ٢٦٧
- (١١) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٥

وقد يرى البعض أن هناك تعارضاً بين ما ورد في بعض الأحاديث والأخبار من حب لقاء الله تعالى - كما ذكرنا في بحثنا هذا - وما ورد في بعضها من ذم تمنّي الموت وكرهته - كما جاء في الحديث القدسي حيث قال الله تبارك وتعالى: «مَا تَرَدَّدْتُ فِي (عَنْ) شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي مَوْتِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ (عَنْ مَوْتِ الْمُؤْمِنِ) إِنْسَانِي لِأَحَبِّ لِقَاءِهِ وَيَكْرَهُهُ الْمَوْتُ (يَكْرَهُهُ الْمَوْتُ وَأَكْرَهُهُ مُسَاءَتَهُ) فَأَصْرَفُهُ عَنْهُ» - الكافي: ج ٢ ص ٢٤٦، ج ٢ ص ٣٥٢، الجواهر السننية في الأحاديث القدسية: ص ٢٤٩، ولرفع الشكوك والأوهام نذكر بعض الوجوه التي أشار إليها العلامة المجلسي رحمه الله في تحقيقه (بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٨، ج ٦٧ ص ١٥٦):

أولاً: ما ذكره الشهيد في الذكري من أن حب لقاء الله غير مقيد بوقت فيحمل على حال الاحتضار ومعاينة ما يجب فإنه ليس شيء حيثنأ أحب إليه من الموت ولقاء الله (كما ورد في الرواية أن رجلاً قال لأبي عبد الله ﷺ: أصلحك الله من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه!! قال ﷺ: نعم، قال: فوالله إنا لنكره الموت، فقال ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ حَيْثُ تَدَهَبُ إِنَّمَا ذَلِكَ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَقَدَّمَ وَاللَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَهُ وَهُوَ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ حَيْثُ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُهُ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

يُبَغِضُ لِقَاءَهُ» - بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٢٩، معاني الأخبار: ص ٢٣٦)، ويقول العلامة رحمه الله في تأويل الحديث القدسي أنه ورد من طريق الخاصة والعامة (راجع صحيح البخاري: ج ٨ ص ١٣٢) أن الله سبحانه يظهر للعبد المؤمن عند الاحتضار من اللطف والكرامة والبشارة بالجنة ما يزيل عنه كراهة الموت ويوجب رغبته في الانتقال إلى دار القرار فيقل تأذيه به ويصير راضيا بنزوله وراغبا في حصوله، فأشبهت هذه المعاملة معاملة من يريد أن يؤلم حبيبه ألما يتعقبه نفع عظيم فهو يتردد في أنه كيف يوصل هذا الألم إليه على وجه يقل تأذيه.

ثانيا: الموت ليس نفس لقاء الله فكراهته من حيث الألم الحاصل منه وهما متغايران وكراهة أحد المتغايرين لا يوجب كراهة الآخر.

ثالثا: إن كراهة الموت إنما تدم إذا كانت مانعة من تحصيل السعادات الأخروية بأن يترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهجران الظالمين لحب الحياة والبقاء، والحاصل أن حب الحياة الفانية الدنيوية إنما يُدْمُ إذا أثرها على ما يوجب الحياة الباقية الأخروية.

رابعا: أن حب لقاء الله يوجب حب كثرة العمل النافع وقت لقائه وهو يستلزم كراهة الموت القاطع له واللازم لا ينافي الملزوم.

خامسا: أن العبد يلزم أن يكون في مقام الرضا بقضاء الله فإذا اختار الله له الحياة فيلزمه الرضا بها والشكر عليها فلو كره الحياة والحال هذه فقد سخط ما ارتضاه الله له وعلم صلاحه فيه وهذا مما لا يجوز وإذا اختار الله له الموت يجب أن يرضى بذلك ويعلم أن صلاحه فيما اختاره الله له فلو كره ذلك كان مذموما، وأما الدعاء لطلب الحياة والبقاء لأمره تعالى بذلك فلا ينافي الرضا بالقضاء وكذا في الصحة والمرض والغنى والفقر وسائر الأحوال المتضادة يلزم الرضا بكل منها في وقته وأمرنا بالدعاء لطلب خير الأمرين عندنا، فما ورد في خبر حب الموت إنما هو إذا أحب الله ذلك لنا وأما الاقتراح عليه في ذلك وطلب الموت فهو كفر لنعمة الحياة غير ممدوح عقلا وشرعا كطلب المرض والفقر وأشباه ذلك، وهذا وجه قريب يؤيده كثير من الآيات والأخبار والله تعالى يعلم.

(١٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٢١٣

(١٣) بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ١٥٣، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٧ ص ٢٥٣

(١٤) الحقائق في محاسن الأخلاق (للفيض الكاشاني): ص ١٤٧

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٧٦، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٣٨، نهج الفصاحة: ص ٦٥، مسند أحمد بن

حنبل: ج ٢ ص ١٣٢، حلية الأولياء لأبي نعيم الإصهاني: ج ٨ ص ٢٠٢، كنز العمال: ج ٣ ص ٢١ ح

٥٢٥٠

(١٦) الكافي: ج ٢ ص ١٣٠، المخالطة: اختلال العقل، وفي الحديث: خولط أي اختل عقله وخالط القوم حب

الله أي مزجهم وتخللهم.

(١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٥٦

- (١٨) الصحيفة السجادية: الدعاء الواحد والعشرون - دعاؤه إذا أحزنه أمر وأهمته الخطايا
- (١٩) قال الإمام الصادق عليه السلام: «الْقَلْبُ حَرَمٌ اللهُ فَلَا تُسْكِنُ حَرَمَ اللهِ إِلَّا اللهُ» - جامع الأخبار: ص ١٨٥
ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٥، كنز العمال: ج ١ ص ٢٥
- (٢٠) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤١
- (٢١) سورة الأنعام: آية ٦٨
- (٢٢) الكافي: ج ٢ ص ٣٧٤
- (٢٣) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١١٦
- (٢٤) الكافي: ج ١ ص ٣٩
- (٢٥) سورة النور: آية ٣٦
- (٢٦) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٩٩
- (٢٧) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٢٩، ج ٧٠ ص ١٤، أمالي الشيخ الصدوق: ط ١٩٧٠ المجلس ٥٧ ص ٣١٨
- (٢٨) مستدرک الوسائل: ج ٥ ص ٢٨٨
- (٢٩) مستدرک الوسائل: ج ١١ ص ٢٢٦
- (٣٠) سورة البقرة: آية ٢١٨
- (٣١) سورة آل عمران: آية ٢٨، آية ٣٠
- (٣٢) الكافي: ج ٢ ص ٧٢
- (٣٣) راجع مراتب الذنب والتوبة في (المنزل ١: التوبة عند المحب)
- (٣٤) الحقائق في محاسن الأخلاق (للفيض الكاشاني): ص ١٥٩، بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٢٦٠ مع اختلاف يسير في الألفاظ.
- (٣٥) أمالي الشيخ المفيد: المجلس ١٧ ص ١٣٨ ومنه مستدرک الوسائل: ج ٢ ص ١١٨
- (٣٦) من أدعية شهر رمضان للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام
- (٣٧) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦
- (٣٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٧ ص ٣٢
- (٣٩) الصحيفة السجادية: الدعاء الثلاثين
- (٤٠) سورة الكهف: آية ٢٨
- (٤١) إرشاد القلوب: ج ١ - ٢ باب ٥٤ ص ٢٠٠ - ٢٠١
- (٤٢) سورة الفتح: آية ٢٩
- (٤٣) سورة المائدة: آية ٥٤
- (٤٤) النجم الثاقب: ص ١٤٧
- (٤٥) الترجمة:

لقد عَلَّتْ صِيحْتِي عَنْ حَدِّهَا الْمَحْدُودِ

ولكن ما علم أحد بما في سري وباطني

(٤٦) مصباح الشريعة الباب ٩٧ ص ١٩٣ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٣

(٤٧) من مناجاة المحبين للإمام زين العابدين عليه السلام

الْمَنْزِل (٢٩)

الدِّفَاعُ عَنِ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ الْحُبِّ

للنفس الإنسانية والطبيعة البشرية صفات غريزية مطبوعة في ذات الإنسان ومتعلقة بفطرته وطبعه، ومن هذه الصفات المحبة، وهي ميل الطبع ورغبته في شيء يكون حصوله سببا للشعور باللذة والراحة، وكلما كان الشعور باللذة والراحة أقوى كانت المحبة لذلك الشيء أشد.

ولما كانت المحبة متوقفة على سبب من الأسباب المتعددة كانت أنواع المحبة مختلفة ومتعددة بتعدد الأسباب^(١)، ومن جملة أقسام المحبة حب المال وحب تملكه وجمعه وبغض إنفاقه وعلى الخصوص إذا لم يعد عليه بعائد عيني وعاجل، والسبب في ذلك أن النفس ممكن والممكن في أصل نشأته فقير وفي ذاته محتاج، وخوفه من الفقر والاحتياج كان إنفاقه كلفة على النفس وخارج عن دائرة الطبع، وقد دل على ذلك قوله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ...﴾^(٣) أي أن الشح والبخل والإمساك من صفات النفس الذاتية المرتبطة بها فطرةً، ومن هنا كان الدفاع عن المال فطري وذاتي.

وكذلك الإنسان بحسب أصلته وفطرته يميل إلى التكاثر في الأولاد والتباهي بهم والتفاخر بكثرتهم، فكان حبهم والميل إليهم ميل ذاتي وطبيعي، وبالتالي كان الدفاع عنهم دفاعا فطريا وغريزيا.

وأما حب النفس فهو أشد أنواع الحب الفطري وأقواها، فالإنسان مجبول على حب نفسه وكما لها وبقائها ودوام وجودها في الدنيا، ومن ثم يكره الموت لظنه أنه يوجب عدمه، وهي دواعي وبواعث إلى الدفاع عن نفسه بشتى الطرق والوسائل، وقد تنطوي تحت حب النفس والذات سائر أنواع الحب الأخرى، فحب المال ناشئ من الخوف من الفقر والفاقة وهي أمور متعلقة بالنفس، ومحبة الأولاد

ناشئة من الشعور بأن بقاءهم هو بقاء له بعد موته، وهذا أيضا متعلق بالنفس. وتدور بين هذه الأنواع من الحب أنواع أخرى من الحب الدنيوي والنفسي كحب الجاه والرياسة وحب المنصب والشهرة وحب المدح والثناء من الناس، ويسعى الإنسان إلى حصولها بما يملك من طاقات أشد السعي، وإذا حصل عليها يتشبث بها كل التشبث ويدافع عنها مدافعة من لا همَّ له سواها.

والتعلق بهذه الموارد وما شابهها إما أن تكون مذمومة أو محمودة، فإذا كانت الأموال والأهل والأولاد والأنفس والجاه والرياسة والمدح والثناء أسبابا للهو واشتغال القلب عن الله تعالى فهي مذمومة، أما إذا كانت قائمة على موازين إلهية ومعايير شرعية فهي محمودة ومقبولة، فالأموال الطيبة إذا كانت سببا لعمل البرِّ والتصدق والإنفاق في سبيل الله فهي محمودة كما ورد: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ»^(٤)، وإذا كان التكاثر في الأولاد وإبقاء النسل سببا في قوة شوكة الإسلام وغلخته وإبقاء لذكر الله تعالى ودوامه وإيجاد أفراد صالحين في المجتمع تعود أعمالهم الصالحة عليهم وعلى آبائهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿... وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَنَارَهُمْ...﴾^(٥) وقال رسوله ﷺ: «إذا مات ابنُ آدمَ (المؤمنُ) انقطعَ عملهُ إلاَّ منْ ثلاثٍ: ... وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ...»^(٦) فهو محمود، وإذا كانت الأنفس خاضعة بالعبودية لله تعالى مشغولة بالتزكية والتطهير عن درن الشهوات النفسية وكدر اللذات الدنيوية وكانت معرفتها سبيلا إلى معرفة الرب فهي في هذه الأحوال مقبولة ومحمودة، وأما الجاه والمنصب والرياسة والمدح والثناء من الناس إن كان حبها يستولي على القلب وينصرف الهمُّ إلى سعتها وشيوعها إشباعاً لحظوظ النفس أو حباً للتسلط أو إظهاراً للفضل على الغير أو تقرباً إلى الحكام والسلاطين فإنها من آثار الميل إلى الدنيا ونقصان في الدين بل هي آفات نفسانية مُردية، والتعلق بها منكر بالكلية ومذموم، ويكون من الصعوبة تركها والتخلص منها، أما إذا لم يكن الحرص من العبد على طلبه ولم يتحسّر بزواله فهو محمود.

سمع أمير المؤمنين ﷺ رجلا يقول اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فقال ﷺ: «أراك تتعوذ من مالِكِ وولَدِكِ، يقولُ اللهُ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ولكنْ قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتَنِ»^(٧)!!

وقد صرَّح القرآن الكريم في غير واحدة من الآيات المباركات أن التفاخر بالأنساب والأحساب والأموال والأولاد مذموم، فمن هذه الآيات ما كان إعلاما وتنبها كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...﴾^(٨)، ومنها ما كان اختبارا وفتنة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾^(٩) أي اختبرناكم

بهما إن كانت تحجبكم عنا أم لا، ومنها ما كان توييخا كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *﴾^(١١٠) أي ألهتكم زيتها الحياة الدنيا وهما المال والبنون وفتنتم بهما وشغلكم التفاخر بهما عما هو أهم وهو ذكر الله سبحانه والاستعداد للقاءه، ومنها ما كان تحذيرا وتهديدا كما في قوله تعالى: ﴿... لَا تُلْهِكُمْ أَوْلَادُكُمْ وَلَا أَمْوَالُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾^(١١١)!!

كل ذلك لأن الإنسان يرى أن الكمالات والمنافع والخيرات في المال أو الأولاد أو النفس أو غيرها من الأرزاق الدنيوية والنعم الوجودية والتعلقات الشهوانية الأخرى أو جميعها، فيدافع عنها حفظا لها من الفقد والضياع، ولكنه غافل عن المعرفة بأن هذه الأرزاق باقية بقاء بدنه في الدنيا والرغبة فيها فانية بفنائها، وأن حبها وحب ما شاكلها من المتعلقات النفسية المبعدة عن ذكر الله والآخرة ليست إلا حطاما زائلا وأمورا وهمية عرضية ومجازية غير حقيقية تشغل الإنسان عن ربه وطاعته وتلهيه عن تحصيل آخرته، وبالتالي كان الدفاع عنها أيضا دفاعا وهميا ومجازيا محضاً لا حقيقياً، وأن الخير الباقي والكمال الحقيقي وكل الخير والكمال ما كان في حب الله الواهب للعطايا والأرزاق كلها والدفاع عنه سبحانه وعن كل حق أمر سبحانه بالدفاع عنه، لأنه هو الحي الباقي وكل ما سواه فانٍ لا محالة.

وعلى هذا يمكن القول أن الدفاع إما أن يكون محموداً أو يكون مذموماً، فإذا كان حقاً وللحق وبالحق فهو محمود وإذا كان باطلاً وعلى الحق فهو مذموم.

يقول السيد العلامة الطباطبائي رحمته الله في حكم الدفاع: «والإسلام يحفظ من هذا الحكم أصله وهو ما للفطرة ويبطل تفاصيله أولاً ثم يوجهه إلى جهة الله سبحانه بصرفه عن كل شيء ثم يعود به إلى موارده الكثيرة فيسببك الجميع في قالب التوحيد بالإيمان بالله فيندب الإنسان أن يتعصب لرجاله ونسائه وذرائه ولكل حق بإرجاع الجميع إلى جانب الله، فالإسلام يؤيد حكم الفطرة ويهدبه من شوب الأهواء والأمانى الفاسدة ويصفي أمره في جميع الموارد ويجعلها جميعاً شريعة إنسانية يسلكها الإنسان على الفطرة ويخلصها من ظلمة التناقض إلى نور التوافق والتسالم»^(١١٢).

وأما المؤمن المحب لله فهو الذي أثر حب الله تعالى أو ما دعا الله تعالى إلى حبه على حب المال والأولاد والنفس وكل ما سوى الله، وأوجب على نفسه الفداء بها كلها في سبيل رضا محبوبه الحقيقي وهو الله عز وجل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه: «أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها»^(١١٣)!!

هر كس كه تو را شناخت جان را چه كند
فرزند و عيال و خانمان را چه كند
ديوانه كنى هر دو جهانش بخشى

ديوانه تو هر دو جهان را چه كند^(١٤)

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾^(١٥)، فالسالك المحب لله بعد تهذيب نفسه وتنقيتها واستنارة قلبه بالمعارف الإلهية والعقائد الإيمانية والفيوضات الرحمانية وانجذابه إلى عالم الربوبية يرى أن الخالق الذي أحسن كل شيء خَلَقَهُ أَهْلَ لِلْحَبِّ الْحَقِيقِيِّ، فهو الكمال المطلق اللامتناهي الذي لا يشوبه نقص والعالم المحيط الذي لا يشوبه جهل والقادر المقتدر الذي لا يشوبه عجز، ومن ثم يرى أن الدفاع عن المحبوب الحقيقي وكل ما يندرج حبه في حب الله سبحانه وتعالى هو الدفاع الحق دون سواه.

جاء في تفسير مجمع البيان للطبرسي (قده) في سبب نزول الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمُوا أَمْوَالَكُمُ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١٦) ما هو مروى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وأبي عبد الله الصادق عليه السلام:

نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أننزل على حكم سعد بن معاذ؟! فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوه، فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أي قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدَّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يجلُّني، فجاءه فحلَّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجّر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يجزئك الثلث أن تصدَّقَ به^(١٧)، فمن رجح أمر الله تعالى ورسوله على ماله وبنيه ولم يميل إلى التفریط في حبهما أوتي أجراً عظيماً.

وللدفاع عن الحق تبارك وتعالى طريقان متلازمان:

الطريق الأول: الدعوة إلى الحق ومخالفة أعدائه

وهو الجانب الخطابي في الدفاع عن الحق، فقد قال الحكيم في كتابه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾^(١٨)، فالله سبحانه وتعالى يأمر بإرشاد الخلق ومحاورتهم ودعوتهم إلى الحق بالوجوه الحسنة والموازن الحقة والشرائط المشروعة بأن يكون الغرض من الدعوة والتبليغ إقامة دين الله وإعلاء كلمته ويكون قلب الداعي قاصدا وجه الله تعالى مراقبا إياه في قصده طالبا رضاه وإن لم يوافق رضا الخلق خاليا من العُجب والرياء والترفع والكِبْر غنيا بالله عما في أيدي الناس متصفا بجميل الأدب وحسن المنطق لئِن الكلام متحلِّيا بالصفات التي ينادي بها متذكرا قوله تعالى: ﴿اتَّمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ...﴾^(١٩) سالكا سبيل ما يدعو إليه: ﴿... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢٠) فإنها أوقع في القلوب وأبلغ في الأثر.

وقد أوضحت الآية المباركة أن أساليب الدعوة والمحاورَة وإثبات الحقائق ثلاثة: الحكمة والبرهان أو الموعظة الحسنة أو المجادلة بالتي هي أحسن أو الجمع بين اثنين منها أو جميعها حسبما تقتضيه الظروف المحيطة وما يعود بالدعوة من الأثر وجلب الفائدة وقابلية المدعو في قبول الدعوة كما قال سيد المرسلين ﷺ: «إِنَّمَا مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ نُكَلِّمُ (أَمْرُنَا أَنْ نُكَلِّمُ) النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»^(٢١)!!

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله في تفسيره هذه الآية المباركة:

«وَكَذَا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ الطَّرِيقَ الثَّلَاثَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْآيَةِ مُتَرْتَبَةٌ حَسَبَ تَرْتِبِ إِفْهَامِ النَّاسِ فِي اسْتِعْدَادِهَا لِقَبُولِ الْحَقِّ، فَمِنَ النَّاسِ الْخَوَاصُّ وَهُمْ أَصْحَابُ النَّفُوسِ الْمُشْرِقَةِ الْقَوِيَّةِ الْاسْتِعْدَادِ لِإِذْرَاكِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ وَشَدِيدَةِ الْانْجِدَابِ إِلَى الْمَبَادِي الْعَالِيَةِ وَكثيرة الْأَلْفَةِ بِالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ فَهَؤُلَاءِ يُدْعَوْنَ بِالْحُكْمَةِ وَهِيَ الْبُرْهَانُ، وَمِنْهُمْ عَوَامُّ أَصْحَابِ نَفُوسٍ كَدِرَةٍ وَاسْتِعْدَادٍ ضَعِيفٍ مَعَ شِدَّةِ أَلْفَتِهِمْ بِالْمَحْسُوسَاتِ وَقُوَّةِ تَعَلُّقِهِمْ بِالرُّسُومِ وَالْعَادَاتِ قَاصِرَةٍ عَنِ تَلْقِي الْبَرَاهِينِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا مُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ وَهَؤُلَاءِ يُدْعَوْنَ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَمِنْهُمْ أَصْحَابُ الْعِنَادِ وَاللَّجَاجِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَيُكَابِرُونَ لِيُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ رَسَخَتْ فِي نَفُوسِهِمُ الْآرَاءُ الْبَاطِلَةُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمْ تَقْلِيدُ أَسْلَافِهِمْ فِي مَذَاهِبِهِمُ الْخُرَافِيَّةِ لَا يَنْفَعُهُمُ الْمَوَاعِظُ وَالْعِبْرُ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَائِقُ الْبَرَاهِينِ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَمَرَ بِمُجَادَلَتِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٢٢)!!

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده) في أسفاره: «الطَّرُقُ الثلاثةُ المذكورةُ في كتابِ الله أَحَدُهَا الْحِكْمَةُ الْبُرْهَانِيَّةُ لِلْكَامِلِينَ الْمُقَرَّبِينَ، وَالثَّانِي الْمَوْعِظَةُ الْخِطَابِيَّةُ لِأَهْلِ السَّلَامَةِ وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَالثَّلَاثُ الْمُجَادَلَةُ لِدَفْعِ شُبُهَةِ الضَّالِّينَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّمَالِ الْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ»^(٢٣)!!

هذا وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن الاستعانة بالباطل قولاً وفعلاً وإن كان يُعين على نصرته الحق وإظهاره وغلبته بأي وجه من الوجوه، فالباطل باطل في ذاته ولا يجتمع مع الحق بؤصلة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾^(٢٤) والمأمور به في الدعوة والتبليغ اتباع صريح الحق، والله الذي يُخَشَى وَلَا يُخَشَى غَيْرُهُ هو المعين والكافي والحسيب في هذا الصراط: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٢٥).

وأما الأسانيد والوسائل التي يستند إليها الداعي في محاورته مع مختلف طبقات المدعوين بالأساليب السالفة الذكر (الحكمة والموعظة والمجادلة) فهي ثلاثة: العلم والهدى والكتاب المنير، وحذَّر الحق تعالى عن المجادلة بغيرها كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(٢٦)، والمراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية، وبالهدى ما تفيضه الهداية الإلهية لمن أخلص لله في عبادته وعبوديته بالوحي أو الإلهام، وبالكتاب المنير الوحي عن طريق النبوة والرسالة السماوية، أو بمعنى آخر أن المراد بالعلم ما يعطيه الدليل العقلي والفكري من انكشاف الحقائق للقلب وبالهدى ما يتبين بالكشف والشهود والتجلي وبالكتاب المنير الوحي السماوي المظهر للحق.

روي في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَمَنْ خَاصَمَ الْخَلْقَ فِي غَيْرِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ فَقَدْ نَارَعَ الْخَالِقِيَّةَ وَالرُّبُوبِيَّةَ»^(٢٧)!!

ثم اجعل أيها السالك هذا الميزان نصب عينيك بأن الله تعالى يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴿... وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢٨).

الطريق الثاني: الجهاد في سبيل الحق ومحاربة أعدائه

وهو الجانب العملي للدفاع عن الحق، والمؤمن المحب لله المطيع لأمره ونهيه يسلك حينما يفتح الله له الأبواب بنوره ويهديه إلى مستقر رحمته ويدلُّه على دار كرامته، لأنه هو الخير والخير كله بيده وهو الغني ولا غني سواه ويريد أن يقرب عبده إليه درجة بعد درجة ومنزلاً بعد منزل حتى يدخله في عبادة

المقربين ويسكنه دار أوليائه المخْلِصين.

ومن الأبواب التي فتحها الله تعالى لتقريب عباده إليه الجهاد بالأموال وبذل الأنفس في سبيله والدخول في مسلك المدافعين عن دينه وتحمل الأذى في جنبه، فأمرهم أن لا يسلكوا طريقاً إلا ما كانت فيه المنفعة والربح الأكيد، بل دهم وأرشدهم على الطريقة المثلى وهي المعاملة الرايبة والتجارة المنجية من العذاب الأليم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *﴾ (٢٩).

فمن وسائل الدفاع عن المحبوب الحقيقي التضحية بكل ما كان حبه مجازياً من أموال وأنفس، والتاجر الحقيقي من تاجر مع الحق سبحانه وبيع نفسه الفانية بالوجود الباقي وضمين في تجارته الربح الأبدي والمغنم المؤكد والخير اللامتناهي، وأما من تاجر مع من سواه فما ربحت تجارته، وإن كانت ذات عائد فهو زائل ودائر والزيادة فيها وهم عابر.

ثم يقول الغني عن العالمين آمر عباده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ...﴾ (٣٠)، ويقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾ (٣١)، والمحبون لله لا يستمتعون بلذة إلا بما ترشح لهم من حب الله وما وجدوه في نفوسهم من الأُنس بالله، ولا غاية لهم إلا الاتصال بالمحبوب والفناء فيه، فلا يجوبون شيئاً إلا ما أحب الله ولا يريدون إلا ما أراد الله، ويسلمون أمرهم إلى مولاهم الحق ويلبون دعوته كيفما شاء، ولا يخافون في ذلك لومة لائم ﴿... يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (٣٢)، ولا يلقون بالمودة والمحبة إلى أعداء الله، ويرون أن الأموال والأنفس وكل ما عندهم عارية أعارها الله تعالى لهم وأمانة لا يملكونها ومأمورون بردها على أحسن وجه إلى صاحبها، وأيقنوا أن الدنيا غايتها الفناء وكل من فيها مرتحل عنها، وكما قيل «العبد وما يملكه لسيده»، فيقدمون جزيل الأموال رخيصة في سبيله ويتلفون نفائس الأرواح في ساحته إخلاصاً لكرم وجهه وحباً لنصرته وتلبية لدعوته وثباتاً على إعلاء كلمته وسعياً في مرضاته وابتغاء لجوار قربه.

هذا من ناحية العبد وما أمر به من الجهاد والنضال والدفاع عن الحق، وأما من ناحية الرب العزيز تبارك وتعالى فإنه وعد عبده وعداً جميلاً صادقاً وقضى له قضاءً حتمياً سابقاً بالتأييد والنصرة والفتح والغلبة، فقال له مبتدئاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٣٣) تقوية لقلبه وتسكيناً له، ثم قال عز اسمه: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٣٤)، أي لا ريب أن الغلبة محققة لأن الدفاع عن الحق حق والحق غالب أبداً غير مغلوب، بل جعل على نفسه حقاً لهم بنصرهم والانتقام لهم وقال: ﴿...﴾

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾، إنه نعم المولى ونعم النصير!!

والمحب المجاهد في الله مآل أمره أنه ينال إحدى الحسنين ويكرّم بإحدى السعادتين، والله جلّ شأنه يقول: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾، فإما أن تكون الغلبة على عدو الله والظفر به والتمكّن منه وحصول عظيم الأجر والثواب، أو العاقبة الحسنى بالقتل والاستشهاد في سبيل الله والانتقال إلى رحمته الواسعة والحياة عنده مع الرزق الطيب والنعيم المقيم!!

وقد وعد الله سبحانه وتعالى في آياته المباركة ووعدته حق وقطع وقوله صدق وحتّم أن ثمن بيع الأموال والأنفس هو الجنة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ ﴿٣٧﴾ وتبارك الذي بيده الملك بما فيها الأموال والأنفس والجنة، وانظر كيف هي رحمة رب العالمين بأن منح عباده الوجود والأنفس والأموال وغيرها من العطايا والهبات والأرزاق والخيرات ثم عطف عليهم وجذبهم إليه واشترى ملكه منهم ليمنحهم الجنة بل ويبشّرهم ببشارة عظيمة الشأن جليلة القدر تليق بساحة الربوبية المقدسة ويقول: ﴿... فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٣٨﴾.

وخير المصاديق التي مثّلت حقيقة الدفاع عن المحبوب وجسّدت معاني التضحية والفداء في سبيل المعشوق هو سيد الشهداء وأبو الأحرار أبو عبدالله الحسين عليه السلام الذي أنشد بروحه الزكية أنشودة العارفين فأحرق بها قلوب المحبين العاشقين:

تَرَكَتُ الْخَلْقَ طُرًّا فِي هَوَاكَ
وَأَيْتَمْتُ الْعِيَالَ لِكَيْ أَرَكَ
فَلَوْ قَطَعْتَنِي فِي الْحُبِّ إِرْبَاءً
لَمَا مَالَ الْفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَ

نعم هذا هو الحب الخالص والفناء الحقيقي في واجب الوجود المطلق والخير الأتم والرحمة الموصولة.

وكذلك أخوته وبنوه وصحبه الميامين أصحاب النفوس النيرة الذين شربوا من شراب الفناء في الذات الأحدية وتجردوا عن كل العلائق الدنيوية حتى تجلّت لهم أنوار الجمال البهّيّ وسبحات الجلال السّنيّ وغلبت عليهم لذة اللقاء وحرارة الشوق واستجابوا دعوة الحق وحاربوا أعداء الله وأعداء رسوله بنفوس مطمئنة وقلوب مبصرة حتى غدّوا سراجا للمحبين الثائرين ونبراسا للعاشقين المجاهدين على مرّ الدهور والسنين.

يقول المرحوم السيد جعفر الحلي (قده):

هُم فِتْيَةٌ قَدْ أَرْخَصُوا لِإِدَائِهِ
 أَرْوَاحَ قُدْسٍ سَوَّمْتَهُمْ خَطِيرُ
 هُمْ فِتْيَةٌ خَطَبُوا الْعُلَى بِسُيُوفِهِمْ
 وَلَهَا النُّفُوسُ الْغَالِيَاتُ مُهُورُ
 فَرِحُوا وَقَدْ نَعَيْتَ نَفُوسَهُمْ لَهُمْ
 وَكَأَنَّ لَهُمْ نَاعِي النُّفُوسِ بِشِيرُ
 رَكَضُوا بِأَرْجُلِهِمْ إِلَى شِرْكَ الرَّدَى
 وَسَعَوْا وَكُلُّ سَعْيِهِ مَشْكُورٌ^(٣٩)

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمْتَ سَبِيلًا مِنْ سُبُلِكَ فَجَعَلْتَ فِيهِ رِضَاكَ، وَنَدَبْتَ إِلَيْهِ
 أَوْلِيَاءَكَ وَجَعَلْتَهُ أَشْرَفَ سُبُلِكَ عِنْدَكَ ثَوَابًا وَأَكْرَمَهَا لَدَيْكَ مَأْبَأً وَأَحَبَّهَا
 إِلَيْكَ مَسْلَكًا، ثُمَّ اشْتَرَيْتَ فِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ
 فِي سَبِيلِكَ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْكَ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ،
 فَاجْعَلْنِي مِمَّنْ اشْتَرَى فِيهِ مِنْكَ نَفْسَهُ، ثُمَّ وَفَى بَبَيْعَتِهِ الَّذِي بَايَعَكَ عَلَيْهِ، غَيْرَ
 نَاكِثٍ وَلَا نَاقِضٍ عَهْدًا وَلَا بَدَلٍ تَبْدِيلًا إِلَّا اسْتَنْجَازًا لَوَعْدِكَ وَاسْتِجَابًا لِحَبَّتِكَ
 وَتَقَرُّبًا بِهِ إِلَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْهُ خَاتِمَةَ عَمَلِي، وَارْزُقْنِي فِيهِ
 لَكَ وَبِكَ مِنَ الْوَفَاءِ مَشْهُدًا تُوجِبُ لِي بِهِ الرِّضَا وَتُحِطُّ بِهِ عَنِّي الْخَطَايَا،
 وَاجْعَلْنِي فِي الْأَحْيَاءِ الْمَرْزُوقِينَ بِأَيْدِي الْعُدَاةِ الْعُصَاةِ تَحْتَ لِيَاءِ الْحَقِّ وَرَايَةِ
 الْهُدَى، مَاضٍ عَلَى نُصْرَتِهِمْ قَدِيمًا غَيْرَ مُوَلِّ دُبْرًا وَلَا مُحَدِّثٍ شَكًّا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٤٠)!!

الهوامش

(١)

قسم بعض علماء الأخلاق الحب - حسب مسبباته - إلى أقسام هي كالتالي:

١- حب النفس ووجودها وبقائها، وهي أشد أنواع الحب، حيث أن حب الشيء لا يحصل إلا بسبب ملاءمته للطبع ومعرفته واتحاده بالمحب حتى يصير محبوباً، وبلا شك أن لا شيء أكثر ملاءمة للطبع ومعرفة لدى الإنسان واتحاده به من النفس، فكان حبها أشد أقسام الحب، لذا يغفل صاحبها عن حقيقة الموت بل يعتبره ألد أعدائه، ويندرج تحت هذا القسم حب الأهل والأولاد والأقرباء.

٢- حب الغير من جهة حصول لذة جسمية حيوانية، كحب المرأة والرجل وحب الأتعمة والألبسة الفاخرة وغيرها، وتعدُّ من أضعف مراتب الحب.

٣- حب الغير من جهة إحسانه.

٤- حب الشيء لذاته، كحب الجمال والخضرة والماء وأمثالها.

٥- محبة الغير من جهة معنوية خفية وإن لم يتقابلا.

٦- محبة الغير من جهة الألفة كالحاصلة في الأسفار الطويلة.

٧- محبة الغير من جهة السخية، كمحبة الطفل للطفل والشيخ للشيخ وأمثال ذلك.

٨- محبة العلة والصانع للمعلول والمصنوع والعكس، كالمحبة بين الوالد والولد والعالم والمتعلم وأعلامها مرتبة حب الحق للخلق وحب أهل المعرفة للحق سبحانه.

٩- محبة الغير من حيث المعلولية لعلة مشتركة والمصنوعية لصانع مشترك، كحب الإخوان والتلامذة بعضهم بعضاً من حيث الاشتراك في الوالد أو المعلم.

وأكثر الأقسام المذكورة فطرية وطبيعية وأعلامها مرتبة محبة الله تعالى والمنسويين إليه من الأنبياء والأوصياء والأولياء وهي المحبة الحقيقية، وهذا لا يكون إلا في مقام المقرين - المقامات العلية (الشيخ عباس القمي):

ص ١٧٠

(٢) سورة المعارج: آية ٢١

(٣) سورة الحشر: آية ٩، سورة التغابن: آية ١٦

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٦٠

(٥) سورة يس: آية ١٢

(٦) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١٠، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٢ وجاء بلفظ «المؤمن».

(٧) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٢٥، وورد في شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ج ١٨ ص ٢٤٨ أنه ﷺ قال:

«لا يقولنَّ أحدكم اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الفِتْنَةِ لأنَّه لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمَلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مِنْ اسْتِعَاذٍ فَلَيْسَتْ عِدٌّ مِنْ مُضَلَّاتِ الْفِتْنِ!!»

(٨) سورة الحديد: آية ٢٠

- (٩) سورة التغابن: آية ١٥
- (١٠) سورة التكاثر: آية ١ - آية ٢
- (١١) سورة المنافقون: آية ٩
- (١٢) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ٤ ص ٤٢٠
- (١٣) من خطبة لأمر المؤمنين ﷺ في صفات المتقين المعروفة بخطبة همام - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٣٣
- (١٤) الترجمة:
من عرفك ما يفعل بالروح أم ما يفعل بالأولاد والزوجة والسكنى!!
وقد ابتليته بالجنون من منحته الدنيا والآخرة ولكن ما يفعل بهما من كان مجنوناً بك!!
- (١٥) سورة البقرة: آية ١٦٥
- (١٦) سورة الأنفال: آية ٢٧
- (١٧) مجمع البيان: مجلد ٢ ص ٥٣٥ - ص ٥٣٦ طبعة بيروت ١٣٧٩ هـ
- (١٨) سورة النحل: آية ١٢٥
- (١٩) سورة البقرة: آية ٤٤
- (٢٠) سورة يونس: آية ٣٥
- (٢١) بحار الأنوار: ج ١ ص ٨٥، محاسن البرقي: كتاب مصابيح الظلم ص ١٩٥، سفينة البحار: ج ٢ ص ٢١٤
- (٢٢) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٢ ص ٣٧٣، ومن يرغب مزيداً من التوضيح حول بيان معاني الطرق الثلاثة ومواردها يرجع إلى تفسير الآية المباركة في «الميزان في تفسير القرآن».
- (٢٣) الأسفار الأربعة: المجلد ٧ ص ٨٦
- (٢٤) سورة البقرة: آية ٤٢
- (٢٥) سورة الأحزاب: آية ٣٩
- (٢٦) سورة الحج: آية ٨، سورة لقمان: آية ٢٠
- (٢٧) كنز الدقائق وبحر الغرائب (للشيخ محمد القمي المشهدي): المجلد ٩ ص ٥٠ ط ١
- (٢٨) سورة آل عمران: آية ٢٠
- (٢٩) سورة الصف: آية ١٠ - آية ١٢
- (٣٠) سورة الصف: آية ١٤
- (٣١) سورة الحج: آية ٧٨
- (٣٢) سورة المائدة: آية ٥٤
- (٣٣) سورة الحج: آية ٣٨
- (٣٤) سورة الصافات: آية ١٧٣

- (٣٥) سورة الروم: آية ٤٧
- (٣٦) سورة آل عمران: آية ١٥٧
- (٣٧) سورة التوبة: آية ١١١
- (٣٨) سورة التوبة: آية ١١١
- (٣٩) معالي السبطين: ج ١ ص ٢٠٧
- (٤٠) من دعوات أمير المؤمنين عليه السلام عند القتال - بحار الأنوار: ج ٩٨ ص ١٢٦

المنزل (٣٠)

المراقبة عند الحب

اعلم أيها السالك أن المراقبة شرط من الشروط الحتمية ولازمة من اللوازم المؤكدة للسلوك إلى الله تعالى، بل أهمها وأعظمها، وقد أكد مرشدنا الأجلاء ومشايخنا العظماء على الالتزام بها والمحافظة عليها وعدم تركها والاستخفاف بها.

وقد كان سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمته الله حريصاً على لزوم المراقبة، حتى أنه حينما حضره الوفاة سأله أحد تلامذته أن يوصيه بوصية فقال: «المراقبة المراقبة المراقبة!!» وإن دل قوله هذا على شيء فإنما يدل على جليل مرتبة المراقبة وعظيم خطرها.

وطويته، والنظر في أعماله من حيث صلاحها وخلوصها لله تعالى، وحفظها حق محافظتها عن كل ما يفسدها من شرك ورياء، والحذر من النفس والشيطان، والعلم بأنهم عدوٌّ أن له، وأنها يتحيان الفُرس حتى يجرّانه إلى مواطن الغفلة ومواقع المخالفة، ويدعوانه إلى المزيد من التعلق في حاضر الدنيا والاسترسال في لذات العيش بلا حدود والغفلة عن الغد الموعود، والعلم بأن الله تعالى رقيب عليه شاهد له في الليل والنهار والسر والعلانية، وأن أسرار القلوب لديه مكشوفة وخفايا الصدور معلومة، فعليه إخطار هذه الأمور على باله لكيلا يتجاوز حدود ما شرعه الله تعالى فيُقدم على ارتكاب سيئة أو يقع في مخالفة، ولكيلا يشغله شاغل أو يعيقه عائق في طريق سلوكه إلى الله تعالى.

ومصائد الشيطان لا تكون إلا حيث يكون الإهمال في طاعة الله والغفلة عن ذكره والاستهانة بأمره، ومع المراقبة ودوامها واللجوء إلى الله تعالى بكمال العبودية له يقدر السالك أن يعرف سبل الشيطان وحبائل وسوسسته فيجتنبها ومشتبهات النفس ونوازعها فيقمعها، فالنفس إذا أرسلت استرسلت وإذا قيّدت تقيّدت، والشيطان إذا انكشفت حيله ومكامنه كان كيده وهناً ضعيفاً، فاحرس قلبك من

أهواء النفس ووساوس الشيطان، ولا تجعل لهما على قلبك سلطانا وسيلا، وقف منها موقفا حذرا حازما، واحفظ وقتك واحذر أن تضيع شيئا منها دون ذكر الله تعالى ومراقبته بلسانك وقلبك. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَقْمَنُ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾^(۱)، فله عز وجل الأمر جميعا، وهو المهيمن والمحيط والسلطان على كل نفس، والحافظ لكل ما عملت من خير وشر وآثارها، ومن دقيق وجليل وتبعاتها، في صحائف حسناتها وسيئاتها، جازيا لها بأحسن الثواب والنعمة أو أشد العذاب والنعمة، فهل بعد ذلك يأمن العبد أن يترك نفسه هائمة ضالة بلا محاسبة ولا مراقبة!!

ويقول العزيز الحكيم في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *﴾^(۲)!!

والآيتان الكريمتان تندبان عباد الله المؤمنين بلزوم المراقبة والمحاسبة وذكر الله تعالى في الحياة الدنيا والحرص على إدامتها واستمرارها وعدم مفارقتها والغفلة عنها استعدادا للقاء الله تعالى، فبحسبها تكون للعاقبة مرتبتان لا تستويان، إما الفوز في الدنيا والآخرة والدخول في أصحاب الجنة، أو الخسران في الدنيا والآخرة والدخول في أصحاب النار.

والأمر بالمراقبة هنا للنفس أن تنظر إلى صالح عملها اليوم في دار الدنيا والتي هي زادها وذخيرتها لغد في دار الآخرة، وأن تجعل الله تعالى غاية حركتها ونهاية مقصدها بدوام ذكره والتشديد في مراقبته، والسير في الحياة سيرا معتدلا لا منحرفا، فلا ينسى العبد ربه طرفة عين أبدا فينسى نفسه ويفقد صوابه ويضل طريقه ومن بعده يسقط في وادي البوار ومستنقع الهلاك الأبدي.

در مقامی که کنی قصد گناه

گر کند کودکی از دور نگاه

شمرمت آید، ز گنه در گذری

پرده عصمت خود را ندردی

شرم بادت که خداوند جهان

کو بود واقف اسرار نهان

نظرش در تو بود بیگه وگاه

تو کنی در نظرش قصد گناه^(۳)

وعن إسحق بن عمار قال قال الصادق عليه السلام: «يا إسحق خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت وإن كنت تعلم أنه

يَرَاكَ ثُمَّ بَرَزَتْ لَهُ بِالْمَعْصِيَةِ فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْوَى النَّاطِرِينَ عَلَيْكَ»^(٤)!!
والقلب - كما يقول أرباب البصائر من مشايخ العرفان - ميزان العارفين في الدنيا وهو أرجح الموازين، وجنتهم إقبال قلوبهم على الحق ونارهم إدبار قلوبهم عن الحق، والمراقبة فعل من أفعال القلب، وتعني مراعاة القلب للرقيب والاشتغال به ودوام ملاحظة جناب الحق تعالى بالقلب والحضور العبودي مع الحق في أمره ونهيه، وبحضور القلب تنقاد سائر الجوارح والأعضاء إلى الحضور.

وقيل أيضاً أن المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه واستدامة العبد لهذا العلم هو مراقبة الحق. وتتفاوت مراتب المراقبة شدةً وضعفاً بتفاوت درجات السالكين إلى الله ومقاماتهم، ولهذا يقسم العرفاء مراتب المراقبة إلى ثلاث مراتب رئيسية هي كالتالي:

المرتبة الأولى: مراقبة العبد للحق

وهي مراقبة المريدين للحق تبارك وتعاليمراقبة دائمة صادقة غير مقطوعة بالغفلة ولا مبتورة بالنسيان، وذلك بملاحظة ما يصدر منهم من أقوال وأفعال، والحذر من الله تعالى في كل الحركات والسكنات، وما يطالبهم به بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، ولزوم طاعته وموافقته وأداء كل ما أوجبه عليهم، واجتناب معصيته ومخالفته وما حرّمه عليهم، ووضع كل شيء موضع الذي وضعه الله فيه، ومن ثم السعي لجلب رضا المحبوب سبحانه بفعل المستحبات وترك المكروهات، والتمكّن من ذلك إلى أن تصبح ملكة راسخة في ذواتهم لا يعقبها ضعف ولا فتور، والعلم بأن الله تعالى مطلع على السرائر كاطلاعه على الظواهر، عالم بالخفيات كعلمه بالمعلنات، وقد حذّر الله تعالى عباده عن التهاون في هذا الأمر والغفلة عنه وقال: ﴿... وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿... وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾^(٦).

وقال الله عزّ وجلّ في قدسي الحديث: «لَقَدْ حَقَّتْ كَرَامَتِي (مَوَدَّتِي) لِمَنْ يُرَاقِبُنِي»^(٧) وقال جلّ جلاله أيضاً: «بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَلَمْ يُرَاقِبُنِي (وَاجْتَرَأَ عَلَيَّ)»^(٨)!!

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام قال فيها: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا رَاقِبَ رَبِّهِ وَتَنَكَّبَ ذَنْبَهُ وَكَابَرَ هَوَاهُ وَكَدَّبَ مُنَاهُ... رَافِعًا إِلَى الْمَعَادِ طَرْفَهُ مُتَوَقِّعًا فِي كُلِّ أَوَانٍ حَتْفُهُ»^(٩)!!

قال مالك بن دينار: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من أصبح وأمسى يريد سفرا بعيدا بلا أهبة وتقدّم على رب عدل حاكم بين العباد!! ثم بكى

بكاء شديدا، قلت: ما يبكيك؟! قال: أبكاني قلة الزاد وبُعد المسافة والعقبة الكؤود، فقلت: إن الناس يزعمون أنك مجنون، فقال: وأنت اغتررت بقولهم!! مالي جُنَّة ولكن حب مولاي قد خالط قلبي وجرى بين لحمي ودمي، فأنا من حبه هائم، ثم قال: يا مالك كُنْ من الناس خائبا وارضَ بالله صاحبا، قلب الناس كيف شئت تراهم عقاربا!!^(١٠)

وفيا كتبه العارف الكامل ملا حسينقلي الهمداني (قده)^(١١) في بعض رسائله ووصاياه:

«فأفهمم بما ذكرت إن طلبك المحبة الإلهية مع كونك مُرتكبا للمعصية أمرٌ فاسدٌ جدا، وكيف يخفى عليك كون المعصية سببا للنفرة وكون النفرة مانعة الجَمْع معه المحبة!! وإذا تحققت عندك أن تترك المعصية أول الدين وأخره وظاهره وباطنه فبادر إلى المجاهدة واشتغل بتمام الجهد إلى المراقبة من أول قيامك من نومك في جميع أناتك، وألزم الأدب في مقدس حضرتته، واعلم أنك بجميع أجزاء وجودك ذرة ذرة أسير قُدرته، وراع حُرمة شريف حضوره، واعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والتفت دائما إلى عظمتيه وحقارتك ورفعتيه ودناءتك وعزته وذلتك وغناه وحاجتك، ولا تغفل شناعة غفلتك عنه جل جلاله مع التفاته إليك دائما، وقم بين يديه مقام العبد الدليل الضعيف، وتبصّبص تحت قدميه بصبصة الكلب النحيف، أو لا يكفيك شرفاً وفخراً أنه

أذن لك في ذكر اسمه العظيم بلسانك الكفيف الذي نجسته قاذورات المعاصي!!

ثم يقول (قده): «إن لم تكن قد طهرت جوارحك من المعاصي بعد، فكيف تأمل أن أشرح لك أحوال القلب!! فالبدار البدار إلى التوبة الصادقة ثم العجل العجل في الجهد والمراقبة!!

والمراقبة زينة القلوب وحلية الأرواح، والسالكون المحبون لله تعالى يجعلون قلوبهم أبدا في المراقبة، فيراقبون في نفوسهم الفقر والحاجة وفي ربهم الغنى والقدرة، فيحتقرون نفوسهم ويلحقونها بالعبودية ويدللونها في ساحة عظمة الحق وجلاله وجناب كبرياء المولى وبهائه، ويتفقدون آثار ربهم في قلوبهم، ويعلمون شئونه في أنفسهم، ويراقبون مقامه عندهم، وينظرون إلى كل المخلوقات بما فيها نفوسهم متلاشية في نور عظمته فانية في لمعات جماله، فتتجافى قلوبهم عن مضاجع الدنيا وغرورها حين ينام غيرهم في غفلاتها، ويصحبون الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى، ويؤثرون الحق على كل مصحوب سواه، ويشتغلون به عما عداه، ولا يطلبون غيره، ولا يقصدون إلا وجهه، ويجعلون قلوبهم وهي حرم الله تحت حراسة مشددة ورقابة صارمة حتى لا يدخلها غيره وتصير قلوبهم عاكفة في

حضرته مستورة في كنفه منعمة بشهوده مبتهجة بحسنه وجماله.

ونعم ما قيل في هذا المقام:

عَجَبٌ لِمُحِبِّ كَيْفَ يَنَامُ
كُلُّ نَوْمٍ عَلَى الْمُحِبِّ حَرَامٌ

والنوم هنا بمعنى الغفلة عن الحق وإغماض عين القلب عن مراقبته وشهوده^(١٢).

وقد يكون الشهود شهوداً قلبياً كما هو حاصل للمحب العارف الواصل الذي يكون حاضر القلب مع ربه متوجهاً بالكلية إليه فيغيب عن شهود نفسه ويكون فانياً في الله وبالمعرفة يشاهد الحق في محراب قلبه فيعبده عن رؤية ويراقبه عن مشاهدة^(١٣)، أو شهوداً خيالياً - وهو في المرتبة دون الأول - كما هو الحال للمحب الذي لا يرى ربه بعين البصيرة ولكن يستحضره ويتخيله في قلبه على قدر معرفته به اتباعاً لقول الرسول الأكرم ﷺ: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١٤) أي يحاول الحضور بالقلب في العبادة ويجعل الله تعالى في حضرة الخيال والمثال رأياً عينيه حتى لكأنه يراه بقوة بصره على نحو ما، متمثلاً في قلبه من غير تشبيه ولا تقييد، بل بما يليق بساحته من الوسع والإحاطة، فيراقبه ويلزم الأدب معه.

وقد كان سيدنا الأستاذ رحمه الله يردد على مسامعنا هذه العبارة من الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «كُلُّ يَوْمٍ لَا يُعْصَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَهُوَ يَوْمٌ عِيدٌ»^(١٥)، وعليه أن يشكر ربه على هذه النعمة.

والمراقبة لله تعالى هي نتيجة الحياء منه، ونتيجة المراقبة الأدب مع الحق في الظاهر والباطن والقول والفعل والحركة والسكون على أن تكون المراقبة حقيقة ثابتة في القلب.

ولا يخفى علينا في هذا المقام ذكر ما قاله مولى الموحدين ومقتدى العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام في معاملته مع الحق وقد شهد إحاطة البارئ عز وجل بكل شيء: «مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَّهَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ وَبَعْدَهُ»^(١٦)!!

المرتبة الثانية: مراقبة مراقبة الحق

وهي مقابلة المراقبة بالمراقبة، أي مراقبة العبد لرؤية الله وهي تراقبه، وفيها - أي في هذه المرتبة من المراقبة - يكون العبد غائباً عن نفسه، فإن فعله وإرادته في فعل الله تعالى وإرادته، وهذه المراقبة هي مراقبة الحياء والمهابة من عالم الغيب والشهادة، وكيف لا يستحي العبد من سيده ومولاه ويتعدى حدود الأدب معه ويجراً عليه وهو يعلم أنه يراه!! قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾^(١٧)!! قال بعض العرفاء: «المراقبة أن يصير الغالب على العبد ذكره بقلبه ويعلم أن الله

تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ فَيَرْجِعَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ وَيَخَافُ سَطَوَاتِ عُقُوبَتِهِ فِي كُلِّ نَفْسٍ وَمَهَابَتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ».

وحقائق الأعمال غير مستورة عن الله سبحانه بل مشهودة ومراقبة وكفي بالله شهيدا ورفيقا، ثم شهادة الملائكة المطلعين على أعمال العباد: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ *﴾^(١٨) وشهادة رسول الله ﷺ والمعصومين وكذلك أولياء الله الصالحين، والله من وراء هؤلاء محيط، فالعارف بالله المقبل بكله على الله والمتوجه أبدا إلى الله يعلم أن هناك مراصد كثيرة ترصد أعماله وأقواله وحركاته وسكناته في كل حال وحين، ويشعر بإحاطة الخالق جلّ وعلا ومعينته له، فيسعى لجلب مرضاته وبلوغ ثوابه، وذلك بصدق النية ودوام العمل الصالح، وأما الجاهل المحجوب عن الله بحجب المعاصي والذنوب فهو غافل عن مقام ربه مستهين بحكمه سبحانه وهو الرقيب عليه والناظر إليه أينما كان وكيفما كان.

وهذا سيد الشهداء وإمام العرفاء الحسين بن علي رضي الله عنهما وهو يناجي ربه ويقول: «عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا»^(١٩)!! فمن لم يغش عين قلبه العمى رأى شهود ربه عليه ومراقبته له فلا يكتب في الغافلين المبعدين الضالين، وقد قال العزيز سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلٌ سَبِيلًا﴾^(٢٠)، والمقصود من العمى هو عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر حيث يقول سبحانه: ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢١) وشر العمى عمى القلب!!

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿... وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾^(٢٢)، فالاعتقاد بأن لهذا العالم إلهًا واحدا عالما محيطا بكل شيء قادرا على كل شيء رقيبًا حسيبًا لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه أمر وأن عالم الوجود كله محضر الله تعالى وأن الإحاطة الإلهية التامة واقعة على كل شيء شهودا وعلمًا كما أشار تعالى في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢٣) وكون هذا الاعتقاد حقيقة ثابتة متوغلة في القلب ويقين قطعي لا تردد فيه لا يبقى للعبد إلا أن يراقب مراقبة الله له في جميع أعماله ونيّاته أشد المراقبة.

وعن مولانا الإمام الصادق رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ بَكَى بُكَاءً شَدِيدًا»^(٢٤)، وهذا حال رسول الله ﷺ المعصوم من الزلل والخطأ والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وخوفه من علم الله تعالى وشهوده له، فكيف بنا وقد اسودت كتب أعمالنا من الخطايا والسيئات،

والله تعالى وملائكته وأنبيأؤه ورسله ناظرون إلينا مَطَّلَعُونَ على أعمالنا، وليس ذلك فحسب، بل ثبتت كلها في اللوح المحفوظ عن الخطأ والاشتباه، ومن ثم نحاسب عليها حسابا دقيقا عادلا!!
 نسأل الله تعالى ونقول: «يا مَنْ سَعِدَ بِرَحْمَتِهِ الْقاصِدُونَ ولمْ يَشَقْ بِنِقْمَتِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ
 كَيْفَ أَنْسَاكَ ولمْ تَزَلْ ذَاكِرِي وَكَيْفَ أَلْهُو عَنْكَ وَأَنْتَ مُرَاقِبِي، إلهي بذيل كَرَمِكَ
 أَعْلَقْتُ يَدِي وَلنَّيْلَ عَطَايَاكَ بَسَطْتَ أَمْلِي فَأَخْلِصْنِي بِخَالِصَةِ تَوْحِيدِكَ
 واجْعَلْنِي مِنْ صَفْوَةِ عِبِيدِكَ»^(٢٥)!!

يقال أن عارفاتاب بعد ذنب وكان بعد ذلك يبكي كثيرا، قيل له: لم هذا البكاء؟! ألا تعلم أن الله غفور؟! قال: بلى، قد يعفو سبحانه، ولكن كيف أبعد عن نفسي الإحساس بالخجل وقد رأني أذنب!!

گیرم که تو از سرِ گنه در گذری

زان شرم که دیدی که چه کردم چه کنم^(٢٦)

ويقول العارف الصمداني الشيخ محمد بهاري الهمداني (قده)^(٢٧) في مراقبة الحق:
 «أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ حُضُورِ الْحَقِّ جَلَّ شَأْنُهُ، وَهَذَا هُوَ السَّنَامُ الْأَعْظَمُ وَالرَّافِعُ إِلَى مَقَامِ الْمُقَرَّبِينَ،
 وَمَنْ كَانَ طَالِباً لِلْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ فَلْيُمْسِكْ بِهَذَا الْحَبْلِ الْمَتِينِ»^(٢٨)!!
 يُحَكِّي أَنْ زَلِيخًا لَمَّا هَمَّتْ بِيُوسُفَ عليه السلام وَهَمَّ بِهَا قَامَتْ إِلَى صِنْمٍ مَعَهَا فِي الْبَيْتِ فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ ثُوبًا، فَقَالَ
 لَهَا يُوسُفَ عليه السلام: مَا صَنَعْتَ؟! قَالَتْ: طَرَحْتُ عَلَيْهِ ثُوبًا، أَسْتَحْيِي أَنْ يَرَانَا!! فَقَالَ يُوسُفَ عليه السلام: فَأَنْتِ
 تَسْتَحِينَ مِنْ صِنْمِكَ وَهُوَ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا أَسْتَحْيِي أَنَا مِنْ رَبِّي!!
 أيها السالك المحب لله، لا تكن غافلا عما تعمل فما ربك بغافل عما تعملون، وكن مراقبا لله في قلبك
 دائما كما هو رقيب عليك أبدا، فبالمراقبة تعلم آثار ربك فيما يورده على قلبك وفي جميع حركاتك
 وسكناتك.

يك چشم زدن غافل از آن ماه نباشید

شاید که نگاهی کند آگاه نباشید^(٢٩)

المرتبة الثالثة: ترك المراقبة

وهذه المرتبة الرفيعة لأعلى طوائف المراقبين، ولا تحصل إلا للأكابر الموحدين والكمّل من أولياء
 الله العارفين الذين وصلوا إلى غاية مراتب الأدب والحياء والعبودية لله سبحانه، فنوا عن رسومهم
 وذواتهم، وغابوا عن هوياتهم وأسرارهم، واستهلّكوا في الحق، ولم يبق لهم اسم ولا رسم ولا أثر، ولم

يظهر لهم سوى الله تعالى، ولم يعقلوا إلا أساء الله، وذلك بفناء أفعالهم وصفاتهم وذواتهم في أفعال وصفات وذات الله سبحانه، فرأوا أن ما في الوجود إلا الواحد، وكل مظهر في الوجود إنما يظهر عن عين واحدة، فمن يراقب مَنْ!! وهو الذي ليس كمثلته شيء!! بل كيف يراقب من تنزه عن الكيف والكم والزمان والمكان والخيال!! فكل ما يراقبه العبد إنما هو اعتقاده بالحق سبحانه في قلبه، فما عبده على الحقيقة بل عبده تخيُّله لأنه ما غاب فيها عن نفسه وما فنى عنها في ربه، وبقيت الاثنية - اثنية الحق والخلق، ووجد حسنه وإدراكه في المراقبة، والتي هي في حد ذاتها ستر وحجاب بين العبد والحق سبحانه، وإنما يكون حقاً كله عند الغيبة والفناء والاستهلاك الكلي في الحق سبحانه، وهناك لا مكان للمراقبة، ويكون المقام ترك المراقبة.

بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي يُنَازِعُنِي

فَازِعٌ بِلُطْفِكَ إِنِّي مِنَ الْبَيْنِ

يقول العارف الكبير بابا طاهر: «مَنْ وَجَدَ حَسَّهُ فِي الْمُرَاقَبَةِ فَالْمُرَاقِبُ وَكُلٌّ فِي وَقْتِهِ إِلَى نَفْسِهِ».

ويقول شارح كلماته أبو المعالي الهمداني الملقب بعين القضاة: «لَمَّا كَانَتِ الْمُرَاقِبَةُ رَقَبَةً الْعَبْدِ وَنَظَرُهُ إِلَى رَقَبَةِ اللَّهِ، وَنَظَرُهُ إِلَيْهَا^(٣٠) فَصَحَّتْهَا أَنْ يَزِيغَ بَصَرُ الْقَلْبِ عَنِ النَّظَرِ إِلَّا لِلْحَقِّ، فَلَوْ وَجَدَ الْمُرَاقِبُ فِي مُرَاقَبَتِهِ نَفْسَهُ وَوَجَدَ الْإِدْرَاكُ حَسَّهُ فَهُوَ فِي حَالِهِ مَوْكُولٌ إِلَى نَفْسِهِ مَحْجُوبٌ بِهَا عَنْ حَالِهِ، أَيْ لَا يَكُونُ مُرَاقِبًا لِفُقْدَانِهِ حَقِيقَةَ الْمُرَاقِبَةِ»^(٣١).

وفي مقام المراقبة آفات كثيرة أبرزها توهم الاعتراض، ولهذه الآفة الخطيرة والمنافية للتوحيد والإيمان مراتب حسب مراتب المراقبة التي تقابلها مراتب الفناء، وأما بيان ذلك: يقول العرفاء أنه «لا مؤثر في الوجود إلا الله»، فلا فعل إلا بإذن الله ومشيته ولا حول ولا قوة إلا بحوله وقوته، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾^(٣٢)، فليس للعبد السالك في مراقبته أن يتوهم الاعتراض فضلاً عن الاعتراض في حد ذاته على رب العالمين في فعله وإرادته وتقديراته بمخالفته قولاً أو فعلاً أو إرادة والذي يعتبره العرفاء كفراً سلوكياً، بل عليه أن يفنى فعله في فعل الله تعالى وتضمحل إرادته في إرادة الله تعالى.

ثم على العبد التسليم بأن لا يعترض في حكم الله تعالى وعلمه بل عليه أن يفنى علمه في علم الله، فلا يتوهم الاعتراض بأن يحكم الله تعالى أمراً ما ويخيَّل له أن حكم الله تعالى غير مصيب أو دون الكمال، وأن لو حكم الله كما يراه هو كان أفضل وأحسن حكماً، فيرى بذلك علمه فوق علم الله

تعالى - والعباد بالله.

وإذا ارتفع العبد السالك عن المرحلتين السابقتين أي بعد الفناء في فعل الله والفناء في علم الله، عليه أن لا ينظر في مراقبته إلى نفسه، ولا يلتفت إلى وجوده، ولا يتوهم لحظة واحدة باستقلاله، بل يكون مقبلاً على الله تعالى بتمام وجوده وذاته، وهذا ما يعرف بالفناء في التوحيد (٣٣).

«إلهي هَبْ لي كمال الانقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نَظَرِها إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْواحنا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ، إلهي واجْعَلْني مِمَّنْ نادَيْتَهُ فَأجابَكَ ولا حَظَّتَهُ فَصَعَقَ لِجِلالِكَ فَناجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمَلْ لَكَ جَهْرًا، وأسألك أَنْ تُصَلِّيَ عَلَي مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَجْعَلْني مِمَّنْ يُدِيمُ ذِكْرَكَ ولا يَنْقُضُ عَهْدَكَ ولا يَغْفُلُ عَن شُكْرِكَ ولا يَسْتَخِفُّ بِأَمْرِكَ، إلهي وألْحِقْني بنور عِزِّكَ الأَبْهَجِ فأكونَ لَكَ عارِفاً وَعَن سِوَاكَ مُنْحَرِفاً وَمِنكَ خائِفاً مُراقِباً يا ذا الجِلالِ والإِكْرامِ» (٣٤)!!

الهوامش

- (١) سورة الرعد: آية ٣٣
- (٢) سورة الحشر: آية ١٨ - آية ١٩
- (٣) الترجمة:
- لو كنت في مقام تقصد فيه المعصية
وطفل ينظر إليك عن بُعد
لشعرت بالخجل واجتنبت المعصية
كي لا تخدش ستار عصمتك
فالأولى أن تخجل من رب العالمين
العامم بأسرار البواطن
حين يعطف عليك بنظرة منه
وأنت تقصد المعصية في ذلك الحين!!
- (٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٥٥، أصول الكافي: ج ٢ ص ٦٧
- (٥) سورة البقرة: آية ٢٣٥
- (٦) سورة البقرة: آية ٢٨٤
- (٧) التوحيد: ٢٦٨، ومنه بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٥٠
- (٨) الكافي: ج ٢ ص ٦٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٣٠
- (٩) الكافي: ج ٨ ص ١٧٠
- (١٠) مقتنيات الدرر: مجلد ١١ ص ٩٨
- (١١) ذكرنا نبذة عن سيرته في المنزل (٢) - الإخلاص عند المحب - فراجع
- (١٢) وكثيرا ما تكنى الغفلة بالنوم، إذ كثيرا ما يقال للغافل هو نائم وللذاكر هو مستيقظ.
- (١٣) كما جاء في المشهور من قول مولى الموحدين وسيد المشاهدين لرب العالمين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما كنتُ أعبدُ ربًّا لم أره!!» ثم قوله معقبا: «لا تُدرِكُه (لم تره) العيونُ في مُشَاهَدَةٍ (بمُشَاهَدَةٍ) الأبصارِ ولكن رآته القلوبُ بحقائقِ الإيمان» - التوحيد: ص ١٠٩، ومنه بحار الأنوار: ج ٤ ص ٤٤
- (١٤) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٧٦، أمالي الطوسي: ج ٢ ص ١٣٨، نهج الفصاحة: ص ٦٥، مسند أحمد بن حنبل: ج ٢ ص ١٣٢، حلية الأولياء لأبي نعيم الإصهاني: ج ٨ ص ٢٠٢، كنز العمال: ج ٣ ص ٢١ ح ٥٢٥٠، وكان فيما أوحى الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام: «يا موسى كذبَ مَنْ رَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي فإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنِّي يا ابنَ عَمْرانَ لو رأيتَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ لي في الدِّياجِجِ وَقَدْ مَثَلَتْ نَفْسِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ يُحَاطِبُونِي وَقَدْ جَلَيْتُ عَنِ الْمُشَاهَدَةِ وَيُكَلِّمُونِي وَقَدْ عَزَزْتُ عَنِ الْحُضُورِ» - بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١٧٢

- (١٥) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في بعض الأعياد: «إنما هو عيدٌ لِمَنْ قَبَلَ اللهُ تَعَالَى صِيَامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ وَكُلَّ يَوْمٍ لَا يُعْصَى اللهُ تَعَالَى فِيهِ فَهُوَ يَوْمٌ عِيدٌ» - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٧٣
- (١٦) علم اليقين: ج ١ ص ٤٩، الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١١٧
- (١٧) سورة العلق: آية ١٤
- (١٨) سورة الانفطار: آية ١٠ - آية ١٢
- (١٩) من دعاء يوم عرفة لمولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام.
- (٢٠) سورة الإسراء: آية ٧٢
- (٢١) سورة الحج: آية ٤٦
- (٢٢) سورة الأحزاب: آية ٥٢، ويقول العلامة الطباطبائي عليه السلام في تفسير هذه الآية المباركة: «الرقيبُ أي الحفيظُ والمراقبةُ أي المحافظةُ وكأنه مأخوذٌ مِنَ الرَّقَبَةِ بِعِنَايَةٍ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْفَظُونَ رِقَابَ عِبِيدِهِمْ أَوْ أَنَّ الرَّقِيبَ كَانَ يَتَطَلَّعُ عَلَى مَنْ كَانَ يَرْقُبُهُ بِرَفْعِ رَقَبَتِهِ وَمَدِّ عُنُقِهِ وَلَيْسَ الرَّقُوبُ مُطْلَقَ الْحِفْظِ بَلْ هُوَ الْحِفْظُ عَلَى أَعْمَالِ الْمَرْقُوبِ مِنْ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ لِإِصْلَاحِ مَوَارِدِ الْحَقْلِ وَالْفَسَادِ أَوْ ضَبْطِهَا، فَكَأَنَّهُ حَفِظَ الشَّيْءَ مَعَ الْعِنَايَةِ».
- (٢٣) سورة يونس: آية ٦١
- (٢٤) تفسير الصافي: مجلد ٢ ص ٤٠٨، مجمع البيان (للطبرسي): مجلد ٣ ص ١١٨ ط بيروت، تفسير القمي: مجلد ١ ص ٣١٣ ط قم الطبعة الثالثة، مقتنيات الدرر (مير سيد علي الحائري الطهراني): مجلد ٥ ص ٢٦٤ ط ٢ طبعة طهران.
- (٢٥) من مناجاة الراجين لمولانا الإمام زين العابدين عليه السلام
- (٢٦) الترجمة:
- علمت أنك تغفر الذنوب وتتجاوز عنها
ولكن ما أفعل بالخجل من رؤيتك لي وأنا أرتكب الذنوب!!
- (٢٧) ولد الشيخ محمد بهاري عام ١٢٦٥ هـ في مدينة بهار الواقعة في همدان، والتحق في بروجرد بحلقة درس آية الله الحاج الميرزا محمود البروجردي والداية الله العظمى الحاج السيد حسين البروجردي، وفي الثانية والثلاثين من عمره - أي عام ١٢٩٧ هـ - وبعد نيل درجة الاجتهاد توجه إلى النجف الأشرف، وهناك لزم درس الآخوند ملا حسينقلي الهمداني ملازمة دائمة حتى قال فيه أستاذه: «الحاج الشيخ محمد بهاري حكيم أصحابي»، ودامت تلك الملازمة حتى وفاة الملا حسينقلي الهمداني، وفي هذا المورد - أي شدة ارتباطه بأستاذه - نقل العلامة الطباطبائي عن أستاذه السيد علي القاضي أن أحد زملاء الشيخ وهو العارف الكامل السيد أحمد الكربلائي قال: «كنا على الدوام في خدمة المرحوم آية الحق الآخوند ملا حسينقلي الهمداني وكان الآخوند في كل وقت معنا، ولكن ما أن تعرّف الشيخ بهاري بأستاذنا وارتبط

به ولازمه حتى سرقه منا!! وعلى هذا كان الشيخ بهاري في خدمة الآخوند في الحضر والسفر ما يقارب خمس عشرة سنة، وقد جعله الآخوند وصيا له، وبعد ارتحال الآخوند عام ١٣١١ هـ سلك الشيخ محمد بهاري نهج أستاذه في التربية، وأقام في النجف الأشرف إلى أن مرض، فأوصاه الطبيب المعالج بالسفر والراحة، لذا عزم الشيخ على السفر إلى مشهد المقدسة لزيارة الإمام الرضاؑ، وبعد الزيارة قصد الرجوع إلى النجف ولكن اشتد عليه مرضه فعزم على العودة إلى مسقط رأسه، وعاد إلى مدينة بهار وأقام فيها إلى أن وافاه الأجل، وانتقل إلى جوار ربه في التاسع من شهر رمضان عام ١٣٢٥ هـ، وانحصرت آثاره العلمية الباقية في مكاتباته إلى تلامذته والتي كانت تشمل على منهج السير والسلوك إلى الله، إلى جانب ما نُقِل من الخواطر والذكريات والعبر عنه من الصدر إلى الصدر نقلها العرفاء وأولياء الله من جملتهم المرحوم الشيخ جواد الأنصاري الهمداني (قده) والشيخ حسن علي الإصفهاني النخدي (قده) وغيرهما - (تذكرة المتقين:

ص ٢٣ - ص ٢٦)

(٢٨) تذكرة المتقين: ص ٥٤

(٢٩) الترجمة:

لا تغفلوا عن ذلك القمر طرفة عين

فقد يعطف عليكم بنظرة وأنتم غافلون

(٣٠) أي نظره إلى مراقبته لرؤية الله

(٣١) كلمات بابا طاهر: ص ١٣٢

(٣٢) سورة الرعد: آية ٣٣

(٣٣) راجع مراتب الفناء في المنزل (٢٥) - فناء المحب

يقول الخواجه عبدالله الأنصاري في «منازل السائرين»: «ومراقبته نَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْكَ بِرَفْضِ الْمَعَارِضَةِ وبالإِعْرَاضِ عَنِ الْأَعْتِرَاضِ وَنَقْضِ رُعُونَةِ التَّعَرُّضِ»، ثم يقول العارف الكامل عبدالرزاق الكاشاني في شرح العبارة: مراقبة نظر الحق إليك فوق مراقبة الحق في السير إليه، فإن الأولى دوام حضور القلب معه وملاحظته له وهذه دوام شهود نظر الحق إليك وهو أن تشهد أنه رقيبك وشاهدك فلا تستطيع أن تعارض فعله بفعلك ولا إرادته بإرادتك فترك فعلك وإرادتك فانيين في فعله وإرادته فلا تفعل ولا تريد إلا ما أراد ولا يمكنك مخالفته بقولك وفعلك وإرادتك، وأما الإِعْرَاضِ عن الاعتراض فهو أن لا تعترض عليه في حكمه وعلمه وتسلم لحكمه وتترك علمك يفنى في علمه ولا يخطر ببالك أن لو فعل كذا لكان أولى وأحسن ولو غفر الكل لكان أولى بكرمه لأنه تحكّم عليه وظهور بصفة العلم ودعوى أن علمك فوق علمه أعادنا الله من ذلك، وأما الرعونة فهي النظر في المراقبة إلى نفسك ووجودك فيجب نقضه فضلا عما يتبعه من الخواطر والصفات التابعة للوجود فإنه تعرّض له بوجودك فيجب نقض تلك الرعونة والنظر إلى نفسك عنك فإن هذا التعرض يوجب أن يجيبك الله عن شهودك لأن شهودك الحق مع بقاء العبد محال فإن أحسست في شهودك بشيء

من نفسك أو من غيرك فقد بطل شهود الحق بالحقيقة فلا يصح هذا الشهود إلا بغيبتك عنك حتى تتهيأ للفاء.

(٣٤) من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام المعروفة بالمناجاة الشعبانية.

المنزل (٣١)

الْوَفَاءُ عِنْدَ الْمَحَبِّ

يَا مُدَّعِي الْحُبِّ قُمْ إِنْ كُنْتَ تَهْوَانَا
 وَأَنْهَضْ إِلَيْنَا فَهَذَا الْوَقْتُ قَدْ آتَا
 كَمْ ذِي رُقَادٍ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ لَنَا
 فِي آخِرِ اللَّيْلِ قَبْلَ الْفَجْرِ إِحْسَانَا
 وَاهْجُرْ كَرَائِكَ^(١) وَحَلِّ الْفَرْشِ عَاطِلَةً
 وَأَنْهَضْ إِلَيْنَا وَلَا تُنْسِيءُ^(٢) فَتَنَسَانَا
 نَحْنُ الَّذِي نَتَجَلَّى فِي الظَّلَامِ كَمَا نَشَاءُ
 فَاسْمَعْ وَكُنْ لِلذِّكْرِ يَقْظَانَا
 لَا يَشْغَلَنَّكَ عَنَّا غَيْرَنَا فَلَنَا
 حُسْنُ الْوَفَاءِ لِمَنْ وَافَى وَوَأَفَانَا^(٣)
 طُوبَى لِمَنْ قَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ مُجْتَهِدًا
 وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

الوفاء صفة للحق تبارك وتعالى والوفى اسم من أسماؤه الحسنى، ولا أحد أكثر وفاء من الله كما قال تعالى عن نفسه: ﴿... وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ...﴾^(٤) فإنه إن وعد لا يخلف الميعاد، وأكمل ما يكون عليه العبد في اتصافه بصفات الحق والتخلق بأسماؤه، فكان الوفاء علامة أهل الدين وشيمة خاصة أولياء الله الصالحين وزينة خيرة عباده الصادقين.

والوفاء صفة محمودة وخُلِقَ شريف ضده الغدر والخيانة والجفاء وهو ترك الوفاء ونقض العهد^(٥).

قال رسول الله ﷺ: «الإسلامُ عُرْيَانٌ فَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ وَزِينَتُهُ الْوَفَاءُ»^(٦) أي الوفاء بعهود الله تعالى ورسوله ﷺ والأئمة المعصومين ﷺ وعهود الناس ما لم تكن في عدوان ومعصية، وقيل أن الوفاء إيفاء كل ذي حق حقه تاما وإفيا براءً كان أو فاجراً، فلا يستعمل فيه غرض النفس والطبع والهوى أيّ ما كان، متأسّياً في ذلك بالله سبحانه ﴿... الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ...﴾^(٧)، فالرب المفيض لكل شيء أعطى كل شيء غاية كماله ولم ينقصه شيئاً والعبد الوفيّ من عرف الحقوق وأهلها فأوفاهما، ومن لم يوفّها كان من الخائنين.

وقد أشارت إلى هذه الصفة الحميدة والمحبوبة عند الله تعالى آيات كثيرة من كتاب الله المبين منها قوله عزّ وجلّ: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٨) وقوله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾^(٩) وقوله عزّ وجلّ: ﴿... وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا...﴾^(١٠)، وكذلك أشارت إلى النهي عن خيانة الله ورسوله والأمانات عامة بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١١) وقوله عزّ وجلّ: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(١٢) فالخيانة جناية عظيمة وصاحبها في غاية الظلم لنفسه والجهل بقدرها بعد قبول الأمانة وحملها: ﴿... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(١٣).

والصدق ينبوع الوفاء، والوفاي لا يكون وفيّاً إلا إذا كان صادقاً في أقواله وأفعاله وأحواله، قال أمير الصادقين علي بن أبي طالب ﷺ: «الوفاء توأم الصدق ولا أعلمُ جنّةً أوقى منها»^(١٤)، وقال ﷺ أيضاً: «ولا (خير) في الصدق إلا مع الوفاء»^(١٥)، وقال مولانا علي بن الحسين ﷺ: «خيرُ مَفَاتِيحِ الْأُمُورِ الصِّدْقُ وَخَيْرُ خَوَاتِيمِهَا الْوَفَاءُ»^(١٦)، فأقصى غايات الصدق هو الوفاء.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ...﴾^(١٧) فإذا قيل: وما جزاء صدق العبد ونفعه؟! ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٨) فجزاؤه الصدق الإلهي وقول الحق فيما وعدهم من نعيم دائم وثواب خالد وفيض وافر ومتعة لا متناهية، وكان الوفاء بالعهد حقّ على الله سبحانه أوجه على نفسه وقال: ﴿... أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾^(١٩) ﴿... وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٢٠)!!

وللوفاء معاني ومفاهيم متعددة نذكر جملة منها:

المعنى الأول: العمل بالعهد والميثاق (العهد التكويني)

حين قبض الله تعالى الذرية من ظهور بني آدم ﷺ أشهدهم على أنفسهم بالعبودية لله تعالى والله تعالى بالربوبية عليهم، فأقروا له بذلك بلسان فطرتهم، وامثلوا لأمره تكويناً، وأصبحوا عباده ذاتاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢١).

قال الزمخشري: المراد بعهد الله تعالى ما ركز في عقول الخلق من الحجة على التوحيد كأنه أمرٌ وصَّاهم به ووثَّقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وقد أمرنا الحق سبحانه بالعلم بتوحيده لا العلم بذاته الذي نهى عنه بقوله: ﴿... وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...﴾^(٢٢) ونهانا عنه رسوله ﷺ بقوله: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَتَهْلِكُوا»^(٢٣) فلا سبيل لأحد من الوصول إلى كنه ذات الحق المقدسة المنزهة^(٢٤).

وقيل أن للوفاء بعهد الله عرض عريض، فأول مراتبه الإتيان بكلمتي الشهادة وآخرها الاستغراق في بحر التوحيد وفناء أهل الوحدة في الذات بحيث يغفل العبد عن نفسه فضلاً عن غيره.

فالعبد مُطالب أن يعامل ربَّه بالوفاء على العهد الخالص والميثاق القديم فلا ينازعه في ربوبيته ولا يزاخه في ألوهيته لا لنفسه ولا لغيره من المخلوقات، ويرفض الأنداد من دونه ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، بل يقرُّ بوحداية الربوبية والألوهية للحق سبحانه، ليعلم الله تعالى من هو صادق في دعواه ومن هو كاذب، وصدق الدعوى لا يتحقق إلا بالوفاء بعهد المعبود سبحانه وهي - إلى جانب التقوى - من الشرائط التي لو تمت دخل العبد في زمرة المتقين، وحصل بها على نصيبه من المحبة والولاية الإلهية والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢٥)، فمن أوفى بالعهد والميثاق الذي أخذه الله عليه وقام بأداب الحق وتحقق بجميع معاني العبودية لله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً بنيل مراتب القرب والوصال والتطهير بهاء الرحمة والغفران وتبعاتها من النظر والتكليم يوم القيامة، ومن لم يفِّ بعهد الله وميثاقه فقد ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وخسر في الآخرة خسرانا مبيناً بالقطع والإبعاد وأليم العذاب وتبعاتها من عدم النظر والخسوء يوم القيامة^(٢٦).

قال الباري عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ *﴾^(٢٧)!!

فالله سبحانه وتعالى أشهد العباد على أنفسهم بالربوبية له، وأخذ عليهم عهداً بأن لا يعبدوا إلا

إيَّاه، ولما خلق الخلق وأخرجهم إلى الحياة الدنيا وأرسل إليهم الرسل بالآيات البيِّنات والمعجزات والدلالات انقسموا إلى فريقين من حيث الوفاء بالعهد وعدمها، ففريقا عرف الحق وكان ذا بصيرة تذكَّرهما ما عاهد عليه الله، فبقي على فطرته الأصلية الذاتية، وثبت على الوفاء به، وأطاع الحق واستجاب له فيما أمره ونهاه، وكان فيمن وصفهم الله تعالى بأولي الألباب، وفريقا جهل الحق وكان أعمى، فنسي ما عاهد عليه الله، وخرج عن الفطرة الأولى، فزلت قدمه عن الوفاء به، وجحد الحق فيما أمره ونهاه وكان من الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (٢٨)!!

وفيما أوحى الله تعالى به نبيه موسى ﷺ: «يا مُوسَى، مَنْ قَبَلَ وَصِيَّتِي وَأَوْفَى بَعَهْدِي وَلَمْ يَعْصِنِي رَقِيَّتُهُ إِلَى رُتْبَةِ مَلَائِكَتِي وَأَحْلَلْتُهُ جَنَّتِي مَعَهُمْ وَجَارَيْتُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»!!

ولا تعجب من هذا القول، فإن الإمام أبا محمد العسكري ﷺ لما فسر آية العهد والميثاق بقوله: «ثَبَّتَ الْمَعْرِفَةَ وَنَسُوا ذَلِكَ الْمَوْقِفَ وَسَيَذْكَرُونَهُ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرُ أَحَدٌ مَنْ خَالِقُهُ وَمَنْ رَازِقُهُ» تعجَّب أبو هشام الجعفري وقال: فتعجبت في نفسي من عظيم ما أعطى الله وليه وجزيل ما حمَّله، فأقبل أبو محمد ﷺ عليَّ فقال: «الأمرُ أعجبُ ممَّا عَجَبْتَ مِنْهُ يَا أَبَا هَاشِمٍ وَأَعْظَمُ، مَا ظَنَّنَاكَ بِقَوْمٍ مَنْ عَرَفَهُمْ عَرَفَ اللَّهَ وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ أَنْكَرَ اللَّهَ فَلَا مُؤْمِنٌ إِلَّا وَهُوَ بِهِمْ مُصَدِّقٌ وَبِمَعْرِفَتِهِمْ مُوقِنٌ» (٢٩)، فجعل الله تعالى الإقرار بولايتهم والبيعة لهم تمام توحيدهم والإخلاص له بوحدانيتهم وإكمال دينه وإتمام نعمته على جميع خلقه، ولولا هم ما عُرفَ الله وما عُبدَ الله.

عن بُرَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ ﷺ يَقُولُ: «بِنَا عُبِدَ اللَّهُ وَبِنَا عُرِفَ اللَّهُ وَبِنَا وَحَّدَ (وَعَدَ) اللَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ حِجَابُ اللَّهِ» (٣٠) بينه وبين خلقه، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣١).

وعن خيشمة عن الباقرين الهمامين ﷺ قالوا: «نَحْنُ وَدِيْعَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَنَحْنُ حَرَمُ اللَّهِ الْأَكْبَرِ وَنَحْنُ عَهْدُ اللَّهِ فَمَنْ وَفَى بِذِمَّتِنَا فَقَدْ وَفَى بِذِمَّةِ اللَّهِ وَمَنْ وَفَى بَعَهْدِنَا فَقَدْ وَفَى بَعَهْدِ اللَّهِ وَمَنْ خَفَرَهُمَا فَقَدْ خَفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ وَعَهْدَهُ» (٣٦)!!

وأما وفاء طالب العلم للعالم الرباني والمسترشد للمرشد الإلهي الروحاني فإنها من أعظم مراتب الوفاء بعد الوفاء لله تعالى ولرسوله وأهل بيته ﷺ، فالعلماء ورثة الأنبياء وهم في الحقيقة قد اشتروا أرواح طلبه العلم والعرفان فرَّبُوها ثم أعتقوها في سبيل الله فغدت حرة لوجهه الله (٣٧)، ونحن قد

استفدنا نافع العلم وخيره من أساتذتنا العظماء ومراشدنا الأجلاء فأصبحنا أحرارا من القيود والأغلال بعدما كنا عبيد أنفسنا وأهوائنا واسمنا ورسمننا وسمعتنا وأموالنا، فوفاء لهم ولحق تربيتهم لا بد لنا من رعاية حقوقهم والمبالغة في الأدب معهم.

ومن النماذج البارزة في وفاء التلميذ لأستاذه وفاء سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (قده) في حق أستاذه العالم الرباني والعارف الصمداني معلم الأخلاق والسير والسلوك السيد علي القاضي (قده)، فقد نقل عنه أنه كان يقول على الدوام: إن كل ما لدينا إنما هو من بركات أستاذنا السيد علي القاضي، سواء ما تعلمناه في حياته واستفدناه من محضره أو ما اكتسبناه بعد وفاته، فكله يرجع إليه!!
سئل الإسكندر: ما بالك توقّر معلّمك أكثر من والدك؟! فقال: لأن المعلّم سببُ حياتي الباقية ووالدي حياتي الفانية^(٣٨)!!

وفي الوفاء بالعهد مع الناس عامة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٣٩) فهو من الواجبات التي فرضها الله تعالى ومن الثلاثة التي لم يجعل الله تعالى فيها رخصة^(٤٠) لا سيما مع الأصحاب والإخوان في الله: «فإنَّ الأُخُوَّةَ عَقْدٌ يَجِبُ الوَفَاءُ بِهِ»، وقال تعالى: ﴿... إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾^(٤١)، فلولا وجوبه لم يكن مسؤولا عنه ومعتاب على نكثه يوم القيامة، وهي من الحقوق التي لا يقوم بها إلا من أيده الله تعالى بتوفيقه وعنايته.
وما أجمل ما ينقل هنا من كلام الشيخ السعدي حيث يقول: أجلُّ الكائنات بحسب الظاهر هو الإنسان وأذلُّ الموجودات هو الكلب، ويجمع العقلاء على أن الكلب الوفيّ أفضل من الإنسان غير الوفيّ الذي لا يشكر نعمة المنعم^(٤٢)!!

رضوان الله على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يقول: إذا كان الكلب قد أكل شيئا يسيرا في بيت إنسان فوفاء له يضحى بنفسه من أجله، وكما كان سيدنا الأستاذ علي القاضي رحمته الله يقول لنا علينا أن لا نكون أقل وفاء لأساتذتنا ومراشدنا من وفاء كلب لصاحبه.

اللهم اجعلنا من أهل الإخلاص والتصديق لعهدك وميثاقك ومن أهل الوفاء بذلك ولا تجعلنا من الناكثين المكذبين والجاحدين بيوم الدين ومن الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وصدّهم عن السبيل والصراط المستقيم.

المعنى الثاني: الوقوف على الأمر الإلهي والعمل به (العهد التشريعي)

وهو العمل بعهود الله تعالى في الالتزام بالتكاليف الشرعية والامتنال للأوامر الإلهية دون تأويلها، والتقيّد بمراسم العبودية وما يكون عليه العبد من الذلة والافتقار والمسكنة، والقيام بما يجب عليه

من حقوق سيده ومولاه بما تليق به من العبادة والخدمة، وبما ينبغي له من لزوم الأدب والحياء عند المثل بين يديه، وأن لا يراه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره وفاءً لحق المنعم على المنعم وشكراً لأعظم نعمة أنعم بها تعالى على خلقه وهي نعمة الوجود إلى جانب ما يلائمها من النعم الأخرى من حسية ومعنوية، فلا بد من مقابلة هذه النعمة العظمى وتوابعها بالعبودية الخالصة ومعرفة الحق، وهما غاية الوجود والإيجاد عقلاً ونقلاً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤٣)!!

ولو أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم لوجدنا أن ما من آية ذكر الله تعالى فيها طاعته إلا وأتبعها بذكر طاعة المبعوث برسالته نبينا محمد ﷺ، ذلك ليبين للناس أن طاعة رسوله عين طاعته وأنها حقيقة واحدة ولا قربة إلى الله إلا بطاعته، فأمر سبحانه في غير واحدة من الآيات بطاعته وطاعة رسوله ﷺ جنباً إلى جنب وقال: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾^(٤٤)، وقال: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾^(٤٥)، وقال: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾^(٤٦)، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٤٧)، والحق سبحانه جعل لنا في رسوله أسوة حسنة فكان الوفاء له بالاستجابة الكلية له واتباع سنته وسلوك سبيله قولاً وعملاً وخُلُقاً وحالاً وسيرةً وعقيدةً، وكلها متابعة إلهية، لأنه ﷺ الوسيلة إلى معرفة الله والسبيل إلى محبته والأكمل في عالم الوجود ولا أكمل منه.

وكذلك جاءت الآيات بذكر أولي الأمر الذين فرض الله تعالى طاعتهم على المؤمنين كفرض طاعته وطاعة رسوله عليهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٤٨)، ولو تأملت في الآية لوجدت أن الله سبحانه جمع بين الرسول ﷺ وأولي الأمر في طاعة واحدة، ولَفَضَّيَتْ بمرتبة العصمة الإلهية لأولي الأمر كما هي لرسول الله ﷺ من غير فرق، ولَحَكَمَتْ بأنه ليست لتلك المرتبة أهل سوى أهل البيت والعترة الطاهرة ﷺ الذين جاء القرآن بنص صريح في عصمتهم وفرض طاعتهم والوفاء لهم ببيعتهم وولايتهم.

المعنى الثالث: حفظ السر وكتمانه (العهد القلبي)

وهو من معاني الوفاء لجناب الحق تبارك وتعالى النابعة من الغيرة لله وسنة من سننه حيث قال جلّ ذكره وثناؤه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٤٩)، فعندما يهَبُ الحق تعالى عبده من مكنونات الأسرار الإلهية ويقذف في قلبه من أنوار المخزونات الخفية ويطلعه على غوامض المعاني الغيبية ويجعله من أهل عنايته وبنور الكشف واليقين والتجلي يكحل عين بصيرته ويهَبُ على قلبه نفحات غيبية فيجعله موضع سره فوفاءً لحق هذه الأمانة عليه أن لا يبثها لمن لا يقدر قدرها فيضيّعها ولا يسرّها لمن لا يعرف شأنها فيستصغرها ولا يكشفها لمن لا يقدر عقله على احتماها فينكرها بل

يحتفظ بها في نفسه ويكتمها أو يُودِعها لمن هو أهل لها فيحفظها.
با مدعى مگوئيد اسرار عشق ومستی

تا بيخبر بميرد در درد خود برستی^(٥٠)

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام في صفات المؤمنين الكاملين: «أَلْسِنَتُهُمْ مَسْجُونَةٌ وَصُدُورُهُمْ وَعَاءٌ لِسِرِّ اللَّهِ إِنْ وَجَدُوا لَهُ أَهْلًا نَبَذُوهُ إِلَيْهِ نَبْذًا وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُ أَهْلًا أَلْقَوْا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَقْفَالًا غَيَّبُوا مَفَاتِيحَهَا وَجَعَلُوا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ أَوْكِيَةً صُلْبٌ صِلَابٌ أَصْلَبُ مِنَ الْجِبَالِ لَا يُنْحَتُ مِنْهُمْ شَيْءٌ»، ثم قال عليه السلام: «أَسْكَتَهُمُ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ وَأَعْيَتَهُمُ أَلْسِنَتُهُمْ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَكِتْمَانًا لِسِرِّهِ»^(٥١) ومن كان بهذه المثابة من الوفاء حق له أن يسمى وفيًا.

يقول جلال الدين الرومي:

بر لبش قفل است و بر دل رازها
لب خموش ودل پر از آوازا
عارفان که جام حق نوشیده اند
رازها دانسته و پوشیده اند
هرکه را اسرار حق آموختند
مهر کردند و دهانش دوختند^(٥٢)

هذا وقد شدّد مشايخ العرفان وأساتذة العلوم الإلهية على التزام تلامذتهم بهذا الشرط المهم سواء في الحالات والمقامات والواردات القلبية أو في الأوراد والأذكار واتباع الإرشادات اللازمة في السير والسلوك إلى الله، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُورِكُمْ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»^(٥٣)، فأصل التعامل مع السر كتمانها وستره إلا إذا أمر بإفشاءه لمن يستريح إليه ويقدره.

ولهذا يعتبر العرفاء أن حفظ الأسرار الإلهية وكتمانها من أهم الواجبات في السير والسلوك إلى الله، وإن إفشاءها بمنزلة الكفر السلوكي المستلزم للتوبيخ والمجازاة.

قال الصادق عليه السلام: «الْعَارِفُ أَمِينٌ وَدَائِعُ اللَّهِ وَكَنْزُ أَسْرَارِهِ»^(٥٤).

فالعارفون بالله ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مقامات القرب إلا بكتمانهم أسرار الله وخفيّ الغيوب في زوايا قلوبهم خلف ستور مسدلات من الغيرة والصون محجوبة عن كل من كان عن الحق أجنبيا مشغولا بحجب الطبيعة وظلماتها غير عارف بلطائف الأمور وحقائقها، والعارف الأمين على

ودائع الله هو على بيّنة من ربه، ويعلم متى وكيف يبرز ما أفاض الله تعالى عليه من هبات أسرار عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

گنج را در خاک کردن عاقلیست
 خاک را تعمیر کردن جاهلیست
 باشد اسرار در درونم بی شمار
 لیک کم بینم درون حق گذار
 کم گمان دارم دل بیننده ای
 از درون چون ماه وخور رخشنده ای
 تا بیفروزم زبان از گفت دل

بس کنم از دل زبان را مشتعل^(٥٥)

أيها السالك إلى الله، كل سر خفي آمنك الله تبارك وتعالى عليه ورأيت أنك إن أظهرته لمن لا يسمعه منك بسمع الحق فلا تفشيه، ففي إفشاء السر لغير أهله سقوط، وأما من كان الحق سمعه فيسمع منك بسمع الحق لا بسمعه فأدّه إليه تكن وفيما في رد الأمانة إلى صاحبها وهو الحق سبحانه وقد أدت ذي الحق حقه، فالحذر كل الحذر من الخيانة في أمانة أودعك الله إياها بأن تحدّث بها من لا يكون لها أهلا فتكون من الظالمين، وكن من الأمناء عليها يجعلك الله تعالى من السعداء المقربين.

يُحْكِي أن شابا كان يحضر مجلس ذي النون المصري مدة ثم انقطع عنه زمانا ثم حضر عنده وقد اصفر لونه ونحل جسمه وظهرت آثار العبادة عليه والاجتهاد، فقال له ذو النون: يا فتى، ما الذي أكسبك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصك بها؟! فقال الفتى: يا أستاذ، وهل رأيت عبدا اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزان ثم أسر إليه سرا، أيحسن أن يفشي ذلك السر؟! ثم أنشأ يقول:

مَنْ سَارُوهُ فَأَبْدَى السَّرَّ مُجْتَهِدًا
 لَمْ يَأْمَنُوهُ عَلَى الْأَسْرَارِ مَا عَاشَا
 وَبَاعَدُوهُ فَلَمْ يَسْعَدْ بِقُرْبِهِمْ
 وَأَبْدَلُوهُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِحْشَا
 لَا يَصْطَفُونَ مُذِيعًا بَعْضَ سَرِّهِمْ
 حَاشَا وَدَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَاشَا

ثم أن الله تبارك وتعالى اختار من خلقه من شرفهم بكرامته فجعلهم مستودع سره وعيبة غيبه

وُخزَّانَ علمه ومعادن كلماته، وهم رسول الله محمد ﷺ الذي ارتضاه الله تعالى وأطلعه على ما شاء من غيبه وعلمه الذي انتهى إليه، ومنه إلى عترته الزكية أوصياء نبي الله وذرية رسول الله ﷺ، فكان حفظ أسرارهم هو حفظ أسرار الله، بل كتبنا عن غير أهلها جهاد في سبيل الله (٥٦).

وقد جاء في أقوال الأئمة المعصومين ﷺ التحذير من إذاعة أسرارهم ووضعها في تصرف أعدائهم أشد التحذير، وإليك جملة من هذه الأقوال:

قال الصادق ﷺ: «إِنَّ أَمْرَنَا مُسْتَوْرٌ مُقَنَّعٌ بِالْمِيثَاقِ فَمَنْ هَتَكَ عَلَيْنَا أَذْلَهُ اللَّهُ» (٥٧).

وقال ﷺ: «إِنَّ أَمْرَنَا لَيْسَ بِقَبُولِهِ فَقَطُّ وَلَكِنْ بِصِيَانَتِهِ وَكِتْمَانِهِ عَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ» (٥٨).

وقال الباقر ﷺ لأبي إسحق الليثي: «عَلِمْنَا صَعْبٌ مُسْتَصَعَبٌ لَا يَحْتَمِلُهُ إِلَّا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مُؤْمِنٌ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ»، ثم قال ﷺ: «وَأَنَّ مِنْ حَدِيثِنَا وَسِرِّنَا وَبَاطِنِ عَلِمْنَا مَا لَا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُتَحَنٌّ»، فقال: يا سيدي ومولاي فمن يحتمله إذا؟! قال ﷺ: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْنَا، أَلَا مَنْ أَدَاعَ سِرَّنَا إِلَّا إِلَى أَهْلِهِ فَلَيْسَ مِنَّا، أَلَا مَنْ أَدَاعَ سِرَّنَا أَذَاقَهُ اللَّهُ حَرَّ الْحَدِيدِ» (٥٩)!!

كفت آن يار كز او كشت سر دار بلند

جرمش اين بود كه اسرار هويدا ميگرد (٦٠)

المعنى الرابع: الوفاء شرط المحبة والاشتياق

فالوفاء براق العارفين المحبين ورَفْرَفُ الصادقين المشتاقين، ولا تستكمل محبة العارف واشتياق الصادق إلا بالوفاء للمحبوب والمشتاق إليه، ولما كان الحق تبارك وتعالى هو المحبوب الحقيقي فالأولى بالعارف أن يوفِّي حق ربه حق الوفاء إثباتا لمحبتة له وزيادة في التملُّق إليه وتقرباً إلى جنبه بما يناسب ساحة قدسه.

وبنيان المحبة الإلهية لا يقوم إلا على أساس المحبة لرسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، وكلما كان الأساس أكثر قوة وإحكاماً كان البنيان أشد وأشد، وقد أشار العزيز الحكيم إلى الوفاء لرسوله ﷺ وأهل بيته ﷺ في كتابه حيث قال: ﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾ (٦١) وهو ﷺ من جملة أهل البيت ﷺ الذين ذاقوا مرارة الغربة وفراق الأهل والوطن وأصابهم ما أصابهم من البلاء الشديد والقتل والتشريد والإيذاء والتعذيب حتى قال ﷺ: «مَا أَوْذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أَوْذِيَْتُ» (٦٢) وقال أخوه أمير المؤمنين ﷺ: «وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاصٌّ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلِّ غَمْرَةٍ وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلُّ غُصَّةٍ وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنَونَ وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ وَخَلَعَتْ

إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا مِنْ أْبَعَدِ الدَّارِ وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ»^(٦٣) وذلك في سبيل نصره الدين وقمع الكافرين وإعلاء كلمة الحق وإدحاض الباطل، فجعل محبتهم ومودتهم جميعاً أجزاً للرسالة المحمدية الختمية وفريضة واجبة على العباد إلى يوم القيامة، وأمرهم أن لا ينقضوا العهد فيهم ولا يغضبوهم ولا يقطعوهم بل يصلوهم ويقبلوا بقلوبهم إليهم بالمحبة والمودة، وَمَنْ ظَلَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَجْرَهُ فِي قَرَابَتِهِ وَأَبْغَضَهُمْ وَلَمْ يُوْتَمِّمْهُمْ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبِ اللَّهِ وَلَعْنَتِهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٦٤).

جاء في أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّنَا فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ وَمَنْ أَبْغَضَنَا فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَمَنْ وَالَانَا فَقَدْ وَالَى اللَّهَ وَمَنْ عَادَانَا فَقَدْ عَادَى اللَّهَ»^(٦٥).

يقول جار الله الزمخشري:

فَارَ كَلْبٌ بِحُبِّ أَهْلِ كَهْفٍ

فَكَيْفَ أَشْقَى بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ

والوفاء لأهل المحبة من المؤمنين والأخلاء في الله فرض واجب، وللمؤمن على المؤمن حق معلوم، فعن معلى بن خنيس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حق المؤمن فقال: سَبْعُونَ حَقًّا لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِسَبْعَةٍ فَإِنِّي عَلَيْكَ مُشْفِقٌ أَخْشَى أَنْ لَا تَحْتَمِلَ، فقلت: بلى إن شاء الله تعالى، فقال: لَا تَشْبَعُ وَيَجُوعُ، وَلَا تَكْتَسِي وَيَعْرَى، وَتَكُونُ دَلِيلَهُ وَقَمِيصَهُ الَّذِي يَلْبَسُهُ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَتُحِبُّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَ جَارِيَةٌ بَعَثْتَهَا لِتَمَهِّدَ فِرَاشَهُ، وَتَسْعَى فِي حَوَائِجِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلايَتَكَ بولايتنا وولايتنا بولاية الله عَزَّ وَجَلَّ^(٦٦)!!

وللوفاء للحق مستلزمات لا تقوم إلا بها، وهي كما يلي:

الأولى: إفراد الحب لله سبحانه وتعالى

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «الْقَلْبُ حَرَمٌ لِلَّهِ فَلَا تُسْكِنُ حَرَمَ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ»^(٦٧)، فالقلب أمانة من الله تعالى بين جنبيك وحق له وحده، فإن كنت من المحبين الصادقين فاجعلها وقفاً لجنابه ولا تُدْخِلْ فِيهِ أَجْنِيَا دُونَ أَمْرِهِ تَكُنْ مِنَ الْأَوْفِيَاءِ فِيمَا أَمَّنَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

از هر چه غیر دوست چرانگذرد کسی

کافر برای خاطر بت از خدا گذشت^(٦٨)

سألت مولانا زينب عليها السلام والدها أمير المؤمنين عليه السلام ذات يوم وهي طفلة صغيرة وقالت: أْتُحِبُّنَا

يا أبتاه؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: وَكَيْفَ لَا أَحِبُّكُمْ وَأَنْتُمْ ثَمَرَةُ فُؤَادِي!! فقالت زينب عليها السلام:
الْحُبُّ لِلَّهِ تَعَالَى وَالشَّفَقَةُ لَنَا (٦٩).

وتشير السيدة العقيلة عليها السلام إلى أن الحب الحقيقي والخالص هو الله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه،
وحب الأولاد حب ظاهري بمعنى الرأفة واللطف في المعاملة معهم لا الحب الحقيقي المنحصر لذات
الله الواحد الأحد، وكان هذا هو مفهوم كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كشفت عن مضمونه زينب عليها السلام.

الثانية: الثبات على الحب

فالسالك المحب إذا أراد أن يكون وفيًّا لله سبحانه فليكن حبه راسخا وعشقه ثابتا لا تنزله
عوارض الفتن والبلايا ولا تحركه المصائب والرزايا، بل يرى الخير في ذلك كله وأن الكل من عند الله،
فيرضى بما أجراه الله فيه وأراد به، فلا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب ولا النقصان بجفائه.

محنت از وی مایه شادی بود

بندگی اش تخم آزادی بود

کافرم گر ذره ای از درد او

می فروشم بر دو عالم ماه رو

کافرم گر شعله ای از سوز دل

می فروشم بر جهانی آب و گل (٧٠)

ولما تَسَمَّى العزيز الجبار بالاسم الصبور لصبره على أذى الكافرين والمنافقين وجحد الجاحدين
وشرك المشركين وتشبيهه المشبهين تعالى الله علوا كبيرا فالأولى أن يصبر العبد بأمر الله **﴿وَأَصْبِرْ وَمَا
صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾** (٧١) فيكون حبه ثابتا خالصا لله لا يتزعزع!!

قال مولانا أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالدِّينُ لِعَقِّ عَلَى السِّنْتِهِمْ
يُحَوِّطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَائِشُهُمْ فَإِذَا مُحِّضُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدِّيَانُونَ» (٧٢) وما الدين إلا
الحب، وأي حب أجلُّ وأعظم من حب الله تعالى وحب أوليائه وأحبائه!! (٧٣)

حاشا كه من از جور و جفای تو بنالم

بیداد لطیفان همه لطفست و کرامت (٧٤)

ثم ليكن راضيا بما قسمه له قانعا بما رزقه غير منكر لما قدر له مفتقر إليه على الدوام، فلا يلجأ
إلى غيره ولا يرفع لسواه رأسه ولا يبدل حبه بحب خلقه، وإن لم يكن كذلك فلا سبيل له إلى الوفاء
ألبته.

وعلى لسان الطاهر المطهر والوفي الأوفي جاء قوله عليه السلام: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبَّتْ

قَلْبِي عَلَى دِينِكَ!!

الثالثة: استمرار الحب

ولاستمرار حب السالك لله ودوامه عليه أن يترك كل ما يوجب محقه وإزالته وقطيعة، فما أن ينقطع حبل الحب بعارضي ويغفل المحب عن محبوبه طرفة عين إلا ويحل محله بلا شك حب يشغله عن حبه فيضعف بذلك الوفاء للمحبيب على الحقيقة.

نُبْرَدُ عَشِقُ رَا جَزْ عَشِقُ دِيْغَر

چرا یاری نگیری تو نکوتر^(٧٥)

والعارف المنقطع إلى الله قد امتلأ قلبه من محض محبة الله، فهو في شهود ومراقبة وحضور مع الحق دائم لا يفتر في حالٍ عن قبول الفيض وتلقّي الإمداد الإلهي ودوام الوصلة، فحب الله تعالى حقيقي أبدي لا توقيت له ولا تحديد زمان عن زمان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته: «(إلهي) إِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَهَا أَنِّي أَحِبُّكَ»^(٧٦)!! فالعارف بالله لا يتصور أن يتعد يوما عن ربه ويقطع حبه له.

وفي حديث لأبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَإِنْ قَلَّ»^(٧٧) أي مَنْ نَوَى الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَمَلٍ مَا فَلَيْدُمْ عَلَيْهِ، فالديمومية في العمل لله أفضل من سعته لأن في الديمومية حضور دائم ووصل وفي القطع بُعد وفصل، ومن هنا قيل: «قَلِيلٌ دَائِمٌ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مُنْقَطِعٌ»^(٧٨).

الرابعة: حب ما يحبه المحبوب وكل ما يتعلق به

حب الشيء يوجب حب آثاره ويقضي تتبّع محابّه ومراضيه، فإذا أحببت شيئا لأجل الله فالمحبوب بالأصالة هو الله سبحانه لا ذلك الشيء في حد ذاته، وإن كنت محبا صادقا لله تعالى عليك أن تكون حريصا على مطاوعة محبوبك ومحبوب محبوبك، وبذلك تكون قد أحببت ما أمرك الله أن تحب فتكون في حبك إياه عبدا مطيعا لأمر سيده ومولاه.

ولما لم يكن إلى الله سبيل إلا الوسيلة الواسطة والعروة الوثقى والحبل الممدود التي عرفها لنا سبحانه في كتابه وقال: ﴿... وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾^(٧٩) وقال: ﴿... فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾^(٨٠) وقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنْمَأَتْ قُفُوفُ الْأَبْحَابِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ﴾^(٨١) وهي كتاب الله والنبي صلى الله عليه وآله ومن في حكمه ممن أمر الله تعالى ورسوله بحبهم واتباعهم وهم عترته الزكية الذين هم مظاهر محبة الله وأعظم آثاره وأكبر آياته، لذا فمن أظهر محاب الله تعالى ذكره ودعاؤه وتلاوة كتابه والالتذاذ بسماحه والتقرب إليه بنوافل الخيرات المحببة عند الله والمحببة

إليه وعقد القلب على حب أوليائه وخاصته وأحبابه وأودائه لا سيما الأكمليين منهم وهم محمد وآل محمد ﷺ.

والتاريخ يشهد مواقف عظيمة صدرت من محبي رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ تنم عن الحب الصادق والوفاء الخالص، وإليك نموذجان منها:

كان أبو ذر تخلف عن رسول الله ﷺ (في غزوة تبوك) ثلاثة أيام وذلك أن جملة كان أعجف^(٨٢) فلحق بعد ثلاثة أيام به ووقف عليه جملة في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله ﷺ كأن أبا ذر!! فقالوا: هو أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ أدركوه بالماء فإنه عطشان، فأدركوه بالماء ووافى أبو ذر رسول الله ﷺ ومعه إداوة فيها ماء، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر معك ماء وعطشت!! فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي انتهيت إلى صخرة وعليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد فقلت لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ يا أبا ذر رحمك الله تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك وتدخل الجنة وحدك يسعد بك قوم من أهل العراق يتولون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك!!^(٨٣)

وروي أن أم أيمن لما توفيت فاطمة الزهراء ﷺ حلفت أن لا تكون بالمدينة إذ لا تطيق أن تنظر إلى مواضع كانت بها، وقالت: لا أرى المدينة بعدها!! فخرجت إلى مكة، فأصابها عطش شديد في الجحفة حتى خافت على نفسها، فكسرت عينيها نحو السماء ثم قالت: يا رب أتعطشني وأنا خادمة بنت نبيك!! فأنزل الله عليها دلوًا من السماء فيه من ماء الجنة، فشربت فلم تحتج إلى الطعام والشراب سبع سنين، وكان الناس يبعثونها في اليوم الشديد الحر فما يصيبها عطش!!^(٨٤)

وأقول: كذلك يكون الوفاء الإلهي بإكرامه أهل الوفاء خاصة أولياء الله وأحبابه، ومن أوفى بعهده

من الله!!

«اللَّهُمَّ إِنِّي لَوْ وَجَدْتُ شَفَعَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَخْيَارِ الْأَيُّمَّةِ الْأَبْرَارِ جَعَلْتُهُمْ شَفَعَائِي، فَبَحَقَّتْهُمْ الَّذِي أَوْجَبَتْ لَهُمْ عَلَيْكَ أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي جُمَّلَةِ الْعَارِفِينَ بِهِمْ وَبِحَقَّتْهُمْ وَفِي زُمْرَةِ الْمَرْحُومِينَ بِشَفَاعَتِهِمْ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»^(٨٥)!!

الهوامش

- (١) الكَرَى: النوم أو النعاس
- (٢) تنسَع: تؤخَّر
- (٣) وَاقَى: أتى إلى الميعاد
- (٤) سورة التوبة: آية ١١١
- (٥) أصل الحَوْن النقص كما أن أصل الوفاء التمام.
- (٦) الكافي: ج ٢ ص ٤٦
- (٧) سورة طه: آية ٥٠
- (٨) سورة آل عمران: آية ٧٦
- (٩) سورة الرعد: آية ٢٠
- (١٠) سورة البقرة: آية ١٧٧
- (١١) سورة الأنفال: آية ٢٧، وأما سبب نزول هذه الآية المباركة فقد ذكرناه في (المنزل ٢٩: الدفاع عن المحبوب عند المحب)
- (١٢) سورة الأنفال: آية ٥٨
- (١٣) سورة الأحزاب: آية ٧٢
- (١٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٧٤، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢ باب ٤١ ص ٣١٢
- (١٥) بحار الأنوار: ج ٦٩ ص ٤٠١
- (١٦) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٦٠
- (١٧) سورة الأحزاب: آية ٢٤
- (١٨) سورة المائدة: آية ١١٩
- (١٩) سورة البقرة: آية ٤٠
- (٢٠) سورة النساء: آية ١٢٢
- (٢١) سورة الأعراف: آية ١٧٢
- (٢٢) سورة آل عمران: آية ٢٨، آية ٣٠
- (٢٣) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٩ ص ٥٣
- (٢٤) راجع المنزل (٦): التفكير عند المحب
- (٢٥) سورة آل عمران: آية ٧٦
- (٢٦) وهو قوله تعالى في سورة آل عمران- آية ٧٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

- (٢٧) سورة الرعد: آية ١٩ - آية ٢٠
- (٢٨) سورة الأعراف: آية ١٠٢
- (٢٩) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٦٠
- (٣٠) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٣ ص ٨٤، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٠٢
- (٣١) سورة الجاثية: آية ٦
- (٣٢) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ٣٢٣
- (٣٣) تفسير البرهان (للسيد هاشم البحراني): المجلد الثاني ص ٦١٥، وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال قال رسول الله ﷺ: «ما تكاملت النبوة لِنَبِيِّ فِي الْأَظْلَمَةِ حَتَّى عُرِضَتْ عَلَيْهِ وَوَلَايَتُهُ أَهْلَ بَيْتِي وَمُثَلُّوَالَهُ فَأَقْرَبُوا بِطَاعَتِهِمْ وَوَلَايَتِهِمْ» - بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٨ ص ٩٣، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٨١
- (٣٤) تفسير فرات بن إبراهيم الكوفي: المجلد ١ ص ١٤٦
- (٣٥) تفسير علي بن إبراهيم القمي: مجلد ١ ص ٢٤٦ ومنه بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٣٦
- (٣٦) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ١ ص ٧٧، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٤٥، خَفَرَّ بِهِ خُفْرًا وَخُفُورًا: نقض عهده وغدره.
- (٣٧) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ أَحَدًا مَسْأَلَةً مَلَكَهُ وَرَقَّه» - منية المريد: ص ٢٤٥، وجاء في بحار الأنوار: ج ١٠٨ ص ١٦ بهذه العبارة: قال سيد العالمين: «مَنْ عَلَّمَ شَخْصًا مَسْأَلَةً مَلَكَ رِقَّةً».
- (٣٨) محاضرات الأدباء: ج ١ ص ٤٥، الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ١١٩ ومنهما منية المريد: ص ٢٤١
- (٣٩) سورة المؤمنون: آية ٨، سورة المعارج: آية ٣٢
- (٤٠) عن الباقر عليه السلام قال: «ثَلَاثٌ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَحَدٍ فِيهِنَّ رُخْصَةً أَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِلْبِرِّ وَالْفَاجِرِ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ بَرِّينَ كَانَا أَوْ فَاجِرِينَ» - الكافي: ج ٢ ص ١٦٢، تحف العقول: ص ٣٦٨ مع اختلاف الترتيب.
- (٤١) سورة الإسراء: آية ٣٤
- (٤٢) منازل الآخرة (للمحدث القمي): ص ١٩٨
- (٤٣) سورة الذاريات: آية ٥٦
- (٤٤) سورة النساء: آية ٥٩، سورة المائدة: آية ٩٢، سورة النور: آية ٥٤، سورة محمد: آية ٣٣، سورة التغابن: آية ١٢
- (٤٥) سورة آل عمران: آية ٣٢، آية ١٣٢
- (٤٦) سورة الأنفال: آية ١، سورة الأنفال: آية ٢٠، سورة الأنفال: آية ٤٦، سورة المجادلة: آية ١٣
- (٤٧) سورة النساء: آية ٨٠
- (٤٨) سورة النساء: آية ٥٩

- (٤٩) سورة الجن: آية ٢٦
- (٥٠) الترجمة:
- لا تَفُشُوا أَسْرَارَ الْعَشِيقِ وَالسُّكْرِ لَمَدِّعِيهَا
حتى يموتَ جاهلاً ببداءِ عبادةِ النفس
(٥١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٥٢، الأوكية جمع وكاء وهو الخيط الذي يُشدُّ به رأس الصرّة أو الكيس، وقد شَبَّهَ أفواههم بكيس أو صرّة شدَّ رأسها فلا يخرج منها شيئاً!!
- (٥٢) الترجمة:
- على فمه قفل وعلى قلبه أسرار
الفم صامت والقلب بالنغمات ملئ
العارفون الذين شربوا من كأس الحق
عرفوا أسراراً وأخفوها
فمن علّموه أسرار الحق
ختموا على فمه وخاطوه
(٥٣) تحف العقول: ص ٤٨
- (٥٤) مصباح الشريعة: باب ٩٥ ص ٦٤ ومنه بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٤
- (٥٥) الترجمة:
- إخفاء الكنز في التراب عقلانية وتعمير التراب جهالة
الأسرار المودعة في باطني لا متناهية، ولكني لا أجد باطنا يعرف الحق إلا القليل
لا أعتقد أن هناك قلباً مبصرة أو باطناً كالقمر والشمس المضيء إلا القليل
حتى أوقد لساني بحكايات القلب فأجعلها مشتعلة بشعلة القلب
(٥٦) عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام قال: «كَيْتَانُ سِرِّنَا جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» - أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٤٠ ص ٣٣٨ ومنه بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٢٧٨ رواية ٤
- (٥٧) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٢٤٩، الكافي: ج ٢ ص ٢٢٦، بصائر الدرجات: ج ١ باب ١٢ ص ٤٨
- (٥٨) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٦٨ رواية ١٥
- (٥٩) البحار: ج ٦٧ ص ١٠٣ رواية ٢١، وعن أبي بصير قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ عِنْدَنَا سِرًّا مِنْ سِرِّ اللَّهِ وَعِلْمًا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ لَا يَحْتَمِلُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ وَاللَّهُ مَا كَلَّفَ اللَّهُ أَحَدًا ذَلِكَ الْحِمْلَ غَيْرَنَا وَلَا اسْتَعْبَدَ بِذَلِكَ أَحَدًا غَيْرَنَا وَأَنْ عِنْدَنَا سِرًّا مِنْ سِرِّ اللَّهِ وَعِلْمًا مِنْ عِلْمِ اللَّهِ أَمَرْنَا اللَّهَ بِتَبْلِيغِهِ فَبَلَّغْنَا عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَمَرْنَا بِتَبْلِيغِهِ مَا نَجِدْ لَهُ مَوْضِعًا وَلَا أَهْلًا وَلَا حِمَالَةً يَحْمِلُونَهُ حَتَّى خَلَقَ اللَّهُ لِذَلِكَ أَقْوَامًا خَلِقُوا مِنْ طِينَةِ خُلِقَ مِنْهَا مُحَمَّدٌ عليه السلام وَذُرِّيَّتُهُ وَمِنْ نُورِ خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُ مُحَمَّدًا عليه السلام وَذُرِّيَّتَهُ وَصَنَعَهُمْ بِفَضْلِ صُنْعِ رَحْمَتِهِ

الَّتِي صَنَعَ مِنْهَا مُحَمَّدًا ﷺ فَبَلَّغْنَاهُمْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَمَرْنَا بِتَبْلِيغِهِ فَقَبِلُوهُ وَاحْتَمَلُوا ذَلِكَ وَبَلَّغَهُمْ عَنَّا ذَلِكَ فَقَبِلُوهُ وَاحْتَمَلُوهُ وَبَلَّغَهُمْ ذِكْرُنَا فَمَا لَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى مَعْرِفَتِنَا وَحَدِيثِنَا فَلَوْلَا أَنَّهُمْ خَلِقُوا مِنْ هَذَا لَمَا كَانُوا كَذَلِكَ وَلَا وَاللَّهِ مَا احْتَمَلُوهُ» - بحار الأنوار: ج

٢٥ ص ٣٨٥ رواية ٤٤

عن حفص التمار قال دخلت على أبي عبد الله ﷺ أيام صلب المعلی بن خنيس قال فقال لي: يا حفص إنني أمرت المعلی بن خنيس بأمرٍ فخالفني فأبتلي بالحديد، إنني نظرت إليه يوماً وهو كئيبٌ حزينٌ فقلت له ما لك يا معلی كأنك ذكرت أهلك ومالك وولدك وعيالك، قال: أجل، قلت أذن مني، فمسحت وجهه فقلت أين تراك؟! قال: أراني في بيتي، هذه زوجتي وهذا ولدي، فتركته حتى تمالأ منهم واستترت منهم حتى نال منها ما ينال الرجل من أهله، ثم قلت له: أذن مني، فدنا مني، فمسحت وجهه فقلت: أين تراك، فقال: أراني معك في المدينة، هذا بيتك، قال: قلت له يا معلی إن لنا حديثاً من حفظ علينا حفظ الله عليه دينه ودنياه، يا معلی لا تكونوا أسرى في أيدي الناس بحديثنا إن شاءوا آمنوا (عليكم وإن شاءوا قتلوكم، يا معلی إن من كتم الصعب من حديثنا جعله الله نوراً بين عينيه ورزقه الله العزة في الناس ومن أذاع الصعب من حديثنا لم يموت حتى يعضه السلاح أو يموت كبلاً، يا معلی بن خنيس وأنت مقتولٌ فاستعد!! - بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٣ ص ٤٢٣،

ومنه بحار الأنوار: ج ٢ ص ٧١، ج ٤٧ ص ٨٧

(٦٠) الترجمة:

قال ما أودى بحياة ذلك الحبيب شقنا سوى إفشاء الأسرار

(٦١) سورة الشورى: آية ٢٣

(٦٢) مناقب ابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٢٨٦، بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٥٦، الجامع الصغير للسيوطي: ج ٢ ص ١٤٤، وورد في الدعاء الثاني من الصحيفة السجادية في الصلاة على رسول الله ﷺ: «اللهم فصل على

محمدٍ أمينك على وحيك ونجيبك من خلقك.... كما نصّب لأمرِك نفسه وعرض فيك للمكروه بدننه وكاشف في الدعاء إليك حامتته وحارب في رضاك أسرته وقطع في إحياء دينك رحمة وأقصى الأذنين على جحودهم وقرب الأقصين على استجابتهم لك والى فيك الأبعدين وعادى فيك الأقربين وأذاب نفسه في تبليغ رسالتك وأتعبها بالدعاء إلى ملتك وشغلها بالنصح لأهل دعوتك وهاجر إلى بلاد الغربة ومحلل النأي عن موطن رحله وموضع رحله ومسقط رأسه ومأنس نفسه إرادة منه لإعزاز دينك واستنصاراً على أهل الكفر بك....».

(٦٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٦٣، شرح نهج البلاغة (لابن ميثم): ج ٣ ص ٤٢٥

(٦٤) وفي الحقيقة أن نفع المودة في قربي رسول الله ﷺ عائد على الأمة لا على نبيها وذخرها لهم لا له، فقد قال الله

تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ - سورة سبأ آية ٤٧، أي قل يا محمد أن أجر أداء الرسالة وبيان الشريعة وهو المودة في القربى التي لم أسأل سواها هو نافع لكم دوني فتهدون به وتنجون من عذاب يوم القيامة وأما ثواب عملي فليس بوسعكم القيام بأدائه بل هو على الله الذي يعلم مقدار أجري فيثبني عليه ولا يضيعه - تفسير الصافي: مجلد ٤ ص ٢٢٥، تفسير البرهان: مجلد ٤ ص ٣٥٤، تفسير بيان السعادة: مجلد ٣ ص ٢٧١، وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو لم تكن هذه الآية المباركة نزلت عليك وعلمنا بها علمنا الله بأن النفع عائد علينا لكفتنا آية المودة في قرباك وفاء لك ولأهل بيتك الطاهرين!!

(٦٥) بحار الأنوار: ج ٢٧ ص ٨٨

(٦٦) الكافي: ج ٢ ص ١٧٤ ح ١٤

(٦٧) جامع الأخبار: ص ١٨٥ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٥، كنز العمال: ج ١ ص ٢٥

(٦٨) الترجمة:

كيف لا نهجر غير الحبيب من أجل الحبيب وقد هجر الكافر ربّه من أجل صنمه!!

(٦٩) رياحين الشريعة: ج ٣ ص ٥٤

(٧٠) الترجمة:

كل محنة من قبله سبب للبشارة والسرور، والعبودية له بذرة الحرية إنه لكفر إن أنا بعت جماله بالعالمين بسبب ذرة مصيبة أو محنة ابتلاني بها إنه لكفر إن أنا بعت ذرة من حرقة القلب بعالم من الماء والطين.

(٧١) سورة النحل: آية ١٢٧

(٧٢) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١١٦ رواية ٢ باب ٢٠، تحف العقول: ٢٤٥

(٧٣) روى أبو محمد البصري عن أبي العباس خال شبل كاتب إبراهيم بن محمد قال: كنا أجرينا ذكر أبي الحسن عليه السلام

فقال لي: يا أبا محمد لم أكن في شيء من هذا الأمر وكنت أعيب على أخي وعلى أهل هذا القول عيبا شديدا بالذم والشتم إلى أن كنت في الوفد الذين أوفد المتوكل إلى المدينة في إحضار أبي الحسن عليه السلام، فخرجنا إلى المدينة، فلما خرج وصرنا في بعض الطريق وطوبنا المنزل وكان منزلا صائفا شديدا الحر فسألناه أن ينزل فقال لا، فخرجنا ولم نطعم ولم نشرب، فلما اشتد الحر والجوع والعطش فبينما ونحن إذ ذلك في أرض ملساء لا نرى شيئا ولا ظل ولا ماء نستريح فجعلنا نشخص بأبصارنا نحوه، قال: وما لكم أحسبكم جياعا وقد عطشتم، فقلنا إي والله يا سيدنا قد عيينا، قال: عرّسوا وكلوا واشربوا، فتعجبت من قوله ونحن في صحراء ملساء.... فقال: ما لكم!! عرّسوا، فابتدرت إلى القطار لأن يخ وإذا أنا بشجرتين عظيمتين تستظل تحتها عالم من الناس وإني لأعرف موضعها أنه أرض براح فقراء، وإذا بعين تسيح على وجه الأرض أعذب ماء وأبرده، فنزلنا وأكلنا وشربنا واسترحنا وأن فينا من سلك ذلك الطريق مرارا، فوقع في قلبي ذلك الوقت أعاجيب وجعلت أجدُّ النظر إليه أتأمله طويلا وإذا نظرت إليه تبسم وزوى وجهه عني، فقلت في نفسي:

والله لأعرفن هذا كيف هو، فأتيت من وراء الشجرة فدفنت سيفي ووضعت عليه حجرتين وتغطت في ذلك الموضع وتبأت للصلاة، فقال أبو الحسن عليه السلام: استرحتم؟! قلنا: نعم، قال: فارتحلوا على اسم الله فارتحلنا، فلما أن سرنا ساعة رجعت على الأثر فأتيت الموضع فوجدت الأثر والسيف كما وضعت والعلامة، وكأن الله لم يخلق ثم شجرة ولا ماء ولا ظلالا ولا بللا فتعجبت من ذلك ورفعت يدي إلى السماء فسألت الله الثبات على المحبة والإيمان به والمعرفة منه وأخذت الأثر فلحقت القوم، فالتفت إلي أبو الحسن عليه السلام وقال: يا أبا العباس فعلتها!! قلت: نعم يا سيدي لقد كنت شاكا وأصبحت أنا عند نفسي من أغنى الناس في الدنيا والآخرة، قال عليه السلام: هو كذلك هم معدودون معلومون لا يزيد رجل ولا ينقص - بحار الأنوار: ج ٥٠ ص ١٥٦

(٧٤) بيت للشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، وترجمته:

حاشا أن أتأوّه من جورك وجفائك

فكل ما يرد علينا من مصائب من أهل اللطف لطف وكرامة.

(٧٥) الترجمة:

لا شيء يمحو العشق سوى عشق آخر

فلم لا تتخذ لنفسك المعشوق الأفضل.

(٧٦) من المناجاة المعروفة بالمناجاة الشعبانية.

(٧٧) الكافي: ج ٢ ص ٨٢

(٧٨) وقد ورد في حديث صادق على قائلها الصلاة والسلام: «العمَلُ الدائم القليل على اليقين أفضل

عند الله من العمل الكثير على غير يقين» - تحف العقول: ص ٣٦١، عيون الحكم والمواعظ: ج

١٥ ص ٢٠٢ ح ٦

(٧٩) سورة المائدة: آية ٣٥

(٨٠) سورة البقرة: آية ٢٥٦

(٨١) سورة آل عمران: آية ١١٢، والحبل أي العهد، وسمي العهد جبلا لأنه يعقد به الأمان كما يعقد الشيء

بالحبل، وقيل جبل من الله أي عهد من الله وحبل من الناس أي عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيه عليه السلام، وإنما

اختص الذكر بوصيه أمير المؤمنين عليه السلام نظرا للأولوية في حضرة الولاية ولا شك أن المقصود هو العترة

الطاهرة المطهرة، وعن إبان بن تغلب قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ

عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَنَّا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ قال عليه السلام: ما يقول الناس فيها؟! قلت:

يقولون حبل من الله كتابه وحبل من الناس عهده الذي عهد إليهم، قال عليه السلام: كذبوا!! قلت: ما تقول

فيها؟! فقال عليه السلام لي: حبل من الله كتابه وحبل من الناس علي بن أبي طالب عليه السلام!! - تفسير فرات الكوفي:

مجلد ١ ص ٩٢، وفي تفسير علي بن إبراهيم القمي أنها نزلت في الذين غضبوا حقوق آل محمد عليهم السلام، وفي

تفسير بيان السعادة مجلد ١ ص ٢٩٣ أن ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ هي الفطرة التي فطر الناس عليها التي يعبر

عنها بالولاية التكوينية التي هي الكتاب التكويني الإلهي الذي كتابه التدويني ظهوره وبيانه ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ هو الاتصال بالنبي ﷺ بالبيعة العامة أو بالولي ﷺ بالبيعة الخاصة الولوية المعبر عنها بالولاية التكليفية.

(٨٢) أعجف: مهزول والأثنى عجفاء.

(٨٣) تفسير علي بن إبراهيم القمي: ج ١ ص ٢٩٥، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٩

(٨٤) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٢٨

(٨٥) فقرة من الزيارة الجامعة

المنزل (٣٦)

الجفاء عند الحب

الجفاء في اللغة بمعنى البعد عن الشيء، وقيل: الجفاء الغلظة في الطبع والخرق في المعاملة والفظاظة فيها ورفض الصلة والبر والرفق، ويطلق أيضا على البعد عن الآداب. وأما العرفاء فيقولون الجفاء أي الظلم، والظلم حجاب وستر وخفاء عن المعارف والمشاهد، وقيل أيضا أن الجفاء نقيض الوفاء، فالوفاء هو العمل بالعهد والجفاء هو نقض العهد، وقيل أيضا أن الجفاء عدم الوفاء في المقام والمقال.

وكما نرى من معاني الجفاء أنه قيد ووثاق على قدم السالك إلى الله موجب لتكثير الوسائط بينه وبين الحق سبحانه وإعاقته عن سرعة السير والوصول إلى الكمال المطلوب له وحبسه عن نيل الدرجات العالية والمقامات السنية، بل قد يجره إلى الوراء حيث الآثار السيئة والعواقب الوخيمة التي تحول بالمرّة بينه وبين ينبوع الكمال ومطلق الكمال، ويمكن أن نقول أن الجفاء آفة موبقة وخصلة مهلكة وداعية إلى سخط الله عزّ وجلّ ويكون صاحبه أبقا عن جناب المولى سبحانه مبعدا عن داره وحضرتة.

وفي هذا المقام نلتمس بعون الله وتوفيقه من شعاع أنوار الكلمات الإلهية بريقا يضيء لنا درب الدخول في رحاب هذا المنزل الخطير ولنكون على بصيرة ندرك بها الحقائق والمعاني ما شاء الله أن يكشف لنا منها:

قال الله عزّ وجلّ في الوثيقة الإلهية المجيدة: ﴿أَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *﴾^(١).

وقال عزّ وجلّ فيما يسمّى بقضاء العهد: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾^(٢)!!

اعلم أيها السالك إلى الله أن منشأ السعادة البشرية أو شقائها إما طاعة الله تعالى أو عصيانه، أو

بمعنى آخر إما طاعة الله تعالى أو طاعة الشيطان التي تتمثل فيها كل معصية وضلال وجهل وعمى . وقد أبان الله عزَّ وجلَّ في كتابه المنير سبل السعادة والرشاد والشقاء والفساد بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٣)، فسبل السعادة هي الخيرات المقرَّبة إلى الله تعالى وسبل الشقاء هي الشرور المبعدة عن الله تعالى!!

والله سبحانه وتعالى أودع علم التوحيد في ذواتنا وأخذ علينا عهدا بتوحيده في الطاعة وألزمنا العبودية والاسترقاق له وحده حين فتق أسماعنا في عالم الذر بكلمة: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجبنا نداء الحق بلسان القبول والانقياد والتسليم وقلنا ﴿بَلَى﴾.

وجاء في الحديث الإلهي: «كُلُّ عِبَادِي خُلِقْتُ حُنْفَاءَ فَأَحْتَالَتَهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي غَيْرِي»^(٤).

فكل الموجودات - ومنها المؤمن والكافر - بحسب الفطرة الذاتية مسلم^(٥) عارف بالله بالعلم البسيط^(٦) وموحد بالكشف الصحيح^(٧) إلا أن الله جلَّ وعلا يعلم بعلمه السابق أزلا والثابت أبدا بجحود بني آدم لربوبيته وخروجهم عن حقيقة العبودية له ومحض طاعته وعصيان أمره وكفران نعمته والميل عن صراطه واحتجاب العقول بسائر الكثرات وانغماس النفوس في بحر الشهوات وانغمار الروح في قيود التعلقات وأدعاء المُلْكِيَّةِ وحق التصرف بعدما أخرجهم برحمته وجوده من ظلمة العدم ولم يكونوا من قبل شيئاً مذكوراً، ثم ألبسهم خلعة الوجود بكلمة ﴿كُنْ﴾ وأنزلهم إلى العالم الأدنى، ولولا علمه السابق بذلك لما كتب عليهم عهداً دون سائر خلقه، ولما قال فيهم مؤكِّداً: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾^(٨)، فهو مع صرف عمره ونقصه في خسران نفسٍ دائمٍ وهلاكٍ مستمرٍ بارتكاب المعاصي والكفر بالله وعدم الوفاء بالعهد ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾^(٩).

فعدم وفاء العبد بالعهد السابق الأزلي لاحتجابه بالغواشي الظلمانية والتخلي عن المعرفة الفطرية الأولى إنما هو لنقص استعداده وخسران رأس ماله الذي هو العمر والاستعداد لتضييعها فيما هو فانٍ.

يقول بعض المشايخ أن من أصعب الآيات التي تمر على العارفين كل آية أشار إليها الحق سبحانه بالوفاء بالعهود والعقود لأن العبد لا يزال تحت حكم الأمر بالوفاء والأخذ عليه بالعهد ما لم يوفَّ كامل حقيقة العبودية.

ولكن انظر إلى عامة الناس تجد أكثرهم - إلا من عصم الله - قد نقضوا عهد ربهم من بعد الميثاق، وانتهكوا شرط العبودية له من بعد الإقرار، وحلَّوا ما عقده من وحدانيته بالربوبية من بعد الإشهاد، فانهمكوا في الغواشي الطبيعية والحجب الظلمانية والموانع الجسمانية وعوامل الانحراف الموجبة للكفر

والانحطاط، واحتجبوا عن علم التوحيد المُودَع فيهم والفطرة الأصلية التي فُطروا عليها، وأبدلوا «بلى» بـ «لا»، و«غدوا» يعبدون أربابا متفرقين حتى قالوا مستكبرين: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ لِهَآءَ وَآحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(١١) بل كثرة الآلهة أعجب والله لو كانوا يعقلون^(١٢) ثم تجرأوا بأعظم من ذلك حين قالوا مستكبرين: ﴿... وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آهِنَتَنَا...﴾^(١٣)، فأصبحت قلوبهم مراتع لوساوس الشيطان الذي ثبتت عداوته الجبليّة للإنسان بشهادة الرحمن حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «أَبْغَضُ إِلَيْهِ عَبْدِي فِي الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ الْهَوَى»^(١٤)، ولمناسبة الاتحاد بين الهوى والشيطان فإن الهوى وما يتشعب منها من صفات بشرية رذيلة كالطمع والغضب والشهوة والحرص والحقد والحسد وغيرها مسكن للشيطان ومرتع يجول فيها بوساوسه كيف يشاء، ويزينها بزخارفه الخادعة، ويصبغها بصبغته الزائفة، ويبني حولها سدا رفيعا مصمتا يمنع نفوذ الأنوار الإلهية إليها، ويدفن في ساحتها الفطرة الأولى، حتى إذا ما انغمر فيها أصحابها والتفت حولهم شباكها وضعفت قواهم عن الخلاص منها وبلغ الشيطان أمنيته ونال بغيته وتمت حيلته يأتيهم في خاتمة المطاف يوم يُقْضَى الأمر ويُحْسَم الموقف ويُفْرَغ من الحكم بين الخلائق والحساب فيخذلهم قائلا: ﴿... وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي...﴾^(١٥) أي إني خالي من البرهان ولا حجة لي فيما كنت أدعوكم إليه سوى ما كان لي من الوسوسة والدعوة والإغواء ولم أجبركم على ذلك قسرا ولا قهرا ولا إكراها، وحين لا تنفع الحسرة والندامة يقول لهم مستهزئا: ﴿... فَلَا تَكُونُوا مِثْلَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ لِي...﴾^(١٦) أي إن الله وعدكم ووفاؤه ووعدته ووعده وصدقكم ولم أوف أنا بما وعدتكم به وأكذبتكم.

ويوم القيامة حيث يظهر الحق الذي لا يشوبه باطل يقف الشيطان معترفا وهو يقول: ﴿... إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ...﴾^(١٧) أي إن الله وعدكم ووفاؤه ووعدته ووعده وصدقكم ولم أوف أنا بما وعدتكم به وأكذبتكم.

وعلى هذا يمكن القول أن اتباع الإنسان مقتضى شهوته ومستلذها هو تعبد الهوى، ومع تعبد الهوى يظهر تسلط الشيطان وولايته عليه، والتي هي - بعبارة أخرى - تعبد للشيطان، لأن اتباع الهوى بأمر الشيطان ووحيه وتسويله عبادة له كما أن اتباع الرسل وطاعتهم بأمر الله تعالى عبادة لله وطاعة، ولهذا فإن اتباع الهوى وتعبدها جحود للحق وإن عبادة الشيطان المذكورة في الآية الكريمة: ﴿... أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾ هي الجفاء الأعظم فيما عاهد به الإنسان ربه من توحيدته وربوبيته، ولولا التسلح بقوة داخلية صلبة رادعة تردع الأهواء النفسانية والشهوات الباطنية والمطامع الدنيوية والمغريات الوهمية وهي أقوى العوامل في دفع الإنسان

إلى الجحود والعصيان ومخالفة الرحمن لما تمكَّن الشيطان من التسويل والإغراء والوسوسة والإغواء. قال مولى الموحدین أمير المؤمنین عليه السلام في نهج البلاغة: «دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَانْقَرُوا وَوَلَّوْا وَدَعَاهُمْ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا»^(١٧)!!

وليس خوف السالك على نفسه من الشرك الجلي وهو عبادة الأصنام الحقيقية بل أشد ما يكون خوفه على نفسه من الشرك الخفي أو الشرك الأصغر وهو عبادة الأصنام المجازية والباطنية والتفات النفس إلى ما سوى الله من رياء وسمعة والذي هو أخفى من ديب النملة السوداء على الصفا في الليلة المظلمة^(١٨).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟! قال صلى الله عليه وآله: «هو الرياء (الرياء) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الْجَزَاءَ»^(١٩).

وقال صلى الله عليه وآله: «يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ مَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ شَرِيكًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ لِشَرِيكِي دُونِي لِأَنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا أَخْلَصَ لِي»^(٢٠).

وقال صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْمَلِكَ لِيَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهَجًا بِهِ فَإِذَا صَعَدَ بِحَسَنَاتِهِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اجْعَلُوهَا فِي سَجِّينَ إِنَّهُ لَيْسَ إِلَيَّيَّ أَرَادَ بِهِ»^(٢١)!!

وعن صادق الآل أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجهه الله إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه»^(٢٢)!!

من هنا قال بعض العلماء: «اجْتِنَابُ الرِّيَاءِ مِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى مَنْ رَاضَ نَفْسَهُ وَمَلَكَهَا الْإِحْلَاصَ وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَتْ يَدَ الْعِنَايَةِ زِمَامَهُ»!!

فالرياء داء عضال وعلّة مهلكة وحجاب عن قبول فضل الله وفضيه، وهو ذو مراتب حسب شدته وضعفه وغلظته ورقته.

ثم يقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: «حَقُّ اللَّهِ الْأَكْبَرُ أَنْ تَعْبُدَهُ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا»^(٢٣)!!

فكما أن السالك يوحد الله توحيدا ذاتيا بتوحيده في الألوهية عليه أن يوحد توحيدا أفعاليا بأن يكون اعتماده على الله تعالى اعتمادا كلياً ولا يكون اعتماده على الأسباب الواسطة والموضوعة فيركن

إليها بقلبه ويسكن إليها ويفرحه وجودها ويجزئه فقدتها من حيث لا يشعر، وإلى ذلك أشار الحق سبحانه بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٢٤) أي مشركون بالله شركا خفيا، لأن الشرك الجلي لا يتفق مع الإيمان، وهو الشرك غير المغفور والمعني في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾^(٢٥)، وأما الشرك الخفي فهو بعض مراتب الشرك الذي يجامع بعض مراتب الإيمان^(٢٦) ومغفور إن شاء الله تعالى إذا جاهد صاحبه التخلص منه، والمؤمنون بالله مؤمنون بوجوده وهم كثيرون، وأما المؤمنون بالتوحيد فليسوا بمشركين به شيئا أيّا كان، وهم الذين قال الحق جلّ وعلا في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾^(٢٧)، وقال: ﴿... مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾^(٢٨)، وهم أهل الصفاء العارفون بالله الموحدون له وقليل ما هم.

عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال: هُوَ الرَّجُلُ يَقُولُ لَوْلَا فُلَانٌ لَهَلَكْتُ وَلَوْلَا فُلَانٌ لَأَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا وَلَوْلَا فُلَانٌ لَضَاعَ عِيَالِي أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ شَرِيكًا فِي مُلْكِهِ يَرْزُقُهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُ!! قال: قلت: فيقول لولا أن الله منّ على فلان هلكت؟! قال عليه السلام: نَعَمْ لَا بَأْسَ بِهَذَا^(٢٩).

وعن أبي بصير عن أبي إسحق قال: هو قول الرجل لولا الله وأنت ما فعل بي كذا وكذا، ولولا الله وأنت ما صُرف عني كذا وكذا^(٣٠)!!

فالشرك الخفي يحمل في طيّه رائحة الجفاء الخفي للحق سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية والسر عنده علانية وصاحبه خادع نفسه من حيث لا يشعر.

وخلاصة ما سبق من القول أن اتباع كل سبيل سوى سبيل الله جفاء لأنه موجب للغواية والضلال والانحراف عن الصراط المستقيم والسبيل القويم والحق سبحانه يقول: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣١)، والعهد وصية كما جاء في جُلّ التفاسير القرآنية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أي ألم أوصيكم!!

ومن المفردات المرادفة للجفاء الفسوق والإباق، فالفسوق في اللغة هو الخروج عن طاعة الله وترك أمره والخروج عن طريق الحق والميل إلى المعصية، والإباق هروب العبد من خدمة سيده ومولاه، وقد ذكر الله تعالى في كتابه نقض عهده والخروج عن طاعته - وكلها معاني ومفاهيم الجفاء - تحت عنوان الفسوق وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾^(٣٢) أي خارجين عن الوفاء بالعهد.

فالفساقون هم الجفأة الناقضون لعهد الله من بعد ميثاقه، ويؤكده قوله عزّ وجلّ: ﴿... وَمَا يَضِلُّ

بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ... ﴿٣٣﴾ وكذلك ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أن الجفاء شعبة من الفسوق ^(٣٤).

ويقول العرفاء على قدر العبودية يكون معيار الوفاء والجفاء وميزان الوصلة والفرقة ودرجة التقريب والتباعد، وكما قيل: «مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَبْدًا مَحْضًا كَانَ فِي الآخِرَةِ مَلِكًا مَحْضًا»!!

وأما الفاسق أو الآبق عند العرفاء مَنْ خرج عن أصله الحقيقي، وهو الاتصاف بلوازم العبودية ^(٣٥) والافتقار والانكسار والتسليم لله تعالى الذي من أجله خُلِقَ ولم يقف بين يدي ربه خاضعا متذللا ممثلا لأوامر سيده ومولاه، بل تعدى إلى مزاحمته في صفات الربوبية وادعائه في نعوت الألوهية التي لا تليق إلا بجناب الحق سبحانه من الكِبَر والقهر والفخر والعلو والعظمة وغيرها، فعلى قدر توجه العبد لغير الله تعالى نَقَص من عبوديته له وعَظُم جفاؤه.

وأما نتيجة البحث:

إن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه الوفاء وقال: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو الصادق في خبره بشرط أن تفي بعهد الله الذي طلبه منك بقوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، فأوجب على نفسه كما أوجب عليك، فدلَّ على كرمه ولطفه وفضله بالنزول إلى عباده ^(٣٦)، فأما من جانب الحق فالوفاء بلا شك وترديد صفة إلهية قطعية بأن الحق سبحانه يوفي بكل ما أوجبه على نفسه ﴿... وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ...﴾ ^(٣٧) وأما من جانبك أيها العبد فانظر في نفسك هل وفيت بعهد الله؟! إن لم تكن كذلك فللَّه الحجة البالغة في عدم وفائك له ولا حجة لك في ذلك وما ربُّك بظلام للعبيد، وأما إن كنت من الأوفياء لله فانظر في نفسك تارة أخرى هل أتممت له الوفاء أم لا؟! فإن للوفاء درجات ومقامات، وكلما كان وفاؤك خالصا نقيًا لا يشوبه درن الجفاء كنت أحب إلى الله تعالى وأعظم منزلة.

يقول العرفاء أن الوفاء التام بعهد الله هو الإقرار التام بربوبيته، وإنما يكون كذلك بالتوحيد فعلا وصفة ووجودا وذاتا، ولتعلم أن وصول العبد إلى الحق سبحانه لا يمكن مع بقاء أنانيته الموجبة للإثنية، ولا يكون إلا بالفناء فعلا وصفة ووجودا وذاتا، وغير ذلك لا يكون موفيا بعهد ربه.

قال بعض أساتذة العرفان في هذا المقام: أن العهد الأزلي - أي الإقرار بالتوحيد الحقيقي الذي أودعه الله تعاليفي ذوات عباده ومقام الولاية الكبرى المطلقة اللازمة له المذكور في الآية الكريمة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ^(٣٨) لم يكن مختصا بالأولياء والعرفاء بل يتساوى فيه السعيد والشقي لعدم الاحتجاب في تلك العوالم أصلا بل الاحتجاب يحصل بورود هذا العالم الدنيوي، فإذا أوفى بالعهد السابق بالفناء التام يحصل له الأرباح بالبقاء بالله تعالى، وإلا فله الخسران والاحتجاب بالظلمات التي

بعضها فوق بعض، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *﴾^(٣٩) احتجابات عالم المادة ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾^(٤٠) بمقام الولاية المطلقة الكلية والتوحيد الحقيقي.

فيا حسرة على العباد الذين ما عرفوا الله حق معرفته وما قدروه حق قدره ليفوا بتمام عهده إلا المخْلِصين الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَا لُقْمَانَ بْنَ يَسُوفَ إِذْ أَخْبَرَهُ بِمَا جَاءَكَ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْيُنَ أَنَّكَ عَلَيْكَ أَلَمٌ مِّنْ لَّدُنَّا عَظِيمٌ﴾^(٤١)، قيل أي أكمل وأتمّ وبالغ في الوفاء بما أوجب الله عليه من كل ما أمر وامتحن به وصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود وغير ذلك^(٤٢) بيقين ثابت.

ولهذا كانت خيانة الرسول ﷺ من أعظم الخيانات لأنها مقرونة بخيانة الله جلّ جلاله، وأن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ...﴾^(٤٤) وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾^(٤٥) لدليل على أن خيانة الرسول لا تنفك عن خيانة الله وأنها تؤدي إلى الكفر والضلال، فكما أن خيانة الله تعالى بترك فرائضه وأحكامه فإن خيانة رسوله ﷺ بترك سنته وشريعته.

وأما أنت أيها السالك كيف السبيل إلى الله وإلى معرفته؟!

عن الدليل إلى الله أبي عبد الله ﷺ: «نَحْنُ وُلَاةُ أَمْرِ اللَّهِ وَخَزَنَةُ عِلْمِ اللَّهِ وَعَيْبَةُ وَحْيِ اللَّهِ وَأَهْلُ دِينِ اللَّهِ وَعَلَيْنَا نَزَلَ كِتَابُ اللَّهِ وَبِنَا عُبِدَ اللَّهُ وَلَوْلَانَا مَا عَرَفَ اللَّهُ»^(٤٦).

وإليك أيها السالك المحب لله هذه الوصية العرفانية:

يقول العرفاء أن الأجير خادم أجرته فهو خادم نفسه لا خادم سيده، فليكن وفاؤك وفاء العبيد المملوكين لله العاملين بمقام العبودية في ملك الله الملازمين لباب الله لا وفاء الأجراء الذين لا يزال نظرهم على الأجرة ولا حق لهم في التصرف في ملك الله والاطلاع على أسرارهم وحكم عليهم بالانصراف عن بابه والبعد عن داره وجنة لقاءه بعد أن يوفى إليهم أجورهم، واحذر أن تخالط وفاءك بشيء من الجفاء فيبعدك عن الحق أو يبطئ السير إليه وتكون بغفلتك أو جهلك من أولي الجفاء حين الوفاء.

وقد قال بعض المشايخ في ذلك: اخذر أن تفي لي في إليك، أوف أنت بعهدك واتركه يفعل ما يريد، وقال: «مَنْ وَفَى بِعَهْدِهِ لِيَفِي الْحَقُّ بِعَهْدِهِ لَمْ يَزِدْهُ عَلَى مِيزَانِهِ شَيْئاً وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وَلَيْسَ سِوَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، لَمْ يَقُلْ غَيْرَ ذَلِكَ»^(٤٧) ﴿... وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ...﴾^(٤٨) ولم يطلب الموازنة ولا ذكر له هنا أنه يفي بعهده وإنما قال ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وما عظمه الحق فلا أعظم منه، فأعمل على وفائك بعهدك من غير مزيد.

وفي ذلك أيضا قال بعض أرباب القلوب: الدُّعاءُ يوجبُ الحُضورَ والعطاءُ يوجبُ الصَّرفَ والمُقامَ على البابِ أشرفُ مِنَ الانصرافِ بالكِبَارِ^(٤٩).

ومن أعظم وثائق الحق سبحانه على عباده ما ترك رسول الله ﷺ في أمته وهو القرآن المجيد وأهل البيت ﷺ - فضلا عن نفسه الشريفة، وكلهم نور واحد -، ولذا كان أعظم الجفاء للحق سبحانه هو الجفاء في حقهما، ونظرا لعظم خطرهما ونفاسه شأنهما وثقل العمل بهما ساهما رسول الحق ﷺ ثقلين وقال: «إِنِّي تَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِن تَمَسَّكْتُم بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»^(٥٠)، فترك رسول الله ﷺ الثقلين بين أيدي الأمة والأمة تركت سبيل الثقلين وخالفت أمر الله تعالى فضلت وأصلت إلا نفر قليل وهم أقل القليل وهم أصحاب اليمين!!

فأما القرآن المجيد فهو الوثيقة الإلهية المكتوبة بين العبد وربّه والذكر المبارك الذي نزل على قلب رسول الله ﷺ، فعدم تلاوته وهجره والاستخفاف به وعدم تعلّمه وتعليمه والعلم بمعانيه والعمل بأحكامه وإنكار حقه والجهل بعظيم نعمته بل وتفسيره بالرأي وتأويله على غير الوجه الصحيح له جفاء في حق الله تعالى، ولهذا قال رسول الله ﷺ ناصحا أمته: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ»، أي تعاهدوه ولا تبعدوا عن قراءته^(٥١).

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله ﷺ قال: «الْقُرْآنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِ اللَّهِ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسِينَ آيَةً»^(٥٢).

قال بعضهم: وطلب الهدى في غيره (أي القرآن) إنما يكون لظن أن غيره حق أو أحق وكلاهما كفر وضلال، ولذلك جاء في حديث المصطفى ﷺ: «مَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ»^(٥٣).

ثم يأتي رسول الله ﷺ يوم القيامة ويبث شكواه إلى الحق ويقول: ﴿... يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٥٤) ذلك بأن عامة الأمة هجرت القرآن وجفت حقه اللهم إلا الأحاد من أولياء الله وأهل القرآن الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٥٥) فالقرآن كلام الله وأهله أهل الله.

وللقرآن الكريم يوم القيامة شفاعة للمؤمنين كما قال رسول الله ﷺ: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ مَاحِلٌ مُصَدَّقٌ مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»^(٥٦)، فكيف ترجو شفاعته يوم تنفع فيه الشفاعة وترجو الوصول إلى ربك وكنت راغبا عنه جافيا إياه في الحياة الدنيا!!

وأما أهل بيت النبوة والرسالة فهم معدن علم الله ومهبط وحيه وحفظة سره وحججه على خلقه،

أتاهم الله ما لم يؤت أحدا من العالمين وجعل الصلاة عليهم إتماما للصلاة على نبيه الأمين، قرّنه الله تعالى ورسوله ﷺ بالقرآن وقرن القرآن بهم، إذ هم المتعبدون بحفظ القرآن وبيان حقائقه، والعارفون بجلالته ودقائقه^(٥٧)، فكان العدول عنهم وإنكار فضائلهم ومناقبهم وعلومهم والإعراض عن أحاديثهم التي اشتملت على صحيح السنة النبوية والأسرار الإلهية والولائية وهجرهم جفاء الله تعالى ورسوله ﷺ وظلم يعود وباله على من جفا حقهم فيذوق مرارة الحسرة وألم الندامة يوم القيامة حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾*^(٥٨)!!

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل للجنة من ثمن؟ قال ﷺ: نعم، قال: ما ثمنها؟ قال ﷺ: لا إله إلا الله يقولها العبد مخلصاً بها، قال: وما إخلاصها؟ قال ﷺ: العمل بما بعثت به في حقه وحب أهل بيته، قال: فذاك أبي وأمي وإن حب أهل البيت لمن حقاها؟ قال ﷺ: إن حبهم لأعظم حقاها!!^(٥٩)، فطاعة من أمر الله تعالى بطاعته طاعة لله، وطاعة من نهي الله تعالى عن طاعته نوع من الشرك وعبادة غير الله.

وقال ﷺ: «من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة»^(٦٠)!!

وكل يوم القيامة موقوف ومسؤول عنهما - أي كتاب الله والعتره - فردا فردا.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «أنا أول قادم على الله ثم يقدم عليّ كتاب الله ثم يقدم عليّ أهل بيتي ثم يقدم عليّ أمّتي فيقفون فيسألهم ما فعلتُمْ في كتابي وأهل بيت نبيكُم»^(٦١)!!

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَفِنَا خَيْرَ الْفَنَاءِ إِذَا أَفْنَيْتَنَا عَلَى مُوَالَاتِكَ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِكَ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِكَ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ إِلَيْكَ وَالْوَفَاءِ بَعْهَدِكَ وَالتَّصَدِيقِ بِكِتَابِكَ وَالِاتِّبَاعِ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَدْخِلْنَا مَعَهُمْ فِي كُلِّ خَيْرٍ وَنَجِّنَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ واحشُرْنَا فِي زُمْرَةِ الْهَادِي الْمَهْدِيِّ، وَأَحِينَا مَا أَحْيَيْتَنَا عَلَى الْوَفَاءِ بَعْهَدِكَ وَمِثَاقِكَ الْمَأْخُودِ مِنَّا عَلَى مُوَالَاةِ أَوْلِيَائِكَ وَالْبِرَاءَةِ مِنْ أَعْدَائِكَ الْمُكْذَبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالنَّاكِثِينَ بِمِثَاقِكَ، وَتَوَفَّنَا عَلَى ذَلِكَ، وَاجْعَلْ لَنَا مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، وَأَثْبِتْ لَنَا قَدَمَ صِدْقٍ فِي الْهَجْرَةِ إِلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ مَحِينَا خَيْرَ الْمَحِينِ وَمَاتَنَا خَيْرَ الْمَاتِ وَمُنْقَلِبَنَا خَيْرَ الْمُنْقَلَبِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»!!

الهوامش

- (١) سورة يس: آية ٦٠ - آية ٦١
- (٢) سورة الإسراء: آية ٢٣
- (٣) سورة الإنسان: آية ٣
- (٤) الكشاف (للزمخشري): ج ٣ ص ٢٢ ومنه مفاتيح الغيب (لصدر المتألهين): ص ٥٥٧
- (٥) قال تعالى: ﴿... وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا...﴾ - سورة آل عمران: آية ٨٣
- (٦) قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾ - سورة الإسراء: آية ٤٤، وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ - سورة الحديد: آية ١، والتسبيح لا يكون إلا بالمعرفة، وفي تفسير بيان مولانا أمير المؤمنين عليه السلام «وَكَلِمَةَ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ» يقول المولى محمد تقي المجلسي (قده) في «شرح من لا يحضره الفقيه» ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠: «الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا أَيْ خَلَقَهُمْ لِيُوحِّدُوهُ أَوْ جَعَلَ فِي جِبَلَّتِهِمْ تَوْحِيدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ...﴾ - سورة العنكبوت: آية ٦١، ومن ثم كتب السيد ابن طاووس (قده) كتاباً أثبت فيها براءة وعشرين دليل بأن معرفة الله تعالى فطرية.
- (٧) عن أبي عمير عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الآية قلت: معاينة كان هذا؟! قال: نَعَمْ فَتَبَتَّتِ الْمَعْرِفَةَ وَنَسُوا الْمَوْقِفَ وَسَيِّدُ كَرُونَهُ!! - بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٣٧، البرهان في تفسير القرآن (للسيد هاشم البحراني): مجلد ٢ ص ٦٠٩
- (٨) سورة العصر: آية ٢
- (٩) سورة العصر: آية ٣
- (١٠) سورة ص: آية ٥
- (١١) قال الفضل بن شاذان: سألت رجلاً من الثنوية أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليها السلام وأنا حاضر فقال له: إني أقول إن صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنه واحد؟ فقال عليه السلام: «قَوْلُكَ إِنَّهُ أَثْنَانٌ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لِأَنَّكَ لَمْ تَدْعُ الثَّانِي إِلَّا بَعْدَ إِثْبَاتِكَ الْوَاحِدِ، فَالْوَاحِدُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَأَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ مُخْتَلَفٌ فِيهِ» - التوحيد: ص ٢٧٠
- (١٢) سورة هود: آية ٥٣
- (١٣) إحياء العلوم ج ١ ص ٨٥، المحجة البيضاء: ج ١ ص ٨٥ رواه الطبري من حديث أبي أمامة
- (١٤) سورة إبراهيم: آية ٢٢
- (١٥) سورة إبراهيم: آية ٢٢
- (١٦) سورة إبراهيم: آية ٢٢
- (١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٩ باب ١٤٤ ص ٨٨

- (١٨) روي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام قال: «الإشراك في الناس أخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الْمَسْحِ الْأَسْوَدِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ» - تحف العقول: ص ٤٨٧، وروي في تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٠٥ عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الرياء أخفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ عَلَى الْمَسْحِ الْأَسْوَدِ».
- (١٩) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٢٦٦، منية المريد: ص ٣١٧ نقلا عن مسند أحمد بن حنبل: ج ٥ ص ٤٢٨، الدر المنثور: ج ٤ ص ٢٥٦
- (٢٠) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٠٤
- (٢١) منية المريد: ص ٣١٨، الكافي: ج ٢ ص ٢٩٤
- (٢٢) الكافي: ج ٢ ص ٢٩٣
- (٢٣) تحف العقول عن آل الرسول: ص ١٨٥
- (٢٤) سورة يوسف: آية ١٠٦
- (٢٥) سورة النساء: آية ٤٨، آية ١١٦
- (٢٦) راجع تفسير السيد العلامة الطباطبائي عليه السلام لهذه الآية المباركة
- (٢٧) سورة المؤمنون: آية ٥٩
- (٢٨) سورة غافر: آية ١٤ وآية ٦٥، سورة البينة: آية ٥
- (٢٩) تفسير العياشي: مجلد ٢ ص ٢٠٠
- (٣٠) تفسير نور الثقلين: مجلد ٢ ص ٤٧٥
- (٣١) سورة الأنعام: آية ١٥٣
- (٣٢) سورة الأعراف: آية ١٠٢
- (٣٣) سورة البقرة: آية ٢٦ - آية ٢٧
- (٣٤) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الْفِسْقُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى الْجَفَاءِ وَالْعَمَى وَالْغَفْلَةِ وَالْعُتُوِّ» - تحف العقول: ص ١٦٦، الكافي: ج ٢ ص ٣٩١
- (٣٥) لا محض العبودية، فالعبودية حقيقة ذاتية ثابتة في العبد لا مقام كسبي، وحال يستصحبه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ - سورة مريم: آية ٩٣، فكل ما سوى الله عبد لله سواء كان مطيعاً أو مخالفاً، ولا يزال العبد عبداً وإن خرج عن لوازمها.
- (٣٦) كما جاء في أدعية المعصومين عليهم السلام: «يَا مَنْ هُوَ عَالٍ فِي دُنُوهِ وَدَانٍ فِي عُلوِّهِ» وما شابه.
- (٣٧) سورة التوبة: آية ١١١
- (٣٨) سورة الأعراف: آية ١٧٢
- (٣٩) سورة العصر: آية ١ - آية ٢
- (٤٠) سورة العصر: آية ٣

- (٤١) سورة النجم: آية ٣٧
- (٤٢) عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى أَصْبَحْتُ وَرَبِّي مُحَمَّدٌ لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا أَدْعُو مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا أَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا - علل الشرائع: ص ٣٧، تفسير البرهان: مجلد ٥ ص ٢٥٤، الكافي: ج ٢ ص ٥٣٤ عن أبي جعفر عليه السلام مثله.
- (٤٣) بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٨٤، وتمام الحديث: «يَا عَلِيُّ مَا عَرَفَ اللَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ غَيْرِي وَغَيْرُكَ وَمَا عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ غَيْرُ اللَّهِ وَغَيْرِي»
- (٤٤) سورة الأنفال: آية ٧١
- (٤٥) سورة الأنفال: آية ٢٧
- (٤٦) بصائر الدرجات: ج ٢ باب ٣ ص ٨١، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٦ ص ٢٤٦، وروى الشيخ الصدوق في التوحيد عن ابن أبي يعفور قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ مُتَوَحِّدٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مُتَفَرِّدٌ بِأَمْرِهِ خَلَقَ خَلْقًا فَفَوَّضَ إِلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِ فَنَحْنُ هُمْ، يَا ابْنَ أَبِي يَعْفُورِ نَحْنُ حُجَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَشُهَدَاؤُهُ عَلَى خَلْقِهِ وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى وَحْيِهِ وَخَزَائِنُهُ عَلَى عِلْمِهِ وَوَجْهُهُ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ وَعَيْنُهُ فِي بَرِيَّتِهِ وَلِسَانُهُ النَّاطِقُ وَبَابُهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ نَحْنُ الْعَالِمُونَ بِأَمْرِهِ وَالِدَّاعُونَ إِلَى سَبِيلِهِ بِنَا عُرْفِ اللَّهِ وَبِنَا عِبْدِ اللَّهِ نَحْنُ الْأِدْلَاءُ عَلَى اللَّهِ وَلَوْلَا مَا عِيدَ اللَّهُ» - التوحيد: ص ١٥٢
- (٤٧) روى العياشي والكافي عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية ﴿أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أوف لكم بالجنة - تفسير العياشي: ج ١ ص ٤٢، الكافي: ج ١ ص ٤٣١ رواية ٨٩
- (٤٨) سورة الفتح: آية ١٠
- (٤٩) رياض السالكين: ج ٤ ص ٣١٧
- (٥٠) بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٣، وجاء في بعض الروايات أنه عليه السلام قال: «إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَعَثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي» - وهذا حديث متفق عليه بين الفريقين نذكر بعض مصادرها: مستدرک الوسائل: ج ٧ ص ٢٥٤، وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٢٣، أمالي الشيخ المفيد: المجلس ٦ ص ٤٦، صحيح مسلم: ٢/٢٣٧، صحيح الترمذي: ٢/٢٢٠، سنن الدارمي: ٢/٤٣١، كنز العمال: ١٥/٩١، حلية الأولياء: ١/٣٥٥، نهاية ابن الأثير: باب الناء والقاف مادة ثقل، وتمام الحديث في بعض الروايات: «.... فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهَا» وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٨٨، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ كِتَابِ اللَّهِ وَعَثْرَتِي وَالْكَعْبَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «أَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَحَرِّفُوا وَأَمَّا الْكَعْبَةُ فَهَدِّمُوا وَأَمَّا الْعِثْرَةُ فَاقْتُلُوا وَكُلُّ وَدَائِعِ اللَّهِ فَتَبَّرُوا» - بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٣، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٤٠.
- (٥١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٨٩، وفي الحديث: «تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ وَتَعَاهَدُوا» - مسند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ١٤٦، وروى مسلم الحديث: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ» - صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٥، وقال النووي في شرحه (نقلا بالمعنى) أي حافظوا عليه بتجديد العهد والتلاوة ثلاثا ينسى - شرح صحيح مسلم للنووي: ج

- ٦ ص ٧٧.
- (٥٢) مرآة العقول: ج ٢ ص ٣٤، الكافي: ج ٢ ص ٦٠٩
- (٥٣) رياض السالكين: ج ٥ ص ٤٥١، وجاء في بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٣١: «وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ».
- (٥٤) سورة الفرقان: آية ٣٠
- (٥٥) النهاية لابن الأثير: ج ١ ص ٨٣، عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال قال النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَى دَرَجَةِ الْآدَمِيِّينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ فَلَا تَسْتَزِعِفُوا أَهْلَ الْقُرْآنِ حُقُوقَهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ لَمَكَانًا» - بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ١٨٠
- (٥٦) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٣٦، والماحل أي الخصم المجادل، ويراد به أيضا الشاكي وقد يكون بمعنى الماكر كما جاء في قوله تعالى: ﴿... وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ - سورة الرعد: آية ١٣ - أي شديد المكر.
- (٥٧) راجع مجمع البيان: مجلد ٤ ص ٤٠٨ في تفسير الكريمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾ - سورة فاطر: آية ٣٢
- (٥٨) سورة الفرقان: آية ٢٧ - آية ٢٩، وفي خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام المعروفة بخطبة الوسيلة بقول فيها في تعقيب الآية: «أنا الذُّكْرُ الَّذِي عَنْهُ ضَلَّ وَالسَّبِيلُ الَّذِي عَنْهُ مَالَ وَالإِيْمَانُ الَّذِي بِهِ كَفَرَ وَالْقُرْآنُ الَّذِي إِيَّاهُ هَجَرَ وَالذِّينُ الَّذِي بِهِ كَذَّبَ وَالصُّرَاطُ الَّذِي عَنْهُ نَكَبَ» - تفسير نور الثقلين: مجلد ٤ ص ١٢، كتر الدقائق (للشيخ القمي المشهدي): مجلد ٩ ص ٣٨٩، الكافي: ج ٨ ص ٢٨ رواية ٤
- (٥٩) مستدرک الوسائل: ج ٥ باب ٣٦ ص ٣٥٨ رواية ٦٠٨١
- (٦٠) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٣١، التوحيد: ص ١١٨
- (٦١) بصائر الدرجات: ج ٨ باب ١٧ ص ٤٣٢، ومنه بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٦٥، وجاء في تفسير القمي مجلد ٢ ص ٤٤٠ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ - سورة التكاثر آية ٨ - قال تُسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليهم برسول الله صلى الله عليه وآله ثم بأهل بيته عليهم السلام، وجاء في تفسير القمي أيضا مجلد ٢ ص ٢٢٢ لقوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ﴾ - سورة الصافات آية ٢٤ - يعني عن ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وجاء مثله من طريق العامة ونقلها أبو نعيم الإصفهاني في كفاية الخصال: ص ٣٦٠ وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: ص ١٤٧ والعلامة سبط ابن الجوزي في التذكرة: ص ٢١ والألوسي في روح المعاني في تفسير الآية، وعبدالرزاق الحنبلي في كشف الغمة: ص ٩٢ والحاكم الحسكاني عن أبي سعيد الخدري وعن ابن عباس وعن سعيد بن جبير كلهم عن النبي صلى الله عليه وآله.
- (٦٢) عيون الأخبار: ج ١ ص ٣١٣ باب ٢٨، بحار الأنوار: ج ٢٤ ص ٢٧١، تفسير البرهان: مجلد ٥ ص ١٦، وروى صاحب مشارق الأنوار عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «وَأَنَّ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ مَلَكٌ يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ: سُبْحَانَ مَنْ دَلَّ هَذَا الْخَلْقَ الْقَلِيلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْكَبِيرِ عَلَى هَذَا الْفَضْلِ الْجَلِيلِ».

المنزل (٣٣)

خُودُ الْمَحَبِّ

قال الراغب في المفردات الخلود تبري الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وقيل أيضا هو دوام الثبات والبقاء اللازم الذي لا ينقطع.

يقول الحكيم الإلهي والعارف الصمداني صدر المتألهين الشيرازي (قده) في أسفاره في حب الإنسان للحياة الأبدية والبقاء الخالد:

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ بِحِكْمَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ فِي طَبْعِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ مَحَبَّةَ الْوُجُودِ^(١) وَالْبَقَاءِ، وَجَعَلَ فِي جِبَلَّتِهَا كَرَاهَةَ الْفَنَاءِ وَالْعَدَمِ، وَهَذَا حَقٌّ لِمَا عَلِمْتَ أَنَّ طَبِيعَةَ الْوُجُودِ خَيْرٌ مَخْضٌ وَنَوْرٌ صَرَفٌ وَبِقَاؤُهُ خَيْرِيَّةٌ الْخَيْرِ وَنُورِيَّةٌ النُّورِ، وَالطَّبِيعَةُ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً بَاطِلاً، وَكَلَّمَا ارْتَكَزَ فِيهَا لِأَبَدٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ غَايَةٌ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ وَيَنْتَهِي إِلَيْهَا، فَعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ مَحَبَّةَ النُّفُوسِ لِلْبَقَاءِ وَكَرَاهَتَهَا لِلْمَوْتِ لَيْسَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ هِيَ كَوْنُهَا عَلَى أَتَمِّ الْحَالَاتِ وَأَكْمَلِ الْوُجُودَاتِ، فَكَوْنُ النُّفُوسِ مَجْبُولَةٌ عَلَى طَلَبِ الْبَقَاءِ وَمَحَبَّةِ الدَّوَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَهَا وَجُوداً آخَرِيّاً بَاقِيّاً أَبَدَ الدَّهْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بَقَاءَهَا فِي هَذِهِ النُّشْأَةِ الطَّبِيعِيَّةِ أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا نَشْأَةٌ أُخْرَى بَاقِيَةٌ تَنْتَقِلُ إِلَيْهَا لَكَانَ مَا ارْتَكَزَ فِي النَفْسِ وَأُودِعَ فِي جِبَلَّتِهَا مِنْ مَحَبَّةِ الْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ بَاطِلاً ضَائِعاً، وَلَا بَاطِلاً فِي الطَّبِيعَةِ كَمَا قَالَهُ الْحُكَمَاءُ الْإِلَهِيُّونَ^(٢).

فالله تبارك وتعالى جعل في جبلته كل إنسان وأصل فطرته وخلقته وطبعه محبة الوجود والحياة الدائمة والمعيشة الأبدية، وجعل فيها الشعور بالضجر من انقطاعها وكرهه زوالها والجزع من العدم

أن تلحق بها، وهذه حقيقة من حقائق عالم الوجود التي لا بطلان فيها يشعر بها كل إنسان في باطنه، وهذه الحقيقة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن هناك حياة أبدية دائمة محفوظة من الموت ومصونة من الفناء يشترط إليها كل إنسان ويتوق إليها من حيث فطرته الأولى، ولولا وجودها في عالم الخلق والطبيعة كان ذلك الاشتياق عبثاً وباطلاً، وهذا بخلاف ما يقوله الحكماء الإلهيون بأن لا عبث في الوجود ولا باطل في الطبيعة ولا زائد لغير معنى، وإن ما في العالم حق كله ومقصود لمعنى.

والنفوس البشرية حينما انحدرت من المرقى الشامخ الأعلى إلى مهاوي العالم الأدنى وهبطت من مطالع أنوار القدس والجبروت إلى السكنى في ظلمات الناسوت صارت بين عوالم مختلفة، عالم العقل وعالم الحس وعالم الخيال، فجعلت تجول في ميادين اللذات والمشتهيات والأمزجة باحثة عن ذلك الاشتياق الكامن إلى الخلود والبقاء، ولما كانت الحياة في هذه الدنيا فانية زائلة لا محالة بالموت الطبيعي كما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ...﴾^(٣) أي الخلود في هذه الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾^(٤) بالانتقال من حال إلى حال ومن دار إلى دار، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٥) فلا محيص لمخلوق عنه، فلا بد أن تكون هناك حياة أخرى باقية خالدة لا موت فيها ولا زوال حتى تظهر حقيقة الاشتياق المكنون في باطن كل إنسان والتي أشار إليها الحي الباقي بقوله: ﴿... وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ...﴾^(٦).

ولكن سؤال يرد على أذهاننا: هل حاصل هذا الاشتياق الكامن في النفوس بالخلود والبقاء لا يتحقق إلا عقب الموت الذي كُتِبَ على كل نفس؟! أم أن للمحب العاشق المشتاق خلود خاص يسبق توقيته أجل الموت؟! لا بد أن نشير مقدماً إلى أنواع اللذات وأقسامها ومراتبها وشرافة بعضها على بعض وعلى أثرها

وبتوفيق من الله تعالى نبين حقيقة الخلود عند المحب:

اعلم أن اللذة إدراك لحصول الكمال الخاص بالقوة المدركة، والحواس الظاهرة آلات تُدرك بقواها اللذات الحسية، والحواس الباطنة آلات تُدرك بقواها اللذات الخيالية والوهمية، والقوة العاقلة تُدرك بها اللذات العقلية وحقائق الأشياء كما هي.

وقوى الحواس الظاهرة خمسة هي: الباصرة - الشامة - الذائقة - السامعة - اللامسة، وقوى الحواس الباطنة خمسة هي: الخيال - الحس المشترك - الوهم - الحافظة - المتخيلة، وهناك أيضاً قوى كامنة وهي سبعة: الجاذبة - الماسكة - الهاضمة - الدافعة - الغذائية - النامية - المولدة، وبإضافة قوتي الغضب والشهوة تصبح مجموع القوى تسع عشر قوة كلها تدعو النفس إلى طلب اللذات الجسمانية والخيالية والشهوانية، وتضاد هذه القوى قوة وحيدة تدعو النفس إلى الله تعالى وإلى طلب اللذات

الروحانية والعقلية وتتجلى فيها أنوار معرفة الله وهي القوة العاقلة.

وباعتبار آخر نقول أن للإنسان منازل ودرجات بحسب إدراكات قوى النفس وأغراضها ومراتب علوّها وشرافتها أو دنوّها وخساستها وهي أربعة:

النفس الملكية (القوة العقلية أو القدسية): وشأنها إدراك حقائق الأشياء على ما هي عليها وإدراك المعاني الكلية والذوات المجردة والمعارف الحقّة والتمييز بين الخير والشر والحق والباطل وتسخير البدن على فعل الخيرات والعبادات والطاعات الإلهية ونفض أدناس علائق النشأة الفانية والتوجه إلى أمور الآخرة الباقية والخلوة مع الله والأنس بذكره ومناجاته وعشق المعارف الإلهية والمبادئ القدسية والتفكير في خلق الله وصنعه وآياته والتشوق إلى لقائه ومشاهدة أنوار جماله.

النفس السبعية (القوة الغضبية): وشأنها حب الرئاسة وبسط السلطة والقدرة والمنازعة والغلبة والظفر بالمطلوب والشعور بالحق والحسد والبغضاء والتهور والانتقام والتلبس وحب تملك المال ورصده والشغف بجمعه وادخاره.

النفس الشيطانية (القوة الوهمية): وشأنها الميل إلى المكر والخديعة والوعود الكاذبة واستنباط الحيل ومزاولة المكائد بمختلف الوسائل والفنون، ومن شأنها أيضا الظن والرجاء والتمني.

النفس البهيمية (القوة الشهوية): وشأنها الحرص على لذات البطن والفرج وما شابهها.

وعلى الرغم أن النفس الإنسانية جبلت على حب البقاء على أتم الحالات التي هي عليها من ملكية أو سبعية أو شيطانية أو بهيمية، إلا أن في الإنسان القابلية والاستعداد وقوة الارتقاء للانتقال من حضيض أدنى درجات النفس أي النفس البهيمية إلى أوجها وهي النفس القدسية الملكية، ومن ثمّ الاشتياق إلى المرتبة العلية التي ارتقت إليها أكثر من اشتياقها إلى المرتبة الدنيّة ما لم يُعقّبها عائق يمنعها من السير على الفطرة السليمة وما لم تطرأ عليها آفة تخرجها عن استقامتها، ولهذا فكل نفس اشتاقت إلى الكمال وارتفعت عن مرتبة الحسيات والشهوات الباطلة ثم ارتقت من مرتبة التخيلات الزائفة وكملت في العلم والمعرفة حتى تجردت عن كوني الحس والخيال ورفضت عالمي الطبيعة والمثال ووصلت إلى مرتبة العقليات العالية واستكملت بالمكاشفات النورية والمشاهدات العرفانية الذوقية واستحكمت فيها إدراك الحقائق اليقينية والمعارف الإلهية لا تحب الرجوع إلى ما كانت عليه في الأيام السالفة، بل تشعر بالندم وعدم الرضا على ما مضى من انغماسها في تلك المراتب السافلة وتتأذى إن هي أقبلت عليها رذيلة النقصان بعد الكمال.

فمن الناس من ترك مقتضيات القوى الحيوانية والجسمانية والوهمية المستخدمة في جذب اللذائذ الدنيوية والنفسية، وانقادت نفسه بنور الإيمان إلى العقل السليم والعرفان، واستعلت بقوتها على

باقي القوى، بل قهرتها على متابعتها ومطاوعتها، واستنارت بأنوار عالم الملكوت، فكان بمنزلة الملائكة المقربين والرسول المكرمين، ومنهم من أخذ إلى الأرض راضياً بالحياة الدنيا ومألوفاتها راغباً في الأمور الطبيعية ومادياتها مطيعاً للقوى الحيوانية المجردة عن العقل والشرع وكان بينه وبين الفطرة الأولى بُعد المشرقين، فلحق بدرجة البهائم والأنعام بل كان أضلّ سبيلاً.

وفيما أوحى الله تبارك وتعالى لنبيه عيسى ﷺ: «يا عيسى!! لا خير في لذادة لا تدوم وعيش من صاحبه يزول»^(٧)!!

وعن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَالْعُلَمَاءُ أَحْيَاءٌ بِأَقْوَنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَنَارُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»^(٨)!!
وفي حديث المعصومين ﷺ: «فِي طَلَبِ الدُّنْيَا ذُلُّ النُّفُوسِ وَفِي طَلَبِ الْآخِرَةِ عِزُّ النُّفُوسِ، وَيَا عَجَباً لِمَنْ يَخْتَارُ الْمَذَلَّةَ فِي طَلَبِ مَا يَفْنَى وَيَتْرُكُ الْعِزَّ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى»!!

قال الحكيم سقراط: «قُلُوبُ الْمُغْرَقِينَ بِالْحَقَائِقِ مَنَابِرُ الْمَلَائِكَةِ وَبُطُونُ الْمُتَلَذِّذِينَ بِالشَّهَوَاتِ قُبُورُ الْحَيَوَانَاتِ الْهَالِكَةِ»!!

فبعض النفوس بعد نزولها أصبحت مشوبة بأحكام الطبيعة، ميّالة إلى عالم الحس والمادة، مُعْرِضَةٌ عن السعادات العقلية والروحانية، مداومة على طلب البُغيات العاجلة، ناقضة عهد ربه، مسافرة في صحبة هواها حتى أضلّها عن سبيل الرشاد، فأخلدت إلى أرض الدنيا ونفرت عن دار الآخرة، وعشقت أمراً معدوماً، وطلبت طلباً باطلاً، وأحبت محبواً مجازياً فانياً، واشتبه عليها زعمها بأن لمحبوباتها حقيقة، وظنت وهي في غاية الشقاء بانصرافها عن جانب القدس أنها وجدت منبع اشتياقها، وأن اللذات التخيلية والسعادات الوهمية التي يتمتع بها أصحابها هي الخالدة الباقية، فقالوا وهم محجوبون بالغفلة عن اللذات الحقيقية: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾^(٩) ولكن الحق تبارك وتعالى ذمهم وتوعدّهم على ذلك وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾^(١٠).

وأما بعضها الآخر فقد وفّت بعهد ربه، واتخذت سبيل الرشد والنجاة، ومالت إلى عالم العقل والمجرّدات، واتصلت بالمبدأ الأعلى، وتجاغت عن مضاجع الدنيا، واستوحشت عن مهابط اللذات الحسية، واضمحلت في عينها ظلال المحسوسات ورسوم المجازات الدنيّة، وحنّت إلى الابتهاجات العقلية واللذات المعنوية والمعارف الحقيقية، فرفرت بجناحي العلم والعمل وبمعونة قوى البدن، وطارت بها إلى عالم القدس وحظيرة القرب حيث الخلود الحقيقي والبقاء السرمدي والسعادة

الأبدية والنعيم المقيم والوعد الإلهي الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾^(١١)!!

يقول الشاعر:

اگر لذتِ ترکِ لذتِ بدانی

دگر لذتِ نفسِ لذتِ ندانی^(١٢)

ولما كان الغالب على الطباع العامة أن أقوى اللذات وأكمل السعادات هي لذة الأكل والشرب والجماع وأنها المستغلية على باقي اللذات وأن ما عداها لذات ضعيفة بل منسوجات وهمية لا حقيقة لها حتى أن غالب المطيعين لأوامر الله والمتهين بنواهيه لا يعبدونه إلا لأجل ما يجوده من لذات المطاعم والمناكح في الدار الآخرة فقد جاء أهل الحكمة وأرباب القلوب بالحجج والبراهين لبيان شرافة اللذات العقلية وأفضليتها على اللذات الحسية والشهوية، ونشير إلى بعض ما جاء به العلامة المجلسي (قده) في «بحار الأنوار» من تلك الحجج والبراهين:

الحجة الأولى: لو كانت اللذة والسعادة متعلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان أشرف من الإنسان في هذا الباب، وهذا أمر مردود.

الحجة الثانية: كلما كانت أسباب اللذة والسعادة أكثر توفرا كانت اللذة والسعادة أكثر حصولاً، فلو كانت السعادة متوقفة على قضاء شهوتي البطن والفرج فكلما كان الإنسان أكثر اشتغالا بهما كان أكمل سعادة وأقوى لذة، وهذا أمر مردود أيضاً لأن الإنسان في هذه الحالة يكون كالبهائم المترددة بين هذه الشهوات في الدناءة والخساسة.

الحجة الثالثة: أن الحيوان يشارك الإنسان في لذات الأكل والشرب والجماع، فلو كانت هذه اللذات موجبة لكمال السعادة فلا فضيلة للإنسان على الحيوان في ذلك، بل إن الإنسان ينازعه عقله ويجبسه عن كثير مما يشتهي والحيوان لا يجبسه شيء عن ذلك بل يقضيها بلا معارض فيكون أكمل في نيل هذه اللذات.

الحجة الرابعة: إذا بحثنا عن حقيقة هذه اللذات لوجدنا أن حاصلها ليس إلا دفع الآلام عن النفس، فالالتذاد بالطعام ناتج عن الإحساس بألم الجوع، والالتذاد بشرب الماء ناتج عن الإحساس بألم العطش، والالتذاد بالجماع ناتج عن قدم العهد بالوقاع، والالتذاد بلبس الملابس الثقيلة أو الخفيفة ناتج عن الإحساس بألم البرد أو الحر، ولما كان الحال هكذا نقول أنه لا سعادة في هذه اللذات لأن الحالة السابقة هي حصول الألم، والأكل والشرب واللبس والجماع تدفع آلام النفس كالأدوية التي تدفع آلام البدن، فترجع حالتها إلى أصلها وطبيعتها، والراحة من الألم ليس كمال ولا سعادة.

الحجة الخامسة: أن العلم الضروري حاصل بأن سعادة الملائكة أكمل من سعادة الحيوانات والحشرات، ولا شك أن الملائكة منزَّهة عن هذه اللذات الحسية والشهوية، فلا بد أن تكون السعادات في غير هذه اللذات والشهوات، ولما كانت هذه اللذات ممتنعة عن واجب الوجود سبحانه وتعالى فهذا دليل أقوى بأن هذه اللذات ليست مؤدية إلى الشرف والكمال، وإن قيل أن الكمال الإلهي بحكم الألوهية يختلف عن الكمال الإنساني قلنا أن لا نزاع أن حصول الكمال الإلهي مُحال على الخلق، إلا أن هناك حديثاً قائلًا بالتخلُّق بأخلاق الله والفلاسفة قالوا بالتشبه بصفاته، فغاية السعادة التشبه بالمبدأ الأعلى، ولا شك أن التقليل من نيل هذه الشهوات واللذات أقرب إلى الكمال والسعادة من الاستكثار منها.

الحجة السادسة: ما تقرر في عقول الناس أنهم إذا رأوا رجلاً مصروف المهمة في طلب الأكل والشرب والوقاع وتحصيل الأسباب الموجبة للذات الجسمانية والبدنية حكموا عليه بالنزول إلى مرتبة البهائم، والعكس من ذلك إذا رأوا رجلاً معرضاً عن الإفراط في الحصول على هذه اللذات إلا ما تصرف فيها على الوجه المشروع وسبيل العدل والعقل المقرَّب إلى الله تعالى وما تمسُّ إليه الحاجة مما تقوم به قوام هذا الجسم وما لم تكن لهوى النفس ومحض الشهوة الشاغلة عن ذكر الله قضوا عليه بالتقرب إلى مرتبة الملائكة، وهذا دليل على أن حصول هذه اللذات والإفراط فيها دناءة ونقص لا شرف وكمال.

الحجة السابعة: كل شيء كان في ذاته كمالاً وسعادة وجب إظهاره والفخر به، والمعلوم أن لا أحد يفخر بكثرة الأكل والشرب والوقاع إلا من كان سفيهاً، ثم أن الوقاع لا يكون إلا في الخلوة فلا يقدم على إظهاره في الملاء أحد إلا أنهم بالجنون، وعلى هذا فإن هذه الأفعال لا تُعدُّ من الكمالات والسعادة^(١٣).

وقد جاء في الكتب القديمة: «مُسْكِينٌ عَبْدِي يَسْرُهُ مَا يَصْرُهُ»، فالعبد مسرورة نفسه بخدمته دواعي شهواتها من غير قيد ولا مراقبة، مغتبطة بالأنس بها من غير محاسبة ولا مواظبة، في حين أن ذلك ليس إلا ضرر عائد عليه لأن تلك الشهوات مقيدة بزمان حياته لا خلود فيها، وحياته الدنيا فانية لا محالة، فيدخل في ساحة المحشر ودار المقامة والخلود صفر اليدين خائب المقصد مردود المساعي لا يملك لنفسه شيئاً، بل يحشر - والعياذ بالله - في زمرة البهائم والحيوانات.

يقول الشاعر:

أرأكَ تَطْلُبُ دُنْيَا لَسْتَ تُدْرِكُهَا
فَكَيْفَ تُدْرِكُ أُخْرَى لَسْتَ تَطْلُبُهَا

ومن اللذات التي يعتقد الإنسان أنها موجبة للخلود والبقاء والسعادة الأبدية هي لذة تكثر الأموال والبنين والأهل والعشيرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(١٤) فالذي لم يقنع من المال ما يرفع به حوائجه بل لحبه الغريزي بالبقاء اشتغل بتحصيله وجمعه وعده وهو يحسب أنه يخلده في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(١٥)، أي كان ناعماً بشهوته ظاناً أنها الغاية في وجوده وأنه لن يرجع إلى الله تعالى أبداً فيسرّه ما يناله من متاع الدنيا ويختال بها وينسيه ذلك أمر الآخرة، وقد ذم الله تعالياً الفرح بمتاع الدنيا الزائل والبطر في معاصي الله ونسيان الآخرة ونعيمها الدائم وسماه فرحاً من غير حق، قال تعالى بعد ذكر آيات العذاب في النار: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾^(١٦).

وما أروع ما أشار إليه صدر المتألهين (قده) في بيان شرافة اللذات العقلية والروحانية على اللذات الحسية والخيالية قائلاً:

«السعادة ربّما يُظنُّ بها أنّها الفوزُ بالدرجاتِ الحسّيةِ والوصولُ إلى الرياضاتِ الخياليّةِ وما أُبينَ لِمَنْ تحقّقَ الأمورَ وتفظّنَ بالمعارفِ أنّ السعاداتِ العاجليّةِ واللذاتِ الحسّيّةِ الفوريّةِ ليسَ شيءٌ منها سعادةً حقيقيّةً ولا ينالها بهجةٌ عقليّةٌ بسببِ انحصارِها في عالمِ الغرْبَةِ ووجودِها في دارِ الجسدِ واحتباسِها عن ملاحظةِ جمالِ الأبدِ ومعينةِ الجلالِ السرمِدِ ولا شكَّ أنّ أفضَى غايةٍ يتأتّى لأحدِ الموجوداتِ الوصولُ إليها هو الكمالُ المُختصُّ به والملائمُ المنسوبُ إليه وكلّما انحطَّ عنه فهو نقصانٌ بالحقيقةِ فيه، ولنوعِ الإنسانِ كمالٌ خاصٌّ لجوهرِ ذاته وحقائقِ حقيقته لا يفوقها فيه فائقٌ ولا يسبقُ به عليها سابقٌ وهو الاتّصالُ بالمعقولاتِ ومُجاورةُ الباري والتجرّدُ عن الماديّاتِ»^(١٧).

هر كه امروز معاینه رخ دوست ندید

طفل راهیست كه او منتظر فردا شد^(١٨)

وقال بعض أرباب القلوب: لا ريب أن اللذة العقلية أتم وأعظم من الحسية بما لا يتناهى، والترقي إلى الله تعالى بالأعمال الحميدة والأخلاق المجيدة ولذة مُناجاته السعيدة من أفضل الكمالات وأعظم اللذات، فمن العجب كيف جعل الله على طاعته وما يتقرب إليه جزاء!! فإن الدال على الهدى فضلاً عن الموفق والمؤد على فعله أولى بأن يكون له الجزاء لا عليه، لكن بسطة جوده وسعة رحمته اقتضى الأمرين

مَعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(١٩)، فَاظْطُرُّ كَيْفَ أَفَادَ إِحْسَانًا وَسَمَّاهُ جَزَاءً؟! وَأَقْضِ حَقَّ الْعَجَبِ مِنْ ذَلِكَ وَاشْكُرْ مَنْ سَلَكَ بِكَ هَذِهِ الْمَسَالِكَ^(٢٠).

وخلاصة القول أن الطبيعة الإنسانية مؤلفة من جانبين جمع بينهما في حقيقة وجودية واحدة، جانب ناسوتي وجانب لاهوتي، أو بمعنى آخر جانب مادي جسماني وآخر مجرد روحاني، والجانب الأول يتناسب والبقاء في هذا العالم الفاني حتى يدركه الموت، وأما الجانب الثاني فينتقل به إلى عالم البقاء الدائم والخلود الأبدي، فإذا تحلَّت النفس عن الظلمات الجسمانية بأسرها وصدفت عن الكدورات الطبيعية بتامها وطهرت من العوارض المادية بأكملها وتحلَّت بالفضائل الأخلاقية والمحامد السنيَّة وأغمضت عينٌ عن لذات الدنيا وفتحت الأخرى على الملكوت الأعلى سطعت عليها لمعات أنوار الجمال وبرقت لها شعاعات ضياء الجلال وانكشفت لها حقائق الأشياء فابتهجت بما يردُّ عليها من فيوضات الرحمن وأنسَّت بلقاء الملك المنان وسعدت بجواره وتنعمت بقربه فلم تبال بنعيم الدنيا الزائلة ولم تتخدع بلذاتها الفانية ولم تحفَّ ففقد محبوب ولم تحزن على فوت مطلوب.

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٢١)، فحَبَّبَ إِلَيْهِ رِزْقَ رَبِّهِ الْأَسْعَدَ عِنْدَهُ وَالْمَوْصُوفَ بِالْخَيْرِ وَالْبِقَاءَ وَالْخُلُودَ^(٢٢).

قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَىٰ مَا مَتَّعَ بِهِ اللَّهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنْ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ عِنْدَهَا أَقْلًا مِمَّا يَطْوُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ وَلَنَعَمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَلَكَّدُوا بِهَا تَلَكَّدًا مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَانِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، إِنْ مَعْرِفَةَ اللَّهِ أَنْسَ مِنْ كُلِّ وَخْشَةٍ وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ»^(٢٣).

وقال مولانا علي بن الحسين عليه السلام: «إِنَّ جَمِيعَ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا بِحَرِّهَا وَبَرِّهَا وَسَهْلِهَا وَجَبَلِهَا عِنْدَ وَلِيِّيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِحَقِّ اللَّهِ كَفَىٰ الظُّلَالِ»^(٢٤).

جاء في بعض رسائل صدر المتألهين (قده) هذه الأبيات:

گه کنی یک ره نظر در شهر جان

نُفرت آید مَر تو را زین خاكدان

گر بیندازی نگاهی سوی دل

کم شوی در کار دنیا مشتغل

گر بیابی ذوق معنی یک نفس
تلخ گردد بر مذاقت هر هوس
گر ز طیب شهر جان آگه شوی
زین ریاحین جهان تو نشنوی
گر سماع نغمه مستان کنی
گوش دل با سوی این داستان کنی
میل دنیا گر کند گمره شود
از خساست همجو خاک ره شود^(٢٥)

قال المولى عزَّ وجلَّ في حديثٍ قدسي: «يا ابنَ آدمَ، أنا حيٌّ لا أموتُ أُطعني فيما أمرتُكُ
أَجْعَلُكَ حَيًّا لا تَموتُ»^(٢٦)!!

فخلود العارف يبدأ قبل قيام الساعة، يوم يموت موتاً اختيارياً، ويفنى عن كل ما سوى الله فناء كلياً، ويتوجه إلى المبدأ الأعلى توجهاً دائماً، ويرجع إلى باريه رجوعاً شوقياً، ويبقى مع ربه بقاءً أبدياً، فلا يقطع سيره عارض الموت الذي كتب على كل نفس، بل يخرج من دار الفناء وحطامها باختياره ولا يزال بدنه بين جدرانها، ويدخل دار السلام ونعيمها، فذلك اليوم عند العارف يوم الخلود.

هرگز نمیرد آنکه دلش زنده شد به عشق

ثبت است بر جریده عالم دوام ما^(٢٧)

ويقول العرفاء: أن لأهل الشهود من المؤمنين لقاء يتحقق قبل قيام الساعة لأنهم قوم ماتوا عن إنياتهم وتعيناتهم في هذه الدار وتجدوا عن طبائعهم وخلعوا هيئاتهم النفسانية والطبيعية فأحياهم الله بحياته وشاهدوا جمال وجهه الباقي في كل شيء، ومن كان هذا نعتة فهو حي خالد بخلود الحق!!

إلهي!! عَجَباً لِقُلُوبٍ سَكَنْتْ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرَوَّحَتْ بِرُوحِ المُنَى وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ مَلَكَهَا زَائِلٌ وَنَعِيمَهَا رَاحِلٌ وَظِلُّهَا أَفْلٌ وَسَنَدُّهَا مَائِلٌ وَحُسْنُ نَضَارَةِ بَهْجَتِهَا حَائِلٌ وَحَقِيقَتِهَا بَاطِلٌ كَيْفَ لا يَشْتاقُ إِلَى رُوحِ مَلَكُوتِ السَّماءِ!! وَأَنْنى لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ شَغَلَهُمْ حُبُّ المَهالِكِ وَأَضَلَّهُمُ الهَوَى عَنِ سَبِيلِ المَسالِكِ!!

إلهي!! اجْعَلْنَا مَنَّ هَامَ بِذِكْرِكَ لُبُّهُ وَطَارَ مِنْ شَوْقِهِ إِلَيْكَ قَلْبُهُ فَاحْتَوَتْهُ عَلَيْهِ دَواعِي مَحَبَّتِكَ فَحَصَلَ أَسيراً فِي قَبْضَتِكَ فَأَوْزَعْنِي شُكْرَكَ وَلا تُؤْمِنِّي مَكْرَكَ وَلا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ وَجُدْ بما أنتَ أَوْلَى أَنْ تَجودَ بِهِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الهوامش

- (١) يقول الحكيم السبزواري (قده) في حاشية الأسفار: أي جعل في فطرتها محبة الوجود الحي القيوم الباقي، وهذا الوجود المجازي والحياة العرضية والبقاء المتشابك بالفناء لما كانت أظلال الوجود الحي القيوم الباقي كانت النفوس محبة عاشقة لها (أي للوجود المجازي) وكارهة عن مقابلاتها، لكن أين الجمال والجلال من الظلال سيما الظلال النازل في الغاية!!
- (٢) الأسفار الأربعة: مجلد ٩ ص ٢٤١
- (٣) سورة الأنبياء: آية ٣٤
- (٤) سورة آل عمران: آية ١٨٥، سورة الأنبياء: آية ٣٥، سورة العنكبوت: آية ٥٧
- (٥) سورة الزمر: آية ٣٠
- (٦) سورة العنكبوت: آية ٦٤
- (٧) الكافي: ج ٨ ص ١٣٥، تحف العقول: ٤٩٧
- (٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٤٦
- (٩) سورة المؤمنون: آية ٣٧
- (١٠) سورة الإنسان: آية ٢٧
- (١١) سورة السجدة: آية ١٧
- (١٢) الترجمة:
- إذا علمت أن اللذة في ترك اللذة
فسوف تعلم أن لذة النفس ليست بلذة
- (١٣) مقتبس من بحار الأنوار: ج ٦١ ص ١٢٧
- (١٤) سورة الهمزة: آية ٢ - آية ٣
- (١٥) سورة الانشقاق: آية ١٣ - آية ١٤
- (١٦) سورة غافر: آية ٧٥، قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية، والمرح شدة الفرح والتوسع فيه، وذهبت جماعة إلى اعتبار المرح حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب والاستفادة من النعم الإلهية في طريق الباطل، والفرح إما أن يكون حقا فيحمد عليه أو يكون باطلا فيدم عليه، لذا جاء في الآية مقيدا بكلمة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وأما المرح فلا يكون إلا هوا وباطلا فهو مذموم، لذا جاء في الآية مطلقا.
- (١٧) الأسفار الأربعة: مجلد ١ ص ١

(١٨) الترجمة:

من لم ير اليوم وجه الحبيب معاينة

فهو طفل ينتظر طلوع الغد!!

(١٩) سورة الرحمن: آية ٦٠

(٢٠) رياض السالكين: ج ٢ ص ٥٠٤

(٢١) سورة طه: آية ١٣١

(٢٢) قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله ﷺ جالساً ثم قال: «مَنْ لَمْ يَتَعَزَّزْ بَعَزَاءِ

الله تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ وَمَنْ أَتْبَعَ بَصْرَهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ طَالَ هَمُّهُ وَكَمْ

يَشْفِ غَيْظُهُ وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ قَصُرَ أَجَلُهُ وَذَنَا عَذَابُهُ»

- تفسير القمي: مجلد ٢ ص ٦٦، تفسير البرهان: مجلد ٤ ص ٤٩، وقد شدد المتقون في وجوب غض

البصر عن أبنية الظلمة وزينة الفسقة في اللباس والركوب وغير ذلك - تفسير مقتنيات الدرر: مجلد

٧ ص ١٣١، وقال بعض الزهاد: يجب غض البصر عن أبنية الظلمة وملابسهم المحرمة لأنهم اتخذوا ذلك

لعيون النظارة فالناظر إليها محض لغرضهم وكأنه يحملهم على اتخاذها - تفسير جوامع الجامع: مجلد ٢ ص

٤٤٣

(٢٣) الكافي: ج ٨ ص ٢٤٧

(٢٤) تحف العقول: ص ٣٩١، ومنه بحار الأنوار: ج ١ ص ١٤٤

(٢٥) الترجمة:

لو تلقي نظرة واحدة إلى ديار الروح

لشعرت بالنفور من كومة التراب

لو تلقي نظرة واحدة إلى القلب

لما اشتغلت بالدنيا إلا قليلاً

لو تجد ذوق المعنى بنفَس واحد

لشعرت في مذاقك مرارة كل هوى

لو تدرك طيب عالم الروح

لما شممت رياحين هذا العالم

لو تسمع نغمات السكارى

لوجَّهت سمع قلبك جِهتهم

من مال إلى الدنيا تعرَّض للضياع

وكان من الخساسة كتراب الطريق

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٦

(٢٧) الترجمة:

لم يمت أبداً من أحيا قلبه بالحب والعشق
فقد كُتب خلودنا في صحيفة العالم والكون.

المنزل (٣٤)

شوق الحب

كُلُّ الْجِهَاتِ لِشَمْسِ حُسْنِكَ مُشْرِقٌ
 وَلِكُلِّ ذِي قَلْبٍ إِلَيْكَ تَشَوُّقٌ
 يَا وَهَبَ الْحُسْنَ الْبَدِيعَ لِأَهْلِهِ
 كُلُّ لِحُسْنِكَ فِي الْحَقِيقَةِ يَعْشَوُ

الشوق والاشتياق لغة نزع النفس إلى الشيء وتوقانه إلى تحصيله، والتشوق هيجان الشوق، وأما عرفاناً فهو احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وشوق المحب لله هو حركة الروح في طلب لقائه، ورجاء اللقاء يقتضي تلك الحركة، ولما كان وقوع اللقاء مؤكداً كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ...﴾^(١) فتحققه لا يكون إلا بالفناء عن النفس وهو الموت الحقيقي^(٢).

وعلى هذا فالشوق حركة روحانية إلى لقاء المحبوب إذا كان المحبوب هو الله سبحانه، وحركة جسمانية حسية إلى لقاء المحبوب إذا كان ذلك المحبوب من شكله، وفي كلا الحالين لا بد أن يكون المشوق إليه موجوداً معلوماً لا معدوماً مجهولاً، لأن الشوق للمعدوم المحض والطلب للمجهول المطلق مستحيل.

والشوق من مستلزمات المحبة وأوصافه، فكل محب مشتاق وكل مشتاق محب، ومن ليس بمشتاق ليس بمحب ومن ليس بمحب ليس بمشتاق، وازدياد أحدهما ازدياد للآخر ونقصانه نقصان للآخر، ولتقريب المعنى يمكن تصور ذلك كدائرة نصف محيطها يسمى المحبة ونصفه الآخر الشوق، واكتمال الدائرة يستلزم تناسبا بينهما تناسبا طردياً، فحاصل ازدياد الشوق ازدياد المحبة وحاصل ازدياد المحبة ازدياد الشوق حتى تكتمل الدائرة صحيحة لا عوج فيها.

وكذلك التلازم والتناسب المؤكد بين الشوق والمعرفة، فالشوق سبيل لمعرفة الله تعالى، والحركات الشوقية موجبة للمعارف الإلهية والعلوم اليقينية والحقائق الكشفية، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ اشْتَأَقَ خَدَمَ وَمَنْ خَدَمَ اتَّصَلَ وَمَنْ اتَّصَلَ وَصَلَ وَمَنْ وَصَلَ عَرَفَ»^(٣)!! وبطريقة عكسية فإن الشوق إلى الحق تبارك وتعالى على قدر حبه، وحبه على قدر تجليته، وتجليته على قدر معرفته، والعارف بالله الغاني في الله أبداً ناظر إلى ربه عرفانا وحبا وعشقا وشوقا، فيتجدد طرب الأشواق في قلبه بتجدد الواردات القدسية في ذاته وبحكم حقيقة المعية الإلهية المتجلية في الآية المباركة: ﴿..... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ.....﴾^(٤)!!

ونستفيد في دقائق بحثنا هذا من أقوال أكابر العارفين والحكماء الإلهيين لا سيما ما نقله الحكيم الإلهي صدر المتألهين (قده) في أسفاره والذي حكى في هذا المطلب مستوفيا، وسنين طرفاً منها بقدر ما تمس الحاجة إليها إن شاء الله تعالى.

في بيان الفرق بين الشوق إلى ما هو متعلق بأمور الدنيا ولذاتها والشوق إلى الله تعالى وما يُنسب إليه يقول صدر المتألهين الشيرازي (قده):

«لا يُخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ كُلَّ مُحِبٍّ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الدُّنْيَوِيَّةِ مُشْتَأَقٌ إِلَيْهِ هَائِمٌ بِهِ عِنْدَ الْفُقْدَانِ وَأَنَّهُ مَتَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ وَنَالَ مَا يَهْوَاهُ مِنْهُ حَصَلَ مَقْصُودُهُ وَبَلَغَ حَاجَتَهُ مِنَ الْأَسْتِمْتَاعِ وَالتَّلَذُّذِ بِقُرْبِهِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ يَوْمًا أَوْ سَاعَةً أَنْ يُفَارِقَهُ وَيَمْلَأَهُ أَوْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ وَيَذْهَبَ عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُوهُ وَيَتَلَاشَى لَهُ الْبِشَاشَةُ وَيُخَمِّدَ لَهَا ذَلِكَ الْأَشْتِيَاقَ وَالْهِجَانَ وَرَبِّهَا يَصِيرُ عَيْنُ مَا هُوَ الْمَحْبُوبُ وَبِالْأَوَّافَةِ عَلَى الْمَحِبِّ وَمَرْضَاً وَعَلَّةً لَهُ وَرَبًّا مَعشُوقِ أَدْمِيٍّ صَارَ مِنْ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ وَأَوْحَشَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ مُحِبِّهِ، إِلَّا الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَالْمُشْتَأَقِينَ إِلَى لِقَائِهِ مِنْ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ لَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مَحْبُوبِهِمْ قُرْبَةً، وَكُلَّمَا قَرَّبُوا مِنْهُ أَزْدَادَ شَوْقِهِمْ وَقَوِيَّ عَشْقِهِمْ، وَكُلَّمَا أَزْدَادَ الشَّوْقَ أَزْدَادَ الْقُرْبُ وَهَكَذَا إِلَى أَبَدِ الْأَبَادِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وَأَشَارَ إِلَى حَالِ الْمُحِبِّينَ سِوَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿..... كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا.....﴾»^(٥)!!

يقول أهل معرفة الله أن كل إمكانات عالم الوجود موجودة بغيرها لا بذواتها ومفتقرة إلى الغني الموجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده حتى تستكمل به ذاتها ويخرجها من العدم إلى الوجود ومن القوة إلى الفعل ومن النقص إلى الكمال وكل ما سوى الحق قاصر وعاجز وفقير ومستفيض يحتاج إلى مكمل ومنتهم له، من أجل ذلك أودع الله تعاليفي ذات كل مخلوق توجُّهاً إلى تحصيل

الكمال وطلب التمام حسب قابليته وقوته الاستعدادية المناسبة له للتقرب إليه، ولا بد أن يكون لهذا التوجه الغريزي والطلب الجبلي غاية ونهاية لازمة، ولولا الغاية والنهاية المرجوة لكان ارتكاز التوجه والطلب في الغريزة والجيلة عثا باطلا معطلا، ولكن - كما أشرنا سابقا - أنه لا عبث في الوجود ولا باطل في الطبيعة.

وبحكم أن كل موجود في عالم الوجود ناقص ومشتاق إلى كمال ذاته، وكل يرى كمال ذاته في ما هو أعلى منه وأشرف، وأن العشق والشوق إلى العالي سبب وجوده على كماله الممكنة، لذا يجعله غاية له يقصده ويعشقه ويشتاق إليه لنيل كماله المشتاق إليه، وهكذا تتدرج مراتب العشق والشوق من السافل إلى العالي ومن المعلوم إلى العلة إلى أن تنتهي مدارج العشق ومقاصد الشوق إلى عشق واجب الوجود وقصده والشوق إليه، لذا فإن العشق والشوق سار في جميع الموجودات، وكل الأشياء في النهاية عاشقة ومشتاقة إلى لقاء غاية الغايات وهو الحق سبحانه وتعالى طبعاً وإرادة.

ومن أشعار صدر المتألهين (قده) في شوق الموجودات إلى موجدِها:

از كمالش هفت گردون ذره ای
از نوالش هفت دریا قطره ای
هست دریا تشنه دیدار او
سوز خور از حسرت رخسار او
نور خورشید از جمالش لمعه ای
آب دریا در فراقش دمعه ای
گریه باران ز شوق روی اوست

ناله رعد از هوای کوی اوست^(٦)

وقال بعض العارفين: لَعَمْرِي إِنَّ السَّمَاءَ بِسُرْعَةٍ دَوْرَانِهَا وَشِدَّةَ وَجْدِهَا وَالْأَرْضَ بِفَرْطِ سُكُونِهَا لَسَيَّانٌ فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَلَعَمْرُ إِلَهَكَ لَقَدْ اتَّصَلَ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ لَدِيدِ مَا نَأَلْتَا مِنْ تَجَلِّي جَمَالِ الْأَوَّلِ مَا طَرَبَتْ بِهِ السَّمَاءُ طَرَبًا وَرَقْصًا فَهِيَ بَعْدُ فِي ذَلِكَ الرِّقْصِ وَالنَّشَاطِ وَغُشِي بِهِ عَلَى الْأَرْضِ لِقُوَّةِ الْوَارِدِ فَأَلْقَيْتَ مَطْرُوحَةً عَلَى الْبَسَاطِ، وَسَرِيَانٌ لَدَّةَ التَّجَلِّي عَبَّدَهُمَا، وَمُشَاهِدَةٌ لَطْفِ الْأَزَلِ هِيَ الَّتِي سَلَبَتْ أَفْئِدَتَهُمَا كَمَا قِيلَ فِي الشَّعْرِ:

فَذَلِكَ مِنْ عَمِيمِ اللَّطْفِ سُكْرٌ

وهذا مِنْ رَحِيقِ الشَّوْقِ سُكْرٌ^(٧)

والإنسان - وهو المجموع لهذه الأشياء^(٨) فمجموع لنقصاناتها بالتبع - مشتاق بكله إلى الجامع لجميع صفات الكمال المطلق والتام الحقيقة وفوق التهام الذي له الأسماء الحسنى وهو الحق الأعلى جل ذكره، فإذا أدرك الإنسان حسن الباري وجمال أنواره وبهائه لراه أحق الأشياء التي يشتاق إليها، وهذه مرتبة لم يصل إليها وإلى معرفتها وتصديقها والصدق فيها إلا الكَمَلين من العرفاء الواصلين.

وعده وصل تو را غير به فردا انداخت

دارم امید کز امروز بفردا نرسد^(٩)

فالعجب كل العجب ممن عرف الله سبحانه وتعالى كيف يسلو عنه^(١٠) وذاق حبه كيف يصبر

عنه!!

يقول الحكماء أن في كل موجود عشقا طبيعيا وشوقا غريزيا، وبالعشق يُحفظ كمال الموجود وبالشوق يُطلب كمال المفقود، وحيث لا كمال إلا لله ولا استكمال موجود إلا بالله فهو المقصود الحقيقي وإليه المصير.

ولكن هناك من غلبت عليه نشأة الحس والمادة، واستلذ بمألوفات الدنيا ومشتهياتها، وطلب حظوظ النفس ورغباتها، وظن أنها المقصودة، وزعم أن لمحبوباته الحقيقة، فمال عن عشقه الطبيعي وشوقه الغريزي للحق إلى عشقها والتمتع بها والشوق إليها عند فقدها والسرور عند الظفر بها، وهو غافل عن ربه، مطرود عن جناب قربه، وفاقد وجوده في قلبه كما هو فاقده في عينه فلم يره، وناسيه فلم يطلبه، والحقيقة أنه اشتبه عليه الأمر، وأن ما أحبه معدوم ومجازي، وما طلبه باطل لا حقيقة له، فالشوق إليه - كما يقول العرفاء - توهم باطل والباطل عدم.

وهناك من ارتقى عن المرتبة الأولى وغلب عليه رجاء ثواب الآخرة وتوقف طلبه عندها، فاشتاق إلى ما وعده الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله من نعيم الجنة وسرورها وحوورها وقصورها وأشجارها وأنهارها، وعمل بتفاصيل الطاعات والعبادات وكسب الخيرات، وغايته الوصول إليها والعيش فيها والتنعم بلذاتها وشهواتها، وهذه المرتبة مرتبة وسطية، لأن غاية شوقه الجنة المحسوسة بما فيها من حظوظ نفسه من المآكل والمشارب والمناكح، وشوقه إلى الحق في الحقيقة مشوب بأغراض النفس والهوى غير فارغ عن جميع ما يشغله عن الحق سبحانه مُعرض عن معرفته غير متأمل بباطنه إلى الحضرة الإلهية وحقائق أسائه وصفاته وأفعاله.

وأما من ارتقى عن المرتبتين الأوليين، ونصب نفسه مخلصا لله، ورفض الدنيا والآخرة، واشتاق إلى لقاء الله بعدما ضاق صدره لفراقه وهجرانه، وسلك مسلكا طالبا به الله بعد فقده وبعاده، واتخذ إلى موطنه الأصلي سبيل الرجوع بعد غربته وارتداده، وروض نفسه للتخلي عن كل

الهمومات إلا همًّا واحداً، ونفى عن قلبه كل المحبوبات إلا محبوباً واحداً، هنالك يفتح الله له سبل اللقاء حيث يقول وقوله الحق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾^(١١) بأن يفيض عليه من عطفه ورحمته ولطفه وحنانه، فيعينه بها على نفسه والهوى ويزهر في قلبه مصباح الهدى فيبصر طريقه ويكمل مسيره حتى يخلصه لنفسه ويحتبيه للقاءه.

وقد يتفرع من هذه الطائفة المريد الذي يعلّق قلبه ببعض أسماء الله الثواني التي هي أسماء الأفعال كـ «المحسن» و«المنعم» و«المفضل» و«المنان» و«الرزاق» و«المعطي» و«الكريم»، ويتوقف حد نظره إلى إفاضات الحق بالعطاء والنعمة، وهي بوجه حجب وسواتر عن الله من حيث ذاته، وعلى هذا فهو يشتاق بعد غيبته إلى معاينة لطائف محبوه ومننه ومطالعة جوده وكرمه ومحو صفاته وفناء أفعاله في صفات الحق وأفعاله، وفي هذا المقام لا يكون المحبوب الذي يشتاق إليه المحب هو الحق تعالى بذاته بل جعل الحق واسطة لنيل حظوظ نفسه ووسيلة لحصول لذاتها، فمحبته مشوبة بأغراض النفس، إن أحسن إليه الحق بإحسان أو نعمة سعد بها وتسلى بها عن ذات المحسن المنعم وسكنت حرارة شوقه إليه.

گر از دوست چشمت به احسان اوست

تو در بند خویشی نه در بند دوست

خلاف طریقت بود که اولیاء

تمنا کنند از خدا جز خدا^(١٢)

ويقول العرفاء أن الأسماء والصفات الظاهرة في التجليات الأسائية والصفاتية هي حجب نورانية، وأن الذات لا تزال محتجبة بالصفات، وخرق هذه الحجب يختص بالكمّلين من العرفاء الواصلين الذين هم مظاهر التجليات الذاتية لا الأسائية بعد فنائهم بالموت الإرادي في الذات ومشاهدة جمال نور الأنوار، وقد أشار إلى ذلك مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «كَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ»^(١٣)!!

فطوبى للمحبين العاشقين الذين أحبوا الله تعالى حب إخلاص في جميع صور أسائه عند ظهوره في مظاهر جماله وجلاله ولطفه وقهره، والواصلين من السالكين إلى المعارج وأهل شهود الحق والعرفان الخارجين عن حظوظ أنفسهم الغافلين عن مشاهدة إنبياتهم المضمحلّة في الحق ذواتهم السالكين سلوكاً روحانياً حتى تجلّى ربهم في قلوبهم على الدوام فلم يفقدوه طرفة عين، بل تحقّقوا بلقائه في دار الدنيا في عين القرب منه، فلم يشتاقوا إلى لقاءه، لأن الشوق إلى اللقاء لا يكون إلا للمحروم البعيد حيث الفراق ودوام الحجاب المانع عن إدراك أنوار العلم والعرفان، ومادامت الإنيّة متوسطة بينه

وبين الحق فهو عاجز عن إدراكه وقاصر في معرفته، ومن ثم الشوق إليه شوق المقرَّبين، وأما أهل الشهود الواصلون فشوقهم إلى دوام اللقاء أبدي لا زوال له، وأحداق قلوبهم شاخصة إلى جنباه وهم يشاهدون تجليات جمال الحق اللامتناهي يطلع عليهم في كل يوم في شأن وفي كل لحظة في صورة جديدة من صور الوجود، وتترادف عليهم لذات معرفته مضاعفة متزايدة بتزايد ظهور جماله، وتستلذ قلوبهم أبداً بمذاق طعم وصاله وعرفانه، فيزدادون شوقاً إليه.

قال مولانا أمير المؤمنين في حال المحب المشتاق: «أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِأُخْرَاهِ وَرَهَدَ فِي الْفَانِي شَوْقاً إِلَى مَوْلَاهُ»^(١٤)، قال عليه السلام أيضاً في صفات المتقين المشتاقين: «لَوْ لَا الْأَجَالُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ وَالثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنْ أَلِيمِ الْعِقَابِ»^(١٥).

وقال الصادق عليه السلام: «المُشْتَاقُ لَا يَشْتَهِي طَعَاماً وَلَا يَلْتَذُّ بِشَرَابٍ وَلَا يَسْتَطِيبُ رُقَاداً وَلَا يَأْنَسُ حَمِيماً وَلَا يَأْوِي دَاراً وَلَا يَسْكُنُ عُمَرَاناً وَلَا يَلْبَسُ كَيْناً وَلَا يَقَرُّ قَرَاراً وَيَعْبُدُ اللَّهَ كَيْلاً وَنَهَاراً رَاجِياً أَنْ يَصِيرَ إِلَى مَا اشْتَاقَ إِلَيْهِ وَيُنَاجِيهِ بِلِسَانِ شَوْقِهِ مُعَبِّراً عَمَّا فِي سِرِّرَتِهِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مُوسَى فِي مِيعَادِ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾»، وفسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا أَكْلَ وَلَا شَرِبَ وَلَا نَامَ وَلَا اشْتَهَى شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فِي ذَهَابِهِ وَمَجِيئِهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً شَوْقاً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، ثم قال عليه السلام: «فَإِذَا دَخَلْتَ مَيْدَانَ الشَّوْقِ فَكَبِّرْ عَلَى نَفْسِكَ وَمُرَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَوَدِّعْ جَمِيعَ الْمَأْلُوفَاتِ وَأَحْرِمِ (وَاجْزِمِ) عَنْ سِوَى مَعْشُوقِكَ وَلَبَّ بَيْنَ حَيَاتِكَ وَمَوْتِكَ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ كَيْتِكَ وَأَعْظَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ، وَمَثَلُ الْمُشْتَاقِ مَثَلُ الْغَرِيقِ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا خَلَاصُهُ وَقَدْ نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ دُونَهُ»^(١٦).

وقال ذو النون المصري: «إِنَّ اللَّهَ عِبَاداً مَلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنْ صَفَاءِ مَحْضِ مَحَبَّتِهِ وَفَسَّحَ أَرْوَاحَهُمْ بِالشَّوْقِ إِلَى رُؤْيَيْهِ فَسُبْحَانَ مَنْ شَوَّقَ إِلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَذْنَى مِنْهُ فَهَمَّهُمْ وَصَفَتْ لَهُ صُدُورُهُمْ».

وقال بعض العارفين أن الشوق غلبة ذكر متمنٍّ واضطراب الصبر عن فقده وشدة طلبه وهو للعوام، والشوق يكون إلى غائب، أما في طريق الخواص فالمشتاق إليه حاضر، وشوق الخاص أن يكون هو غائبا والحق حاضر!!! لذا اعتبر العرفاء أن الشوق علة عظيمة، والمشتاق متعلق قلبه بغائب، وصاحب علة ومرض، لأن الشوق إنها يكون إلى غائب والحق حاضر لا يغيب، ومذهب العرفاء إنها قام على المشاهدة، ولهذا العلة لم ينطق القرآن باسمه^(١٧)!!

فالحركة الشوقية لا تتوقف عند حدّ اللقاء كما يراه بعض العلماء والحكماء فحسب، بل تزداد شدة وقوة ودواما عند اللقاء وتاليه، ويؤيد ذلك أكابر العارفين، ومنهم سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رحمته الله.

وعلى هذا فالمحب لغير الله تعالى يشتاق إليه عند غيبة ظاهر محبوبه وصورته، والمريد السائر إليه يشتاق في بادئ الأمر إلى لقاءه عند غيبته عن قلبه، ومن ثم التعلق بتجليات أسائه وصفاته، فيشتاق إلى التلاقٍ ويتألم بالفراق، وأما المحب لله المستغرق في حبه له والمتوجه ب كله إليه فهو في مشاهدة دائمة لمحبوبه، وكلما زاد مشاهدةً ونظراً إليه تجلّى له جمال الحق أكثر فأكثر، فزاد حبا، فزاد شوقا، لذا يسمي أهل العرفان مشاهدة المحبوب شوقا.

قال الشاعر:

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَجِنُّ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ شَوْقاً عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي
وَتَبْكِيهِمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا
وَتَشْتَأْقُهُمْ نَفْسِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْطَعِي^(١٨)

ويرى بعض العارفين - حسب مراتب الشوق - أن هناك فروقا بين المعنى العرفاني لكل من الشوق والاشتياق ويقولون:

- أن الشوق من البعد والاشتياق من القرب المفرط،

- وأن الشوق يسكن باللقاء، لأنه هبوب القلب إلى غائب فإذا ورد سكن، والاشتياق يهيج باللقاء، لأنه حركة يجدها المحب عند اجتماعه بمحبوبه فرحابه لا يقدر أن يبلغ غاية وجدّه فيه، فلو بلغ سَكَنَ لأنه لا يشبع منه، فإنّ الحس لا يفي بما يقوم في النفس من تعلقها بالمحجوب، فهو كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا،

- وأن الشوق بتحصيل اللقاء يزول والاشتياق مع الوصال يكون.

قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ...﴾^(١٩).

فمن أراد السير إلى الله تعالى مشتاقا إليه يرجو في ذلك لقاءه لا بد ضرورة أن يتحرك إليه بروحه ويفنى عن نفسه ويتجرد عن هيكله حتى يتم اللقاء ويتبدل شوق الفراق إلى ما هو أعظم منه وأشدّ وهو الشوق إلى روح القرب والوصال.

ويحمل أكثر المفسرين كلمة ﴿لِقَاءَ اللَّهِ﴾ على يوم الحساب والجزاء والثواب، لأن حدّ نظرهم متوقف عند السعادة التي مفهومها التلذذ بالنعم الجسمانية في الجنة الحسية، ولم يعلموا أن الفضيلة

والسعادة غير منحصرة بالأموار المادية، بل إن السعادة وكل السعادة في القرب إلى جوار الرحمة الإلهية ودرك الفيوضات الروحانية والرحمانية.

يقول العلامة الطباطبائي رحمته في تفسير ﴿لقاء الله﴾:

«إِنَّ الْعِبَادَ يَكُونُونَ فِي مَوْقِفٍ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ ظَرْفٌ ظَهَرَ الْحَقَائِقِ» وهذا كله حاصل للعارف في هذه النشأة الدنيا بتجلى الحق لقلوب عباده الفانين فيه.

ويقول الخواجه عبدالله الأنصاري (بالفارسية):

إلهی تو را آن کس بیند که تو را در ازل دید

وآن کس تو را بدید که دو گیتی او را نابدید

و تو را او دید که نادیده بسنديد^(٢٠)

وفیما أوحى الله تبارك وتعالى لنبيه عيسى عليه السلام: «يا ابن مريم لَوِ رَأَتْ عَيْنُكَ مَا أَعَدَدْتُ لِأَوْلِيَائِي الصَّالِحِينَ ذَابَ قَلْبُكَ وَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهِ فَلَيْسَ كِدَارِ الْآخِرَةِ دَارًا تَجَاوَزَ فِيهَا الطَّيِّبُونَ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَهُمْ مِمَّا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا آمَنُونَ دَارًا لَا يَتَغَيَّرُ فِيهَا النَّعِيمُ وَلَا يَزُولُ عَنْ أَهْلِهَا»^(٢١).

وأي دار أوسع من دار الكرامة والرضوان وأي نعيم ألد من نعيم مشاهدة الرحمن!!

ومن المصاديق البارزة في الشوق إلى الله تبارك وتعالى النبي الله شعيب عليه السلام حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:
بَكَى شُعَيْبٌ عليه السلام مِنْ حُبِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بَصْرَهُ ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصْرَهُ ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصْرَهُ فَلَمَّا كَانَتِ الرَّابِعَةَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا شُعَيْبُ، إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا أَبَدًا مِنْكَ؟! إِنْ يَكُنْ هَذَا خَوْفًا مِنَ النَّارِ فَقَدْ أَجْرْتِكَ وَإِنْ يَكُنْ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ فَقَدْ أَبْحَثْتُكَ، فَقَالَ: إِلَهِي وَسَيِّدِي أَنْتَ تَعَلَّمُ إِنِّي مَا بَكَيْتُ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ وَلَا شَوْقًا إِلَى جَنَّتِكَ وَلَكِنْ عَقَدَ حُبُّكَ عَلَيَّ قَلْبِي فَلَسْتُ أَضْبِرُ أَوْ أُرَاكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ: أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَمِنْ أَجْلِ هَذَا سَأُخْذِمُكَ كَلِيمِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ»^(٢٢)!!

وفي مقابل فئة الراجين لقاء الله والمشتاقين إليه تقع فئة الغافلين عن الشوق إلى رب العالمين القاصرة همهم على لذائذ الدنيا وزخارفها المنهمكة نفوسهم في شهواتها الضال سعيهم في الحياة الدنيا ولم يخطر الحق على بالهم أبدا وحسبوا أنهم يسرون في طريق الهدى، أولئك الذين لا تشملهم العناية الإلهية

بل ويسلب الحق عنهم التوفيق ويكلهم إلى أنفسهم ويستدرجهم من حيث لا يشعرون، يقول الله تعالى: ﴿...فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٢٣) أي يترددون ويتحيرون في الضلال، ثم تمثل سوء خاتمهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلِينَ * أُولَئِكَ مَا أُوْهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢٤)!!

وأما المرتبة التالية من استحقاقية محبة المحب وشوقه بعد محبة الله والشوق إليه هو محبة الإنسان الكامل المشتمل لجميع مظاهر أسماء الله تعالى وصفاته والشوق إليه، وهم الخالص من الأولياء وأولي العصمة من الأنبياء والأوصياء الذين جعلهم الله تعالى برازخ بين الحق والخلق، فكانوا الدالين على ربهم بذواتهم، لا سيما سيدنا وحبیب قلوبنا رسول الله الأعظم ونبیه الأكرم محمد ﷺ وآل بيته الطاهرين ﷺ الذين خلق الله تعالى العالم بسببهم ولأجلهم.

عن المفضل بن عمر - في وصف شيعة مولانا جعفر بن محمد ﷺ: «مَنَعَ نَفْسَهُ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا خَوْفًا مِّنَ اللَّهِ وَشَوْقًا إِلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»!!
ووكذلك قوله ﷺ في أحد: «وَهَذَا أُحَدِّثُ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(٢٦)!!
وقال النبي ﷺ لعلي ﷺ: «يَا عَلِيُّ إِنَّ الْجَنَّةَ تَشْتَاقُ إِلَيْكَ وَإِلَى عَمَّارٍ وَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ وَالْمِقْدَادِ»^(٢٧)!!

وقال ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لِأَشْوَقُ إِلَى سَلْمَانَ مِنْ سَلْمَانَ إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْجَنَّةَ لِأَعَشَقُ لِسَلْمَانَ مِنْ سَلْمَانَ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢٨)!!

وروي أن النبي ﷺ قال: «اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ مَرِيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَأَسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ زَوْجَةَ فِرْعَوْنَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ وَخَدِيجَةَ بِنْتِ حُوَيْلِدٍ زَوْجَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَفَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢٩)!!

وقد أوحى إلى بعض الصديقين: «إِنَّ لِي عِبَادًا مِنْ عَبِيدِي يُحِبُّونِي وَأَحِبُّهُمْ، وَيَشْتَاقُونَ إِلَيَّ وَأَشْتَاقُ إِلَيْهِمْ وَيَذْكُرُونِي وَأَذْكُرُهُمْ، فَإِنْ أَخَذْتَ طَرِيقَهُمْ أَحَبَبْتُكَ، وَإِنْ عَدَلْتَ عَنْهُمْ مَقَتُّكَ» قال: يا رب ما علامتهم؟! قال: «يُرَاعُونَ الظَّلَالَ بِالنَّهَارِ كَمَا يُرَاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ، وَيَحْنُونَ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ كَمَا تَحْنُ الطَّيْرُ إِلَى أَوْكَارِهَا عِنْدَ الْغُرُوبِ، فَإِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ وَاخْتَلَطَ الظُّلَامُ وَفَرِشَتِ الفُرْشُ وَنُصِبَتِ الأَسْرَةُ وَخَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ نَصَبُوا إِلَى أقدامِهِمْ، وَافْتَرَشُوا إِلَيَّ وَجُوهَهُمْ، وَنَاجُونِي بِكَلَامِي، وَتَمَلَّقُونِي بِأَنْعَامِي، مَا بَيْنَ صَارِخٍ وَبَاكِ، وَبَيْنَ مُتَأَوِّهِ وَشَاكٍ، وَبَيْنَ قَائِمٍ وَقَاعِدٍ، وَبَيْنَ

رَاكِعٌ وَسَاجِدٌ، بَعَيْنِي مَا يَتَحَمَّلُونَ مِنْ أَجْلِي، وَبَسْمَعِي مَا يَشْكُونَ مِنْ حُبِّي، أَوَّلُ مَا أَعْطَيْهِمْ ثَلَاثًا: الْأَوَّلُ أَقْدَفُ مِنْ نُورِي فِي قُلُوبِهِمْ، فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أَخْبَرُ عَنْهُمْ، وَالثَّانِي لَوْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ وَمَا فِيهِنَّ مَوَارِيثَهُمْ لَأَسْتَقَلَّتْهَا لَهُمْ، وَالثَّلَاثُ أَقْبَلُ بَوَجْهِهِ عَلَيْهِمْ، أَفْتَرَى مَنْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بَوَجْهِهِ يَعْلَمُ أَحَدًا مَا أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ!!» (٣٠)

وأما آفة شوق المشتاقين فهي الغفلة، وهي آفة وجريرة يؤاخذ عليها الخواص من المحبين المشتاقين ويعاقبون أنفسهم عليها!! فكل شيء في عالم الإمكان يدور في فلك العشق شوقاً إلى جماله وانسياقاً إلى طلب لقاءه ولا يتصور لها غفلة إلا الثقلين، فلا تكن من الذين يقولون يوم اللقاء المحتوم: ﴿..... يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا.....﴾ (٣١)!!

پنبه غفلت برون ميکن زگوش

تا بیابی نغمه های همچو نوش (٣٢)

وقد أشار الشاعر حافظ الشيرازي إلى حال المشتاقين الملتهبة قلوبهم بالشوق إلى المحبوب الحق الذين لا يتصورون لحظة سِنَّة أو غفلة عنه بهذا البيت الجميل:

رُودَ بِهِ خَوَابِ دُو چَشْمِ اَز خِيَالِ تُو هِيَهَات

بُودَ صَبُورِ دَلِ اَنْدَرِ فِرَاقِ تُو حَاشَاكَ (٣٣)

وبعد بيان مفهوم الشوق من الجهة الخلقية - أي من الخلق إلى الحق وإلى كل ما ينسب إلى الحق من الأنبياء والأولياء - نتطرق إلى بيان الجهة الحقية من الشوق، أي شوق الحق إلى الخلق وحنينه إليهم بما يليق بجناب قدسه وجلاله.

أوحى المولى جلَّ شأنه إلى نبيه داود عليه السلام: «يَا دَاوُدُ لَوْ يَعْلَمُ الْمُدْبِرُونَ عَنِّي كَيْفَ انْتِظَارِي لَهُمْ وَرِفْقِي بِهِمْ وَشَوْقِي إِلَى تَرْكِ مَعَاصِيهِمْ لَمَاتُوا شَوْقًا إِلَيَّ» (٣٤)!!
وقال سبحانه: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا.....» (٣٥).

وقد جاء في بعض الكتب أنه قال سبحانه: «أَلَا طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَيَّ لِقَائِي وَإِنِّي إِلَيْهِمْ لِأَشَدُّ شَوْقًا!!»

إن الحق سبحانه وتعالى إذ هو في غاية الكمال والتمام ومنزه عن أنحاء النقص ومقدَّس عن كدورات القصور في الوجود والذات محال أن يتصف بالشوق إلى شيء مما خلق لإكمال ذاته وإتمامها بالمفهوم الخاص بالخلق علا عن ذلك علوًّا كبيراً، بل لكونه تام الوجود وفوق التمام يليق به أن يُشتاق إليه ويعشقه كل من سواه.

وقد تسأل: إذا ما معنى شوق الحق إلى الخلق الذي ورد في الأحاديث القدسية والجوامع الحديثية؟!

نقول: إن شوق الحق إلى الخلق يختلف عن شوق الخلق إلى الحق كل الاختلاف، وحاشا أن يكون شوق الحق كشوق خلقه وإليه الرُّجْعَى والآخرة والأولى، ولكن يمكن أن نقول أن الشوق من الصفات التشبيهية لله سبحانه كالتعجب والفرح والاستواء والتردد والفراغ والاستحياء والتقرب والمعِيَّة والكُرْه والمحبة والنسيان والمكر والسخرية وما أشبه ذلك من الصفات الإلهية التي جاءت على ألسنة الشرائع والمشابهة لصفات المخلوقين.

وأما في بيان شوق الحق للخلق فكما ذكرنا بدءاً أن العرفاء يقولون أن عشق الأدنيلأعلى والشوق إليه هو من أجل استكمال ذاته وإتمامها، والمستكمل بغيره ناقص في ذاته، ثم يقولون: وأما عشق الأعلى للأدنى والشوق إليه ليس من أجل استكمال ذاته وإتمامها به أو حصول منفعة أو مصلحة من ورائه، بل على سبيل الفيض والترشُّح وعين العناية والتلطُّف وكمال الإحسان والتفضُّل وسعة الرحمة والتوَدُّد ومطلق العلم بالموجودات والإحاطة التامة على الكون والكائنات، ومن أجل تحريك الأدنى وجذبه إليه ومحو آثاره.

از دم صبح ازل تا آخر شام ابد

دوستی ومهر بر یک عهد ویک میثاق بود

سایه معشوق اگر افتاد بر عاشق چه شد

ما به او محتاج بودیم او به ما مشتاق بود^(٣٦)

ثم إن الحركة الحبيبة الغيبية المقدسة من الله تبارك وتعالى لعباده والتوجه الشوقي إليهم أصله: «أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ»^(٣٧)، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم وهو غني عن طاعتهم غير متضرر بمعصيتهم وهو غاية كل شيء وغني عن كل شيء والكل مفتقر إليه وليس وراء شوقه إلى عباده غاية وهو المنزه عن الأغراض والمصالح إلا حب كمالات ذاته المقدسة الأزلي واللامتناهي، فهو سبحانه - كما قال الشيخ الرئيس في إشارات^(٣٨) - عاشق ومعشوق لذاته من غير وقوع كثرة فيه.

فالذات المتعالية الفيّاضة التي كل جمال وكمال رشح خير وفيض دائم من جماله وكماله محبوبة بالذات إلى واجب الوجود، وعلى حسب القاعدة العرفانية: «الحبُّ موجبٌ للظهور والتعَيُّنُ يقتضي المظهرية» إذا تجمّل العبد بالجماليات وارتفع بالكمالات وكان مظهراً من مظاهر أسماء الحق وصفاته أحبه ربه واشتاق إليه من حيث حبه لنفسه المقدسة وعشقه لكمال ذاته المتعالية التامة لا من حيث الاستكمال وإتمام الخير، فالمشتاق إلى رشحاته وفيوضاته وخيراته على من سواه إنما هو مشتاق إلى نفسه

وذاته.

ثم يقول العرفاء أن شوق الحق هو شوقه في أن يراه الخلق في صور تجلياته وكمالاته ومظاهر أسماؤه وصفاته، وأن يكونوا على أفضل ما يمكن من معرفته والتقرب إليه، قال تعالى في حديث قدسي: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٣٩)، والقلوب هي المعية ورؤية الخلق للحق هي المفقودة لا تعيينات الخلق مفقودة لدى الحق وهو اللطيف الخبير الذي أحاط بكل شيء علما والقائل سبحانه: ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ...﴾^(٤٠)، ومن لم يشتق إلى الله تعالى في دنياه وكره لقاءه كره الله لقاءه ولم يشتق إليه بل ينساه كما قال سبحانه في كتابه: ﴿... فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا...﴾^(٤١)!!
ويقول أرباب القلوب أن شوق كل مشتاق على قدر علمه وإدراكه للمعاني الظاهرة في محبوبه، والحق تعالى منبع العلم الذاتي والصفات، فعلمه بحقيقة أحبائه المشتاقين إليه وكمالاتهم أتم وأكمل، فمحبته وشوقه إياهم أعظم وأقوى، والأمر اللطيف وأرق من أن يتصور بأن الحق سبحانه أشد حبا وشوقا إلى لقاء محبيه المشتاقين إليه منهم إليه، وقد ورد في الخبر أنه تعالى قال عن نفسه: «وأنا أشدُّ شوقاً إلى لقاء عبدي»، وهذه الملاقاة والرؤية بين العبد المشتاق والرب الأشوق لا تحصل إلا بالموت وارتفاع الحجب وشهود الحق في تجلياته، سواء بالموت الطبيعي الحاصل للمشتاقين الزاهدين والعبدين أو بالموت الإرادي الحاصل للعارفين الموحدين والخروج من الدار المنافية لهذا اللقاء، لذا عرف العرفاء هذا اللقاء بلقاء خاص، وأن شوق الحق إلى المشتاقين إليه بنيلهم الراحة والعناية الخاصة بلقائه.

والله المتعالي الذات يشتاق إلى المؤمن العارف به في جميع حالاته، فهو يشتاق إلى صوته وإلى دعائه وإلى ذكره وإلى خلوته، روي عن العالم عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَخِّرُ إِجَابَةَ الْمُؤْمِنِ شَوْقًا إِلَى دُعَائِهِ وَيَقُولُ صَوْتًا أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ»^(٤٢)!!

ونعم ما قيل:

هر چند دعا کنی اجابت نکنم

زیرا که مراد من از آن زاری تست^(٤٣)

وكذا الإنسان الكامل الأكمل لكونه أشد المخلوقات تعلقا وعشقا بخالقه مفظورا على كمالاته وفضائله التي تليق به متصلا بمنبع الفيض والجود على الدوام قابلا لتجليات النور الإلهي بلا وسط ماثلا بين يدي الحق مستغرقا في مشاهدة حسنه وجماله ولا حجاب بينه وبين ربه بل هو الحجاب بين الخلق وربّه فلا يزيده اتصاله بالعالم الأدنى فضلا وكمالاته بل العالم الأدنى يطلبه وهو المفيض عليه من رشحاته وجوده وعطاياه، وفي الوقت الذي هو أعرف الموجودات بربه وأفقرها إلى بارئه ولا

أكمل منه في العبودية له فهو الغني بربه عن العالمين، بل ما كان خلق العالمين إلا لأجله: «لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ الْأَفْلاكَ»^(٤٤)، فسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، لذا لم يكن شوقه إلى ما دونه حاجةً منه إليه لإكمال ذاته ولا زيادة في فضيلته وكرامته بل عناية منه به.

روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «تَفْوَحُ رَوَائِحُ الْجَنَّةِ مِنْ قِبَلِ قَرْنٍ، وَاشْوَقَاهُ إِلَيْكَ يَا أَوْيسَ الْقَرْنِيَّ»^(٤٥)!!

وكذلك قوله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام في شيعة وأصحابه العارفين به: «يَا عَلِيُّ أَقْرَبُهُمْ مِنِّي السَّلَامَ مَنْ رَأَى مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَرْنِي، وَأَعْلَمُهُمْ أَنَّهُمْ إِخْوَانِي الَّذِينَ أَشْتَأَقُ إِلَيْهِمْ»^(٤٦)!!

عن عبدالله بن الوليد قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول ونحن جماعة: «والله إنني لأحبُّ رُؤْيَيْتَكُمْ وَأَشْتَأَقُ إِلَى حَدِيثِكُمْ»^(٤٧)!!

وخلاصة القول أن الحب والشوق والحنين واللقاء موجود على الدوام متبادل بين الكامل بالذات والمستكمل به المشتاق كل منهما إلى الآخر، فصار كلُّ من الخالق والمخلوق مشتاقاً من وجهه ومشتاقاً إليه من وجه آخر.

بجان مشتاق روى تست حافظ

ترا در حال مشتاقان نظر باد^(٤٨)

«يَا فَرِحَةَ لِقُلوبِ الواصِلينِ وَيَا حَيَاةَ لِنُفوسِ العارِفينِ وَيَا نِهايَةَ شوقِ المُحِبِّينِ أَنْتَ الَّذِي بِنِفايِكَ حَطَّتِ الرَّحالُ وَإِلَيْكَ قَصَدَتِ الأمالُ وَعَلَيْكَ كانَ صِدْقُ الاتِّكالِ، يَيا مَنْ تَفَرَّدَ بِالكَمالِ وتَسَرَّبَ بِالجَمالِ وتَعَزَّزَ بِالجِلالِ وجادَ بِالإِفضالِ لا تُحَرِّمنا مِنكَ النِوالِ، إلهي بِكَ لا ذَتِ القلوبُ لأنَّكَ غايَةُ كُلِّ محبوبٍ، وبِكَ اسْتَجارتَ فَرَقاً مِنَ العُيوبِ، وَأَنْتَ الَّذِي عَلِمْتَ فَحَلِمْتَ ونَظَرْتَ فَرَحِمْتَ وخَبِرْتَ فَسَتَرْتَ وغَضِبْتَ فغَفَرْتَ، فَهَلْ مُؤمِّلٌ غيرُكَ فيُرْجى!! أمْ هَلْ رَبٌّ سِوَاكَ فيُخشى!! أمْ هَلْ مَعْبودٌ سِوَاكَ فيُدعى!! أمْ هَلْ قَدَمٌ عِنْدَ الشَدائِدِ إلا وَهِيَ إِلَيْكَ تُسعى!! فَوَعزُّ عِزِّكَ يا سُرورَ الأرواحِ وَيَا مُنتهى غايَةِ الأفراحِ إنَّني لا أُمَلِكُ غيرَ ذِليِّ ومَسَكنتي لَدَيْكَ وفَقري وِصْدقُ تَوَكُّلي عَلَيبِكَ، فَأنا الهارِبُ مِنكَ إِلَيْكَ، وَأنا الطالِبُ مِنكَ ما لا يَخفى عَلَيبِكَ، فَإِنْ عَفوتَ فَبِفضْلِكَ، وَإِنْ عاقَبْتَ فَبِعَدْلِكَ، وَإِنْ مَننتَ فَبِجودِكَ، وَإِنْ تَجاوزتَ فَبِدوامِ خُلودِكَ، فَأَرَحِمنا بِرِحمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمينَ»!!

الهوامش

- (١) سورة العنكبوت: آية ٥
- (٢) شرح منازل السائرين (للعارف الكامل كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني): ص ٢٢٤، وقال عفيف الدين التلمساني في شرح منازل السائرين باب الشوق ص ٤٠٧ أن استناد الشيخ الأنصاري رحمته إلى الآية المذكورة في باب الشوق أن الشيخ يرى أن ﴿يَرْجُوا﴾ في قوله تعالى (الآية) هي بمعنى يشتاق بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير.
- (٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٣٤٢
- (٤) سورة الحديد: آية ٤
- (٥) الأسفار الأربعة: مجلد ٧ ص ١٨٥
- (٦) الترجمة:
- الأفلاك السبعة من كماله ذرة
والبحار السبعة من عطائه قطرة
البحر في ظمأ للقاءه
وحرقة الشمس من حسرة جماله
نور الشمس في جماله لمعة
وماء البحر في فراقه دمعة
بكاء المطر من الشوق إلى رؤيته
وأنين الرعد من هوى داره
- (٧) الأسفار الأربعة: مجلد ٢ ص ٢٧٨
- (٨) يقول العرفاء أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان في صورة جامعة شاملة حاصرة لصفات الموجودات كلها في نفسها من جماد ونبات وحيوان وجعله الكون الجامع لجميع حقائق الوجود ومعانيه ومراتبه وهو العالم الأصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر والمختصر الشريف الذي تمثلت فيه كمالات الحضرة الإلهية الأسماوية والصفاتية في أعظم صورها، قال مولانا أمير المؤمنين رحمته:
- أَتَزَعَمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ
وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
- (٩) الترجمة:
- لقد أجزل الغير موعده وصلك إلى الغد
وأملني أن لا يتصل يومي هذا (يوم الوصال) بغد
- (١٠) السَّلْو: الابتعاد والهجران

(١١) سورة العنكبوت: آية ٦٩

(١٢) الترجمة:

إن كان نظرك لمحبيك لإحسانه إليك
فأنت عبد نفسك لا عبد محبوبك
وهذا خلاف الطريقة والسلوك
بأن يتمنى الأولياء من الله سوى الله

(١٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٧٣

(١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ باب ١٨٦ ص ١٣٢

(١٦) مصباح الشريعة: باب ٩٨ ص ٦٥ ومنه بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٤

(١٧) منازل السائرين: باب الشوق

(١٨) وقيل أن البيتين كما يلي:

وَمَنْ عَجَبٍ أَنِّي أَجِنُّ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وترصدهم عيني وهم في سوادها
ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

(١٩) سورة العنكبوت: آية ٥

(٢٠) الترجمة:

إلهي لا يراك إلا من في الأزل رآك

ولم يرك إلا الذي أفنى الكونين

ويراك الذي رجحك على من سواك من قبل أن يراك!!

(٢١) الكافي: ج ٨ ص ١٣٥، تحف العقول: ص ٤٩٧

(٢٢) علل الشرائع: طبع دار إحياء التراث العربي ط ٢ ص ٥٧ ويقول الشيخ الصدوق عليه السلام: والله أعلم يعني بذلكلا أزال أبكي أو أراك قد قبلتني حبيبا، ومنه بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٨٠، ويقول العلامة المجلسي عليه السلام:

أي إلى أن يحصل لي غاية العرفان والإيقان المعبر عنها بالرؤية وهي رؤية القلب لا البصر والحاصل طلب
كمال المعرفة بحسب الاستعداد والقابلية والوسع والطاقة.

(٢٣) سورة يونس: آية ١١

(٢٤) سورة يونس: آية ٧ - آية ٨

(٢٥) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: مجلد ١ ص ١٨٨ - ص ١٨٩، ومنه بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٣٣

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٤٨

- (٢٧) روضة الواعظين: ص ٣٠٧ ط ١٩٨٦، ومنه بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤١
- (٢٨) روضة الواعظين: ص ٣٠٩ ط ١٩٨٦، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣٤١
- (٢٩) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ٥٣
- (٣٠) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٦
- (٣١) سورة الأنبياء: آية ٩٧
- (٣٢) الترجمة:
- أخرج قطننة الغفلة من أذنك
حتى تجد نغمات كالشراب
- (٣٣) الترجمة:
- أن تنام عيناى عن خيالك!! هيهات
أو أن يصبر قلبي على فراقك!! حاشاك
- (٣٤) وجاء في تذكرة المتقين: ص ١٢٣، ص ١٣٤ بهذه العبارة: «لَوْ عَلِمَ الْمُذْبِرُونَ كَيْفَ اشْتِيَاقِي بِهِمْ لَمَاتُوا شَوْقًا».
- (٣٥) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١٨٩، مستدرک الوسائل: ج ٥ باب ٧ ص ٢٩٧، سنن ابن ماجة: ج ٢ كتاب الأدب ص ١٢٥٥
- (٣٦) أبيات للشاعر العارف حافظ الشيرازي، وترجمتها:
من طلوع صبح الأزل إلى آخر ساعات ليل الأبد
كانت ولا تزال كل محبة على أساس عهد وميثاق
فإذا يحصل لو وقع ظل المعشوق على العاشق
نحن محتاجون إليه وهو إلينا مشتاق!!
- (٣٧) قال تعالى: «كُنْتُ كَنزاً مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْرَفَ فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِكَيْ أَعْرَفَ» - كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤
- (٣٨) شرح الإشارات: ج ٣ ص ٣٦١
- (٣٩) بحار الأنوار: ج ٨١ ص ٢٦٧، نهاية ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٦٦
- (٤٠) سورة الحديد: آية ٤
- (٤١) سورة الأعراف: آية ٥١
- (٤٢) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٢٩٦
- (٤٣) الترجمة:
- مهما تدعني لن أستجيب لك
لأن مرادي من ذلك سماع أنينك فحسب

- (٤٤) المناقب: ج ١ ص ٢١٧، مفاتيح الغيب (لصدر الدين الشيرازي): ص ١٤
- (٤٥) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٥٥
- (٤٦) -بحار الأنوار: ج ٣٩ ص ٣٠٨
- (٤٧) محاسن البرقي: باب ٣١ ص ١٦٣ ح ١١٤
- (٤٨) الترجمة:

إن «حافظ» مشتاق بروحه إلى جمال وجهك

فانظر بنظرة إلى حال المشتاقين

المنزل (٣٥)

مَراحِلُ الشَّوْقِ عِنْدَ المَحَبِّ

بعد بيان معاني الشوق وجهاته والفرق بين شوق العوام وشوق العارفين، نبين في هذا المنزل صور الشوق ودواعيه ثم المراحل التي يطويها السالك المشتاق حتى الوصول إلى الله تبارك وتعالى. يقول العرفاء أن الشوق على صورتين:

إما أن يكون الشوق إلى ما بقي من إدراك كمال مطلوب لم يظهر كُله أو إلى ظهور كمالات أخرى لم تظهر بعد إلى جانب ما ظهر منها قبلاً!! وفي كلتا صورتين يحتاج السالك إلى النور لإظهار كمال أو بعض كمال، وسنشير إلى تفصيل ذلك في طي البحث لاحقاً. فالسالك المشتاق قد يدرك في طريقه الموصول إلى محبوبه جزءاً من كمال الحق فيلتذ به، ولكنه لا يتوقف عند هذا الحد، بل يشتاق إلى ظهور تمام كماله وإدراكه حتى يلتذ بتمام ظهور الكمال ويسعد به غاية اللذة والسعادة.

وبعد إدراك السالك كمالاً من كمالات المحبوب والاستغراق والفناء فيه والتلذذ بها حباه به المحبوب من لطائفه ومنحه من أسراره ووهبه من عطايه وهو يعلم أن لمحبوبه كمالات أخرى لا متناهية وبحكم الشوق الإلهي الأشد والتقريب الإلهي المضاعف المنزه عن التجسيم والمشار إليه في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»^(١) يشتاق السالك إلى إدراك مزيد من الكمالات التي لم يصل إليها بعد، ومع سيره في كمالات المحبوب وزيادة القرب والاتصال والمشاهدة وفي ظل نور سيادة حضرة الحق تبارك وتعالى يكمل هو من حيث عبوديته أكثر فأكثر، ويعلم أسرار الوجود وآيات الحق في كل مرتبة من مراتب عالم الملك والملكوت والغيب والشهود شيئاً فشيئاً، ويرقى على مدارج الكمال، حتى يستوفي سيره الكمال ويتنظم في سلك

العارفين الكُمَّلين ويلتذ بكَماله الذي لا تشبهه لذة ولا تقارنه بهجة ولا تبلغه سعادة. وأما مراحل الشوق فهي أربعة كما بيَّنها المحقق نصير الدين الطوسي (قده) ^(٢) في بعض رسائله وقال:

- ١- الشَّوْقُ إِدْرَاكُ لَذَّةِ الْمَحَبَّةِ اللَّازِمَةِ لِفَرْطِ الْإِرَادَةِ الْمُتَزَجَّةِ بِأَلَمِ الْمَفَارَقَةِ،
- ٢- وَهُوَ فِي حَالِ السُّلُوكِ بَعْدَ اشْتِدَادِ الْإِرَادَةِ يَكُونُ ضَرُورِيًّا وَرُبَّمَا كَانَ حَاصِلًا قَبْلَ السُّلُوكِ وَذَلِكَ إِذَا حَصَلَ الشُّعُورُ بِكَمَالِ الْمَطْلُوبِ وَكَمْ تَنْضَمَّ إِلَيْهِ الْقُدْرَةُ عَلَى السَّيْرِ وَقَلَّ الصَّبْرُ عَلَى الْمَفَارَقَةِ،
- ٣- وَكُلَّمَا تَرَقَّى السَّالِكُ فِي سُلُوكِهِ كَثُرَ الشَّوْقُ وَقَلَّ الصَّبْرُ،
- ٤- حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمَطْلُوبِ فَتَخْلَصَ حِينَئِذٍ لَذَّةً نَيْلِ الْكَمَالِ مِنَ الْأَلَمِ وَيَنْتَفِي الشَّوْقُ ^(٣).

فأولى مراحل الشوق ومبدؤه هو إدراك لذة المحبة والعشق في اتصال المريد بالمراد عند اشتداد الميل والإرادة، وهذه اللذة فيها ضربٌ ألم من المفارقة وطلب المشتاق المتمني إلى لقاء المحبوب، وتشتد ضرورة الشوق وملازمته له في حال السلوك مع اشتداد الإرادة، وضرورة الشوق قد تكون سابقة على السلوك عند إدراك كمال المطلوب وعدم انضمام القدرة اللازمة على الحركة والسير واشتداد ألم المفارقة وعدم الصبر عليها، ثم ترتفع مراتب الشوق ويضطرب الصبر عن فقدان والمفارقة مع الترقّي في مدارج السلوك شيئاً فشيئاً إلى أن يصل السالك إلى مطلوبه، فتصفو لذة الوصول إلى نيل الكمال من شائبة ألم المفارقة، وينتفي الشوق، ولا يشعر بشيء سوى لقاء المحبوب ولذة وصاله. وقد يكون معنى انتفاء الشوق أن السالك بعد الوصول إلى المحبوب يتخلص من الإنية والإثنية فينتفي الشوق من البين، ونقول أن هذه المراحل خاصة بالمريد المشتاق إلى المحبوب الغائب عنه الذي يسكن عند الوصال بعد الحركة ويزول شوقه بتحصيل اللقاء، وأما العارف الواصل الخاص فمحبوبه على الحقيقة حاضر وحركته الشوقية إليه لا تتوقف مع وجود اللقاء بل تتزايد طلباً لدوام الوصال والمشاهدة واللقاء.

وبيانا للمطلب وتوضيحا المقام نشير إشارة لطيفة إلى بعض المفردات كالإرادة والنية: يقول العلماء في معنى الإرادة: أن حدوث الإرادة قبل حدوث الفعل هو تصور الفعل واعتقاد النفع فيه ثم الروية ثم الهمة ثم انبعاث الشوق من القوة الشوقية ثم تأكده واشتداده إلى حيثية يحصل فيه الإجماع الباعث على الفعل وذلك كله إرادة ^(٤)!! فالإرادة قوة متوسطة بين القوة الشوقية والقوة الفاعلة، ويمكن القول أن الإرادة هي

الشوق المؤكد أو النية أو العزم.

يقول المحقق العظيم والمحدث الكبير المولى محسن الكاشاني (قده) في أمر النية:

«لَا تَحْصُلُ النِّيَّةُ الْكَامِلَةُ الْمُعْتَدُّ بِهَا فِي الْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا إِذَا أُرِيدَتْ بِهَا الْقُرْبَةُ مِنْ دُونَ ذَلِكَ الْمَيْلِ وَالْإِقْبَالِ، وَقَمَعَ مَا يُضَادُّهُ مِنَ الصَّوَارِفِ وَالْأَشْغَالِ، وَهُوَ لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا بِصَرْفِ الْقَلْبِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَتَطْهِيرِ النَّفْسِ عَنِ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ الدَّنِيَّةِ، وَقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَتَوْجِيهِ الْقَلْبِ إِلَى الْمَوْلَى دُونَ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ بِالنِّيَّةِ، وَذَلِكَ مَيْلٌ لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا لِمَنْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْعِرْفَانِ وَالْيَقِينِ، وَهَدَاهُ صِرَاطَ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ»^(٥).

ويقول الشيخ البهائي^(٦) (قده): «أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ انْبِعَاثَ الْقَلْبِ نَحْوَ الطَّاعَةِ غَيْرُ مَلْحُوظٍ فِيهِ شَيْءٌ سِوَى وَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

ومن شرائط العمل لله تبارك وتعالى النية الخالصة عن أغراض النفس وكدورات العوارض.

روى الشيخ الصدوق^(٧) بإسناده عن أبي عبد الله^(٨) أنه قال له زيد الشحام: إني سمعتك تقول نية المؤمن خير من عمله فكيف تكون النية خيرا من العمل؟! فقال^(٩): «لأنَّ الْعَمَلَ إِنَّمَا كَانَ رِئَاءَ الْمَخْلُوقِينَ وَالنِّيَّةَ خَالِصَةً لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَيُعْطِي عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النِّيَّةِ مَا لَمْ يُعْطِيَ عَلَى الْعَمَلِ!!»

فالنية من أعمال القلب وهو أفضل من الجوارح بل الغالب والحاكم عليها، فعمله خير من أعمالها بل الأمر والقائد لها، وقيل أن النية روح العمل، فخيرية العمل من خيرية النية وشرية العمل من شرية النية، لذا كان كمال الأعمال وقبولها وفضلها وفضيلتها راجعة إلى حسن النية وخلوصها وصفائها وصدقها، إلى جانب أن شرافة العمل من شرافة العامل له وما ينطوي عليه القلب من حبه والشوق إليه، فمن استولى على قلبه حب الله تبارك وتعالى وكان عمله على جهة القربة المحضة إلى سيده ومولاه ومقصوده الحقيقي موافقة رضاه كان عمله خيرا للأعمال وأفضلها، وأما من استولى على قلبه حب ما سوى الله من مال أو جاه أو رياسة أو غيرها من حظوظ النفس ومطالب الدنيا المبعدة عن الحق سبحانه كان عمله أقبح الأعمال وأبشعها.

عن رسول الله^(١٠) أنه قال: «مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ صَالِحٌ تَحَنَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١١)، فإذا صلح قلب

العبد وسلم من الآفات والعاهات كان من الذين يشفق إليهم ربهم اشتياق ترحم وتكرم وعناية.

قال علي^(١٢): «قُلُوبُ الْعِبَادِ الطَّاهِرَةِ مَوَاضِعُ نَظَرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ

نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ»، ونظر الله إلى العباد وعنايته بهم هو عين محبته لهم وإفاضته عليهم وشوقه إليهم.

يقول صاحب «رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين» السيد علي خان المدني الشيرازي (قده)^(٨) في شرح هذه العبارة من الصحيفة: «وَأَمْنُنْ عَلَيَّ بِشَوْقِ إِلَيْكَ وَبِالْعَمَلِ لَكَ بِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى»:

«وقد يُسَمَّى أَرْبَابُ الطَّرِيقَةِ مُشَاهِدَةَ الْمَحْبُوبِ شَوْقًا بِاعتبار أنَّ الْمُشَاهِدَ طَالِبٌ لمرتبة الاتِّحَادِ وهو لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا بَعْدُ، وَأَتْبَعَ ﷺ طَلَبَ الشَّوْقِ بِطَلَبِ الْعَمَلِ لِأَنَّ الْعَمَلَ مِنْ لَوَائِمِ الشَّوْقِ الصَّادِقِ، فَإِنَّ مِنْ صِدْقِ شَوْقِهِ إِلَى مَحْبُوبٍ أَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي الْأَعْمَالِ الْمُوصَلَةِ إِلَيْهِ، وَبَالَغَ فِيهَا مَحَبَّةً وَيَرْضَاهُ، وَيَكُونُ عَمَلُهُ لَهُ بِمَقْدَارِ قُوَّةِ شَوْقِهِ إِلَيْهِ، فَسَأَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعَمَلَ لَهُ تَعَالَى مِمَّا يَحِبُّ وَيَرْضَى لِيَتِمَّ صِدْقُ شَوْقِهِ إِلَيْهِ وَيَصِلَ إِلَى لَذَّةِ الْوَصْلِ الْخَالِصَةِ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ»^(٩).

وفيما أوحى الله تعالى إلى نبيه داود ﷺ: «مَنْ اشْتَقَّ إِلَى حَبِيبٍ جَدَّ فِي السَّيْرِ إِلَيْهِ يَا دَاوُدَ ذَكَرِي فِي الْذَّاكِرِينَ وَجَنَّتِي لِلْمُطِيعِينَ وَزِيَارَتِي لِلْمُشْتَاكِرِينَ»^(١٠)!!

فطي المراحل المتتالية للتوجه الشوقي إلى الحق تعالى مسبب لغلبة القوة المملكية القدسية على القوة الحسية والشهوية ومن ثم القوة الوهمية والمتخيلة، وإذا رسخ في النفس وبلغ إلى حد الملكة فإنه يبعث إلى الإعراض عن كل ما يشغل عن الحق بقطع العلائق ومحو العوائق وملازمة الجد في العمل، ويكون منشأً للخوف والرجاء من الباري عزَّ وجلَّ ومخالفة الهوى والسُّلُو عن لذات الدنيا وسبيلاً إلى معرفة الله تعالى ومعرفة الحقائق اليقينية والإفاضات الكشفية والودائع الحقيية، ومن عرف الله تعالى وأحبه واشتاق إلى مشاهدته جماله ولذته وصاله وأخلص في عبادته وطاعته وأنس بخلوته وذكره أحبه الله تعالى وقربه إليه في مجلس قربه وكان له عند الله تعالى لزلفى وحسن مآب!!

واعلم أيها السالك إلى الله أن ظهور نور الكمالات والتجليات الإلهية على القلب متفاوت قوة وضعفاً بحسب القرب من المبدأ الفياض أو البعد عنه، وبحسب ما يتوسط بينهما من قلة الوسائط وكثرتها، وجلاء مرآة القلب وكدرها، فالبعض تظهر له أنوار جميع الكمالات والبعض الآخر دون ذلك، ولاستقبال هذه الأنوار وانعكاسها على القلب لا بد من صقل مرآة القلب وجلائته وتصفيته من كدورات المعاصي وشوائب التعلقات والمرادات وتزيينه بحسنات الصفات والنسك والطاعات والرياضات المعنوية والمجاهدات.

واحذر أيها السالك إلى الله من خطر الرذائل الأخلاقية والهواجس النفسانية أن تطفئ أنوار المحبة والعشق والشوق في قلبك، أو أن تطرد الوفاء والصفاء والصدق واليقين وأي معنى من المعاني السامية والحقائق النيرة منه، فإنَّ أبعد القلوب عن الله تعالى هو القلب المظلم.

وقد ذكرنا في مفتح بحثنا أن طي مراحل الشوق إلى الكمال المطلق لا يكون إلا بالنور المسبب للكشف والظهور، فكما أن نور بصر عين الظاهر لإدراك المبصرات والمحسوسات فإن نور بصيرة عين القلب لإدراك المجردات والتجليات.

وحب الجمال أمر فطري مُودَع في جِبَلَّة كل إنسان، إلا أن شعلة نور الجمال الأزلي لا يتوقّد في القلب إلا برفع الحجب والموانع عنه، ومع رفعها شيئاً فشيئاً يتجلى ذلك النور أكثر فأكثر فينير المسلك إلى مبدأ البهاء والجمال، ومن ثم يفيض عليه الله تعالى من أنواره وأطافه ما يشاء.

گر نور عشق حق به دل وجانت اوفتد

بالله كز آفتاب فلك خوبتر شوی

يكدم غرق بحر خدا شو گمان مبر

كز آب هفت بحر به يك موی تر شوی

از پای تا سرت همه نور خدا شود

در راه ذو الجلال چو بی پا وبی سر شوی^(١١)

وفيما أوحى الله تعالى إلى نبيه داود^{عليه السلام}: «يا داود إنني خلقت قلوب المشتاقين من نُوري!! فإذا وجدت قلبك مشتاقاً حق الاشتياق إلى الله تعالى فهذا دليل على أنه مخلوق من نور الله.

نقل عن المرحوم السيد أحمد الكربلائي^{رحمته الله} أنه قال: كنت ذات يوم أستريح في مكان ما فأيقظني شخص وقال: إذا أردت أن تشاهد النور فقم من مكانك، وعندما فتحت عيني رأيت نورا ليس له حد أو حدود يحيط بمشرق العالم ومغربه.

والواجب الوجود سبحانه هو نور الأنوار ومفيض الأنوار والأسرار، غير متناهي الشدة في نوريته الحقيقية، لم تدركه الأبصار لشدة ظهوره وهو يدرك الأبصار، ولم تُحِطْ به العقول والأفهام لسعة شموله وهو اللطيف الخبير، قال مولى الموحدين أمير المؤمنين^{عليه السلام} عن ربه: «نورٌ يَشْرُقُ مِنْ صُبْحِ الْأَزْلِ»، والنور اسم من أسماء الله تعالى، بل - وكما قال سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي^{رحمته الله} في إحدى جلساته الخاصة - أن «النور» اسم سري من أسماء الله تبارك وتعالى، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بشدة ظهوره.

ثم كل جمال وكمال في الوجود بمراتبه إنما هو رشحٌ من مطلق الجمال والكمال الأزلي، وكل صورة وحقيقة ومجلى لمعة من شعاع شمس العظمة والوجود الحقيقي، وما من ذرة في ملكوت السموات والأرض وعوالم العقول والأجسام إلا ونافذ فيها نور رحمته ومحاطة بقيوميته ومقهورة تحت

سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١٢)!!

بؤد نا محرمان را چشم ودل كور
وگر نه هيچ ذره نيست بي نور
بخوان تو آيه نور السماوات
كه چون خورشيد يابى جمله ذرات^(١٣)

ولما كان الحق سبحانه نوراً شديداً الإشراق قوي الظهور استحال على العقول إدراكه فضلاً عن الأبصار، ولولا انعكاس أنواره على المظاهر لم يكن سبيل للوصول إليه.

قال رسول الله ﷺ في حق ربه: «حِجَابُهُ النُّورُ»^(١٤)!!

فالحق جلُّ شأنه محتجب بأنوار عزه وجلاله وكبريائه، ولو كشف ذلك الحجاب فتجلى لخلقته ما وراءه من حقائق الصفات وعظمة الذات وسُبُحات الوجه لم يبق مخلوق إلا احترق.

ولهذا لا يكون إدراك النور المطلق إلا بنور ولا يقع الكشف والظهور إلا بنور، فخلق الله في العالمين نوراً غايةً في الكمال يدل عليه ويهدي إلى سبيله ويسلك إلى رؤيته ولقائه، وكان ذلك النور المبدع من نور عظمة المعبود والجوهرة الشريفة في خزائن الرحمة والجلود والدررة البيضاء في صدف عالم الوجود حبيب الإله مُحَمَّدٌ ﷺ!!

عن بُرَيْدٍ قال سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: «مُحَمَّدٌ ﷺ حِجَابُ اللَّهِ»^(١٥).

قال الحق سبحانه في حديث قدسي مخاطباً نبيه ﷺ: «إِنَّكَ نُورِي فِي عِبَادِي»^(١٦).

فكان أشد المظاهر نوريةً، وأكمل مجالي الحق ضياءً، وأشد الخلق قرباً إلى منبع النور الوضاء، ولولا نوره لم تثبت رؤية الحق سبحانه!!

ولنعرج في هذا المقام إلى طُرف من أقوال الأكابر والعظماء في بيان تجليات النور الإلهي عبر النور المحمدي عليه صلوات الله وسلامه الأبدي:

يقول العالم الرباني الفيض الكاشاني (قده) في تفسير «الصافي»:

«وَمَحَبَّةُ الرَّسُولِ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَتَابَعَتِهِ وَسُلُوكِ سَبِيلِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَخُلُقًا
وَحَالًا وَسِيرَةً وَعَقِيدَةً، وَلَا يَتَمَشَّى دَعْوَةَ مَحَبَّةِ اللَّهِ إِلَّا بِهَذَا فَإِنَّهُ قُطْبُ الْمَحَبَّةِ
وَمَظْهَرُهَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ مَتَابَعَتِهِ نَصِيبٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ
نَصِيبٌ، وَمَنْ تَابَعَهُ حَقَّ الْمَتَابَعَةَ نَاسَبَ بَاطِنُهُ وَسِرُّهُ وَقَلْبُهُ وَنَفْسُهُ بَاطِنَ الرَّسُولِ
وَسِرَّهُ وَقَلْبَهُ وَنَفْسَهُ وَهُوَ مَظْهَرُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَلَزِمَ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةَ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا التَّابِعِ قِسْطٌ مِنْ
مَحَبَّةِ اللَّهِ بِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنَ الْمَتَابَعَةِ، فَيُلْقِي اللَّهُ مَحَبَّتَهُ عَلَيْهِ، وَيُسْرِي مِنْ بَاطِنِ الرَّسُولِ

نور تلك المحبة إليه، فيكون محبوباً لله محبباً له، ومن لم يتابعه خالف باطنه باطن الرسول، فبعد عن وصف المحبوبة، وزوال المحبة عن قلبه أسرع ما يكون، إذ لو لم يحببه الله لم يكن محبباً له»^(١٧)!!

ويقول صدر المتألهين الشيرازي (قده) في تفسيره لآية النور:

«ثم لما كان أول من قرع باب الاستنارة بنور الله وأول من نطق بلا إله إلا الله هو العبد الأعلى والعقل الأول والممكن الأشرف والحقيقة المحمدية، فهو مضباح نور الله وتوسطه يقبل الاستضاءة والاستنارة جميع الماهيات الواقعة في فضاء قابلية الوجود، والهويات الساكنة في هواء بيوت أهل المحبة والعبودية لمبتدع الوجود، الفاضل لنور الخير والجود، فذات النبي صلى الله عليه وآله كالمرآة المصقولة التي يجاذي بها وجه النير الأعظم، وتوازي شطر الحق، فتجلى له وجه ربك ذو الجلال والإكرام، فكل من صحت نسبته إليه من فقراء أمته سابقاً ولاحقاً انعكس نور الحق منه صلى الله عليه وآله إليه».

ثم يقول (قده):

«واعلم أن الغرض الأصلي من العبادات والرياضات هو تصفية وجه الذات والمحاذاة بالقلوب الصافية شطر نور الحق الأحدي خلف زجاجة محمد صلى الله عليه وآله يشاهد نور الله ويقع عليه ضوء معرفة الله».

وأما العترة الطاهرة فهم أهل بيت النبوة الذين هم هو إلا النبوة، وقد قال رسول الله ﷺ: «خُلِقْتُ مِنْ نُورِ اللَّهِ وَخُلِقَ أَهْلُ بَيْتِي مِنْ نُورِي»^(١٨)، وقال ﷺ: «خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»^(١٩)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَا مِنْ أَحْمَدِ كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ»^(٢٠)، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «يَفْصَلُ نُورُنَا مِنْ نُورِ رَبِّنَا كَشُعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ»^(٢١)!! وأقول: «أشهد أن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه مخدقين»^(٢٢)!!

وأما نور الولاية والإمامة المشرقة في عصرنا هذا هو نور وصي الأوصياء وحامل موارث الأنبياء المستتر عن الخلائق والمؤمل لإظهار الحقائق ولي الله الأعظم صاحب العصر والزمان مولانا الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهّل مخرجه وقرب زمانه وأسعد نواظر شيعته برؤيته وسرّ قلوب مواليه بظهوره.

وعلى هذا فإن النفس حينما تعشق المحبوب المجازي الذي هو من وجه محبوب حقيقي وأكمل

مظاهر نور الله - ونعني بذلك مَنْ أمر الله تعالى بحبهم وموالاتهم وطاعتهم وجعلها سبيلا إلى حبه وموالاته وطاعته - فهي في الحقيقة تعشق المحبوب على الحقيقة والكامل على الإطلاق، وتشتاق إلى لقاءه والتقرب إليه، وفناء الوجود في الذوات المقدسة الفانية في الله والباقية بالله هو تحصيل ملكة الانفصال عن النفس والوجود الفاني والاتصال بالحق الباقي سبحانه.

وعلى هذا وفي السير إلى الله تبارك وتعالى لا بد من التوسل بوسائط الفيض والأنوار الطاهرة المطهّرة وذلك لسلامة الحركة الشوقية واستقامتها وضمان الوصول إلى الحق سبحانه.

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان ينطق بكلمات من نور ويقول (بما معناه) أن المحب الله إذا تجلّى له برق من نور جمال الحق تبارك وتعالى عبر أنوار جمال المصطفى وآله صلوات الله تعالى عليهم أجمعين وأصاب ذلك البرق قلبه المستنير فيدرك النور المتجلي بنور قلبه ويفنى عن ذاته ووجوده ولا يرى لنفسه ولا يده ولا رجليه وجودا ولا اعتبارا بل يكون فانيا بكله في الله عزّ وجلّ، ويتمنى مزيد أنوار التجلي ويشتاق إلى دوام اللقاء، ويقول وهو ينطق بلسان قلبه المنور بنور الحق: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ جَمَالِكَ بِأَجْمَلِهِ وَكُلِّ جَمَالِكَ جَمِيلٌ»^(٢٥)!!

وهل الجمال إلا النور!! وهل النور إلا الجمال!!

ولما كان النور المتجلي على القلب هو نور الحق الأبدي فإنه مستمر الفيض دائم البقاء إلى يوم الحشر.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿... نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢٦).

يقول الجنابذي في تفسيره ﴿أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا وَأَغْفِرْ لَنَا﴾:

«فإنهم بظهور هذا النور والصورة المملوكة من أممهم تشتدّ لوعتهم وتزداد حرقتهم وتزيد طلبتهم فيطلبون ازدياد الظهور واشتداد هذا النور بحيث لا يبقى لهم ذات وأثر، فإن مثلكم في تلك الحال مثل الفراش والسراج لا يسكنون ما كان لهم ذات وحركة، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ الحدود والنواقص المملوكة بنا المانعة لنا من كمال إدراك هذا النور»^(٢٧)!!

ويقول مير سيد علي الحائري الطهراني رحمته الله في تفسيره:

«إن الأنوار كثيرة، نور الصفات ونور الأفعال ونور العبادات مثل الصلاة والوضوء كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والصلاة نور، والسّر فيه أن المصلي يناجي ربه ويتوجه إليه، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم إن العبد إذا قام يصلي

فإنَّ اللهَ يَنْصِبُ لَهُ وَجْهَهُ لِلْقَائِدِ، وَاللهُ نُورُ النُّورِ، فَالذَّاتُ الْمُظْلِمَةُ إِذَا وَاجَهَتْ
الذَّاتَ الْمُنِيرَةَ وَقَابَلَتْهَا بِمُحَاذَاةٍ صَحِيحَةٍ فَإِنَّهَا تَكْتَسِبُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَمَرَ الَّذِي
هُوَ فِي ذَاتِهِ جِسْمٌ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ كَمَا كَثِيفٌ كَيْفَ يَكْتَسِبُ النُّورَ بِالْمُقَابَلَةِ، وَكَيْفَ يَتَفَاوَتْ
نُورُهُ بِحَسَبِ التَّفَاوُتِ الْحَاصِلِ فِي الْمُحَاذَاةِ وَالْمُقَابَلَةِ، فَإِذَا تَمَّتِ الْمُقَابَلَةُ كَمَلَّ اكْتِسَابُ
النُّورِ» (٢٨)!!

إلهنا!! إن كنا من الذين تشملهم بعناياتك ورحماتك الخاصة يوم القيامة ومن الذين يسعى نورهم
بين أيديهم ونقول: ﴿أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾، فذلك من باب ضيق الخناق، لأنك أنت نور السماوات
والأرض ونحن الفقراء إليك.

إلهنا!! هذا النور الذي اكتسبته قلوبنا وحملناه زادا معنا إلى هذا اليوم هو من نورك الذي أضاء له
السماوات والأرض، فأتممه لنا تفضلاً منك ورحمة إنك على كل شيء قدير.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحُسَيْنَ مِصْبَاحَ الْهُدَى».

أيها المشتاق إلى الله، النور لا يُدْرِكُ إِلَّا بِالنُّورِ، والهداية إلى النور لا يكون إلا بالنور، ولا يمكنك أن
تتقرب إلى الله تعالى بالهداية إلا بنور مصباح الهدى!!
وفي الختام نتوجه بقلوبنا إلى الله تعالى ونقول:

«إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ تَوَشَّحَتْ أَشْجَارُ الشُّوقِ إِلَيْكَ فِي حَدَائِقِ صُدُورِهِمْ
وَأَخَذَتْ لَوْعَةً مَحَبَّتِكَ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الْأَفْكَارِ يَأْوُونَ وَفِي رِيَاضِ
الْقُرْبِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ وَمِنْ حِيَاضِ الْمَحَبَّةِ بِكَأْسِ الْمَلَاظَفَةِ يَكْرَعُونَ» (٢٩)

أمين رب العالمين!!

فهرس المحتويات

٢١ الترجمة
٢١ نسبه
٢٢ ولادته ودراساته وأساتذته
٢٣ مراتبه العلمية
٢٣ هجرته إلى الكويت
٢٤ نشاطاته المختلفة في مسجد جامع الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small>
٢٥ سائر نشاطاته خارج مسجد جامع الإمام زين العابدين <small>عليه السلام</small>
٢٥ مؤلفاته
٢٩ مؤلفات تحت الإشراف والتحقيق والطبع
٣١ المقدمة

منازل العرفان

٣٧

٣٩ المنزل (٢١): مَعْرِفَةُ الشَّانِ عِنْدَ الْمُحِبِّ
٤٩ المنزل (٢٢): مَعْرِفَةُ دَارِ الْمُقَرَّرِ عِنْدَ الْمُحِبِّ

- ٥٢ الطائفة الأولى
- ٥٣ الطائفة الثانية
- ٦٣ المنزل (٢٣): مَعْرِفَةُ الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ
- ٦٤ الجانب الأول: حب الحق للخلق
- ٦٦ الجانب الثاني: حب الخلق للحق
- ٧٩ المنزل (٢٤): دَرَجَاتُ الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ
- ٧٩ الدرجة الأولى
- ٧٩ الدرجة الثانية
- ٨٠ الدرجة الثالثة
- ٨٩ المنزل (٢٥): فَتَاءُ الْمُحِبِّ
- ١٠١ المنزل (٢٦): الْفَتَاءُ الْاِخْتِيَارِيُّ عِنْدَ الْمُحِبِّ
- ١٠٧ المنزل (٢٧): مَبَادِي الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ
- ١٠٨ المبدأ الأول: الطاعة الدائمة
- ١١١ المبدأ الثاني: الصمت الدائم
- ١١٣ المبدأ الثالث: التسليم الدائم
- ١٢١ المنزل (٢٨): آثَارُ الْحُبِّ عِنْدَ الْمُحِبِّ
- ١٢١ الأثر الأول: طلب اللقاء وعدم كراهة الموت
- ١٢٢ الأثر الثاني: إثارة رضا الله وإرادته على رضا النفس وإرادتها
- ١٢٣ الأثر الثالث: الحضور وعدم الغفلة
- ١٢٤ الأثر الرابع: المشاركة في مجالس ذكر الله والاجتناب عن مجالس معصية الله
- ١٢٥ الأثر الخامس: حب الخلوة مع الله
- ١٢٦ الأثر السادس: عدم الحزن على فقد شيء أو الفرح لحصول شيء
- ١٢٦ الأثر السابع: الرجاء والخوف
- الأثر الثامن: الشفقة والرأفة على عباد الله والرحمة والتذلل لأولياء الله والتعزز
- ١٢٧ والشدة على أعداء الله
- ١٢٨ الأثر التاسع: كتمان حبه لله
- ١٣٥ المنزل (٢٩): الدِّفَاعُ عَنِ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ الْمُحِبِّ

- الطريق الأول: الدعوة إلى الحق ومخالفة أعدائه ١٣٩
- الطريق الثاني: الجهاد في سبيل الحق ومحاربة أعدائه ١٤٠
- المنزل (٣٠): المراقبة عند المحب ١٤٧
- المرتبة الأولى: مراقبة العبد للحق ١٤٩
- المرتبة الثانية: مراقبة مراقبة الحق ١٥١
- المرتبة الثالثة: ترك المراقبة ١٥٣
- المنزل (٣١): الوفاء عند المحب ١٦١
- المعنى الأول: العمل بالعهد والميثاق (العهد التكويني) ١٦٣
- المعنى الثاني: الوقوف على الأمر الإلهي والعمل به (العهد التشريعي) ١٦٦
- المعنى الثالث: حفظ السر وكتمانه (العهد القلبي) ١٦٧
- المعنى الرابع: الوفاء شرط المحبة والاشتياق ١٧٠
- المنزل (٣٢): الجفاء عند المحب ١٨٣
- المنزل (٣٣): خلود المحب ١٩٧
- المنزل (٣٤): شوق المحب ٢٠٩
- المنزل (٣٥): مراحل الشوق عند المحب ٢٢٧

فهرس المحتويات

مؤلفات السيد الديباجي الإلكترونية

- ١ - سياء الأولياء وكراماتهم (ج ٢)
- ٢ - حقوق الإنسان في الإسلام
- ٣ - حقوق المرأة في الإسلام
- ٤ - السيدة خديجة عليها السلام: مقاومة، إيثار، أسطورة
- ٥ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج ١)
- ٦ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج ٢)
- ٧ - القصص القرآنية (ج ١)
- ٨ - القصص القرآنية (ج ٢)
- ٩ - القصص القرآنية (ج ٣)
- ١٠ - القصص القرآنية (ج ٤)
- ١١ - القصص القرآنية (ج ٥)
- ١٢ - التوحيد، دراسة معاصرة، الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين
- ١٣ - النبوة، دراسة معاصرة، الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين
- ١٤ - العدل، دراسة معاصرة، الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين
- ١٥ - الإمامة، دراسة معاصرة، الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين
- ١٦ - المعاد يوم القيامة، دراسة معاصرة، الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين
- ١٧ - منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام (ج ١)
- ١٨ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام (ج ٢)
- ١٩ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام (ج ٣)
- ٢٠ - الفتنة العظمى، سلسلة دراسات تاريخية
- ٢١ - مظاهر الفرق بين المسلمين وعلاجها
- ٢٢ - الإمام المهدي عليه السلام: الحقيقة المنتظرة
- ٢٣ - حوار حول الإمام المهدي (عج)
- ٢٤ - العباس بن علي عليهما السلام بطل النهضة الحسينية
- ٢٥ - زينب الكبرى عليها السلام: بطلة الحرية
- ٢٦ - الحج: أحكاماً وفلسفة ودعاء
- ٢٧ - أجوبتنا على مسائلكم الدينية
- ٢٨ - رسالة عقائدية (ردّ على كتاب الشيعة والتصحيح للدكتور الموسوي)
- ٢٩ - الروضة المنتخبة
- ٣٠ - أجود المناظرات (تحت إشراف المؤلف)
- ٣١ - القصص الهادفة من سيرة المعصومين الأربعة عشر
- ٣٢ - أنصار الإمام الحسين عليه السلام
- ٣٣ - فضائل ومناقب علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام في مسانيد أهل السنة (ج ١)
- ٣٤ - فضائل ومناقب علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام في مسانيد أهل السنة (ج ٢)
- ٣٥ - قصص المثنوي
- ٣٦ - خطر الأفيون
- ٣٧ - زيارة الإمام الرضا سلام الله عليه